

أنصار النبي صلى الله عليه وسلم

السنة الثانية
العدد ١٧

أكتوبر ٢٠٢٣
ربيع الأول ١٤٤٥

رئيس الهيئة: د. محمد الصغير
رئيس التحرير: محمد إلهامي

المعلم الأعظم ﷺ
محمد إلهامي

الأمي الذي علّم الدنيا
د. عبد الحي يوسف

التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية
الأستاذ محمد قطب

الفِتية وطلب العلم
الشيخ خالد الراشد

الله والعلم وجوجل
الشيخ أنس السلطان

وغيرها من المقالات...

مجلة أنصار النبي ﷺ

الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ
International Organization Of Sopporters Of The Prophet

أهداف الهيئة

تضع الهيئة هدفها الرئيسي على هذا النحو:

«أن يكون جناب النبي ﷺ مصوناً محترماً، وأن تكون الإساءة إليه مجرمة قانوناً في سائر أنحاء العالم» وهو الهدف الكبير الذي يحتاج إلى عمل ضخم ودؤوب على كافة المستويات.

وقبل الوصول إليه لا بد من إنجاز مراحل مهمة في التعريف بالنبي ﷺ، كذلك لا بد من إنجاز مراحل مهمة في حشد الجهود مع المسلمين والعقلاء من غير المسلمين لتجريم الإساءة إلى النبي ﷺ قانونياً في البلدان المختلفة، وهو الأمر الذي يتطلب خبرات متنوعة عالية المستوى.

السياسة العامة لعمل الهيئة

إن قضية نصرة النبي ﷺ قضية كبيرة لا يمكن أن تنهض بها جهة واحدة مهما بلغت من القدرات والإمكانيات، وكذلك فإن «الهيئة العالمية لنصرة النبي ﷺ» اختطّت لنفسها سياسة عامة تقوم على تفعيل الطاقات الإسلامية واستثمارها والتنسيق بينها، بحيث تبلغ المجهودات المبذولة في نصرة النبي ﷺ أقصى نتائج ممكنة.

تضع الهيئة نفسها في موضع التنسيق والتنظيم بين المؤسسات الإسلامية المختلفة لتأدية واجب نصرة النبي ﷺ، فهي تعمل -على سبيل المثال- على استثمار طاقة الجاليات الإسلامية المقيمة في البلاد المختلفة لحصر أهم الشبهات والقضايا المثارة عن النبي ﷺ والتي تحتاج مجهودا علميا وفكريا لتفنيدها، ثم تعمل على حث طاقة المؤسسات العلمية من الجامعات الإسلامية والمعاهد والأكاديميات والروابط العلمائية على معالجة هذه الشبهات، ثم تعمل على تحويل هذا المجهود الفكري والعلمي إلى معالجات فنية متنوعة: مقروءة ومسموعة ومرئية قريبة إلى لغة العصر والمزاج العام السائد لدى الرأي العام المعاصر، وذلك عبر حث الطاقات القائمة في مجال الإعلام والإنتاج الفني لدى المؤسسات الإسلامية على معالجة هذه الأفكار. تستثمر هذه الأطراف جميعها طاقاتها الموجودة فعلاً في تسويق المنتجات النهائية.

وبهذا تتوجه المجهودات والطاقات القائمة نحو هدف نصرة النبي ﷺ بطريقة فعالة ومنسقة، حيث تؤدي كل جهة دورها الذي تحسنه.

أنصار النبي صلى الله عليه وسلم

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

محتويات العدد

رئيس الهيئة
د. محمد الصغير

رئيس التحرير
محمد إلهامي

@ ansarunaby@gmail.com

أئمة الهدى

«من تراث علمائنا الراحلين»

الصادعون بالحق

«من تراث العلماء والدعاة الأسرى»

ترحب مجلة « أنصار النبي ﷺ » بمشاركات السادة القراء الكرام على هذا النحو:

١ كتابة المقال، وأن يكون مقالاً لا تنقصه الرصانة العلمية ولا العاطفة الدعوية، على ألا يتجاوز في أقصى الأحوال ١٥٠٠ كلمة، مذيلاً بالاسم الحقيقي لصاحبه.. ويتعلق بموضوع المجلة عن التعريف بالنبي ﷺ وشمائله وفضائله وأخلاقه ورحمته بأمته والتذكير بحقه وواجبات الأمة نحوه، والدفاع عن سنته ومحبة آل بيته وصحابته، ورد الشبهات عنه.

٢ ترشيح مادة كتبها عالم من العلماء الراحلين، أو من المؤسسات الإسلامية العريقة كالأزهر في مصر وهيئة كبار العلماء في الجزيرة وندوة العلماء في الهند تتعلق بموضوعات المجلة.. مع التوثيق الدقيق لهذه المادة: في أي كتاب أو مجلة نشرت بالصفحة وتاريخ الطبعة، أو رابط المادة على الانترنت.

٣ أو ترشيح مادة كتبها أحد العلماء والدعاة الأسرى فيما يتعلق بموضوع المجلة، مع التوثيق الدقيق لمصدرها.

- تفريغ مادة صوتية لأحد العلماء -الراحلين أو الأسرى- مع توثيق مصدرها.

- ولا نستغني أبداً عن مجهود القراء ومساعدتهم في نشر المجلة أو في ترجمتها إلى لغات أخرى أو في طباعتها وتوزيعها في بلدانهم، فحقوق الطبع والتوزيع محفوظة لكل مسلم.

ترسل المشاركات على البريد الإلكتروني التالي : ansarunaby@gmail.com

أكاديمية أنصار النبي

SUPPORTERS OF PROPHET ACADEMY

أكاديمية أنصار النبي

أكاديمية علمية ودعوية عالمية، منبثقة عن الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام، تعتمد التقنيات والأساليب الحديثة في التعليم، تنظم وتقدم برامج ودورات علمية، ودبلومات شرعية وفنية ومهارية في مختلف مجالات النصرة النبوية، وتقوم على تخريج وتأهيل متخصصين في فقه نصرة النبي صلى الله عليه وسلم علميا وعمليا، وتعمل على تمكين الشباب المسلم من المشاركة الواعية الفعالة في مجالات النصرة المتعددة.

الشيخ د.محمد الصغير
الأمين العام للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام

+90 536 491 13 74
@ansaracademy_

الشيخ د. عبد الحي يوسف
عميد أكاديمية أنصار النبي صلى الله عليه وسلم



الافتتاحية

هنا مدرسة محمد ﷺ



د. محمد الصغير

رئيس الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

ما أرسل الله من رسول إلا أيدة بمعجزة تدل على صدقه وتؤيد دعواه، وتدعو أصحاب العقول الصحيحة للإيمان به، وعبر رسول الله ﷺ عن طبيعة معجزته فقال: "مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْياً أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[١].



[١] صحيح مسلم.

فكانت معجزته وحياً وعلماً ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

والمتأمل لأول ما نزل من القرآن الكريم يدرك أن معجزة النبي الأكرم ﷺ، كانت معجزة بيانية بلاغية، أساسها العلم وترتكز على التعليم، فكانت البداية مع سورة العلق:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

ثم نزل بعدها يؤكد على وسائل التعليم: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، ومع أن القرآن الكريم المعجزة الأولى والأساسية لرسول الله ﷺ، إلا أن الله أيده بصنوف المعجزات الآخرى مما مَنَّ به على إخوانه المرسلين.



ومن جملة معجزاته عليه الصلاة والسلام، معجزته التربوية التعليمية التي أثمرت الجيل القرآني الفريد، الذي حمل الأمانة وأوصلها إلى العالمية تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾. [الأنبياء:١٠٧]

فقد علم رسول الله ﷺ أصحابه كيف يفتحون بلاد العالم باسم الله، وتدين لهم المدائن على سنة رسوله ومصطفاه، وأصبحت جيوشهم على تخوم بلاد الروم، وفرسانهم يفتحون بلاد فارس، وكان أحدهم قبل الإسلام يصنع إلهه من عجوة، فإن جاع أكله!

ولو أُخذت عينة من جيل الصحابة، لعمل دراسة من ناحية كونهم من المعجزات التربوية لرسول الله ﷺ من خلال مقاييس التعليم والتغيير، وأثره فيهم، لقبل ذلك المنصفون وأقروا به.



وهذا كله نتاج اعتماد رسول الله ﷺ مبكراً على نظام التدريس والتعليم من خلال "مدرسة محمد" التي كانت في دار الأرقم بن أبي الأرقم، ذاك الفتى المخزومي الذي لم ترهبه عداوة قريش للمؤمنين، ولا جلد قومه في معادة النبي الكريم.

واستمرت هذه المدرسة في مكة ثلاثة عشرة سنة، تربى فيها الجيل الأول من صحابة النبي الأكرم ﷺ، وعليهم قام بنيان الإسلام وفتحت البلدان، ومنهم كانت طلائع الهجرة، حيث انتقل الإسلام من مرحلة الدعوة إلى مرحلة الدولة، وأثمرت تربية الثلاثة عشر سنة حُكماً دام ثلاثة عشر قرناً، حتى سقطت الخلافة العثمانية ١٩٢٣ أي قبل مائة سنة من الآن، وهي مرحلة الاستثناء والجملة المعترضة في تاريخ الأمة.

في كل مرحلة من مراحل الدعوة أو بناء الدولة، كان رسول الله ﷺ يؤكد على أهمية العلم، وأنه الركيزة الأساسية، وبه يكون التفضيل وعليه يكون التعويل، فجعل بعد انتصاره في غزوة بدر في وسائل فك الأسارى، أن من علّم عشرة من أولاد المسلمين كان ذلك فكاكه، وفي دفن شهداء أحد كان يقدم في الدفن أكثرهم أخذاً للقرآن، وفي شأن الصلاة عمود الإسلام قال: "يؤم القوم أقرؤهم"،

وكان يزوج الرجل على ما معه من القرآن، ويجعل تعليمه لزوجه وتحفيظها هو مهرها، ووجّه زيد بن ثابت لتعلم لغة اليهود، فأتقنها في سبعة عشر يوماً، وكان يقرب المتميزين في العلم ويشجعهم، كما قال لأبي بن كعب: "لِيَهنِك العلم أبا المنذر"، وقال لمعاذ بن جبل: "إني لأحبك يا معاذ".

واعتمد أصحابه من بعده منهجه وطريقته، فكان من عوامل تفضيل أبي بكر للخلافة علمه بالأنساب وأيام العرب وطباعهم، لذا قضى على فتنة الردة في مهدها، وفسر عبدالله بن مسعود سر إجماعهم على استخلاف عمر فقال: "كنا لا نشك -أصحاب محمد ﷺ- أن العلم قد دُس في حجر عمر".



وما ظهر الوهن وأمارات الضعف، وتخلف الركب إلا عندما اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، وقدموا أهل الولاء على أهل العلم، ورفعوا القرابة على أهل الفضل.

ويبقى العلم من خصائص النبوة، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكنهم ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.



المعلم الأعظم ﷺ



محمد إلهامي (رئيس التحرير)

عضو الأمانة العامة للهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

كيف يمكن القبض على شعاع الضوء؟

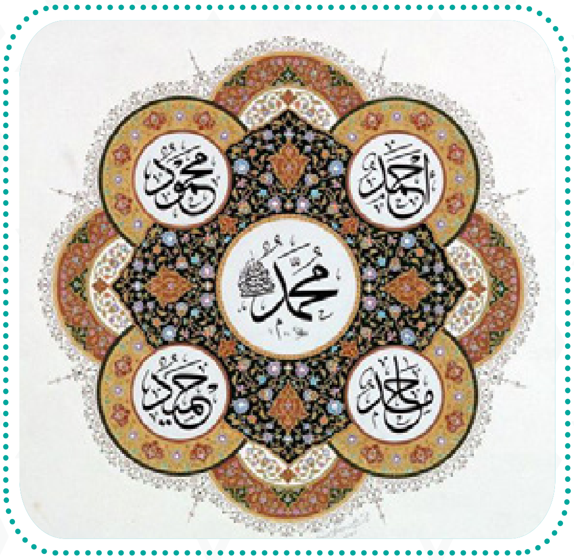
إنها ليست بأصعب من محاولة الكلام عن نبينا محمد ﷺ، وعما جاء به من العلم، وعن تأثيره العلمي في الأولين والآخرين.

هذه السطور محاولة خجولة مختصرة معتصرة، ولقد بقيت بعد ذلك أمورٌ أخرى تحتاج إلى مقام آخر لبيانها، وبعض ذلك سبق أن ذكرته في مواطن أخرى[1].

---

١ ينظر مثلا: محمد إلهامي، نحو تأصيل إسلامي لعلم الاستغراب، ط١ (القاهرة: دار التقوى، ٢٠١٥م)، ص٦٢ وما بعدها.

١ علمٌ غزير من براهين النبوة



ترى هل بإمكان رجلٍ يعترف لنفسه بالأمية، وبأنه بُعِث في أمة أمية أن يأتي بما لم تستطِعه عقول العباقرة والفلاسفة من أبناء الحضارات العريقة العتيدة؟!

إن محمداً ﷺ ظل أربعين سنة في قومه، لا يُعرف عنه تكبر أو ادعاء للعبقرية أو طموح للزعامة، كما لم يُعرف عنه إقبال على كتب الأولين والأقدمين، ولا سعي في البحث عن علم أهل الكتاب من أحبار اليهود والنصارى، ولا رُؤي حتى يحاول أن يقرض الشعر الذي هو مزيّة قومه ومستودع تاريخهم ومعارفهم ولسان حكمتهم!

وإذا بهذا الرجل الهادئ الوقور الذي لم يحاول الاشتباك مع عقائد قومه وأنظمتهم، وإنما تجنبها في صمت، يخرج فجأة عن صمته ويقول عن نفسه إنه رسول الله، وإنه قد جاءهم بعلم لا يطيقونه ولا يستطيعونه، وإنه يتحدى بهذا العلم أهلَ الكتاب من قبله، وأنه يخبرهم عن أحكام أخفوها وعن أخبار كتموها، ثم يبلغ التحدي ذروته حين يخبر أنه هو ﷺ، بشخصه واسمه وسمته، موجود في كتب أهل الكتاب التي يتداولونها فيما بينهم والتي لم يطلع هو عليها ولم يعرف أنه جلس إلى أحد منهم!

وإذا بالعاصفة تثور عليه في مكة والمدينة، عاصفة أشعلها كفار مكة ويهود المدينة ثم النصارى في جزيرة العرب، وطوال هذا العمر لا يزداد هذا الرجل إلا صلابة وإصراراً ويقيناً فيما يقول، بل يزيدهم في كل مرة من هذا العلم الذي جاء به، فيحكي عن تفاصيل دقيقة لأنبياء وأقوام ذهبوا ودثروا، بل ويخبر عن انتصارات لم تحدث بعد، وهو يعد أنها ستحدث قريباً، ويخبر عن أمور لن يدركها هو ولكن سيدركها أصحابه، ثم عن أمور لن يدركها أصحابه وستدركها الأجيال التالية!

❁ إن حجم القوة والتحدي في العلم الذي جاء به النبي ﷺ هو أحد براهين نبوته ﷺ، فتأمل مثلا بعض هذه التحديات البالغة القوة: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢ - ٤].. وغير ذلك كثير.

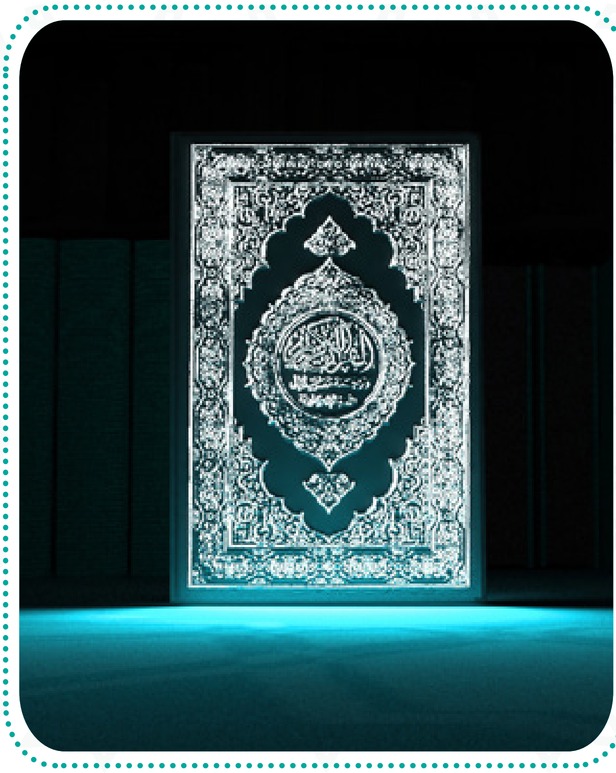
ويزيد في صدق ذلك النبي ﷺ أنه هو نفسه لم يزعم أبداً أنه إنما جاء بهذا العلم من عند نفسه، ولا أن هذه الأمور هي من تجليات ذكائه وعبقريته ونفاذ بصيرته، وإنما هو رسول يوحى إليه، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

وهو ﷺ يعترف على نفسه بأنه لم يكن يتوقع هذا العلم ولا كان مستعداً له كما تكشف حياته قبل ذلك، ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ [القصص: ٨٦].

وأنه ﷺ، مع كل هذا العلم الذي جاء به وأخبر عنه، لا يعلم الغيب ولا يدري ما يُفعل به، ولا يستطيع دفع الضر عن نفسه ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

❷ علمٌ صافٍ لم يتكدر بخطأ ولا باطل

لو كان للنبي ﷺ مُعَلِّم من البشر لأهلك الناس أنفسهم، المؤمنون به والكافرون، في محاولة فهم هذا المُعَلِّم وبيئته ونشأته وحجم تأثره بواقعه، وحجم المادة البشرية التي جاءت من هذا المُعَلِّم أو من هؤلاء المُعَلِّمين ضمن العلم الذي جاء به محمد ﷺ في القرآن والسنة!



إن محاولة تحليل المصادر هي واحدة من أركان المنهج العلمي، يتبين بها حجم التأثر وحجم العبقرية لدى العالِم أو الفيلسوف العبقري، ولكن هذا الباب بقي مغلقًا لأن محمداً ﷺ لم يتعلم من أحد، ولم يتأثر بشيخ ولا أستاذ، فما كان له من مصدرٍ لهذا العلم كله إلا الوحي، الوحي الرباني الذي نزل من عند الله تعالى، فلم يتلوث ولم يتكدر بما لدى البشر من أهواء ورغبات وأمزجة وشهوات وأخطاء وأباطيل.

وبهذا صان الله رسالته ورسوله من أن يتسرب إليها شيء، فلم يكن محمد ﷺ إلا ناطقاً عن الله تعالى ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٢ - ٤].

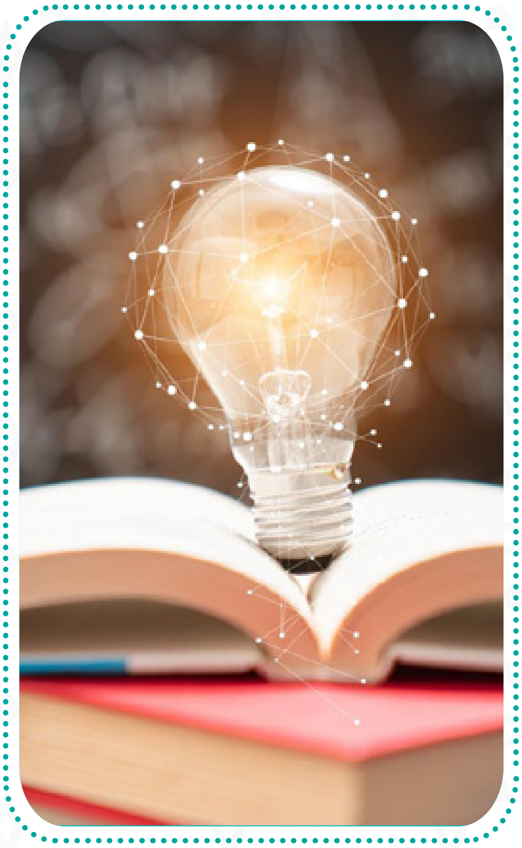
وبهذا أيضاً رفع الله رتبة رسوله ﷺ ألا يكون لأحد من البشر فضلٌ عليه، فأعظم الناس فضلاً على الناس هو من يُعَلِّمهم، ومن ثَمَّ فلا فضل على الرسول إلا الله، ولا فضل على الأمة إلا لله ورسوله،

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

لأجل هذا كانت أمية النبي شرف له وشرف لأمته، وسلمت الأمة ونبيها من المصادر البشرية في دينها وشريعتها، وصاروا بذلك معلِّمين لغيرهم من الجهلاء ومن المتعلمين سواء!

٣ علم نافع

يقولون بأن الفلاسفة هم أذكى البشر، فمنتهى العبقرية البشرية أن تكون فيلسوفاً! ولا يزال الناس إذا ذكروا أذكياء العالم ونوابغه خطر على أذهانهم أسماء الفلاسفة مثل أفلاطون وأرسطو وكونفوشيوس، مروراً بالفارابي وابن سينا، وحتى فولتير ونيتشه وهيجل ومَن بعدهم!



لكن مَن دخل في غابات الفلسفة وأفكار البشر رأى نفسه كأنه في غابة ضخمة، غامضة ومتشابكة ومظلمة، النور فيها قليل والظُّلمة فيها كثير، واليقين فيها نادر والشك فيها غزير، وكلما زِدْت من الفلسفة قلَّ اليقين وازدادت الشكوك!

وأندر الفلاسفة هم أولئك الذين يكتبون كلاماً سهلاً بسيطاً مفهوماً، فإنك إن أردت قراءة الفلسفة فلا بد لك من عُدّة اصطلاحية قوية، ومن ضبط مفاهيمي مُحكم، ولعلك بعد هذا تفهم أو لا تفهم مراد الفيلسوف العبقري أيضاً!

ولذلك لا يُعجب بالفلاسفة إلا من كانوا من الأذكياء، بينما لم يستطع الفلاسفة أبداً إصلاح أحوال الناس وقيادة المجتمعات، حتى الذين أتيحت لهم فرصة الحكم أو كانوا في بلاط الحكم أو كانوا أساتذة للحاكم!

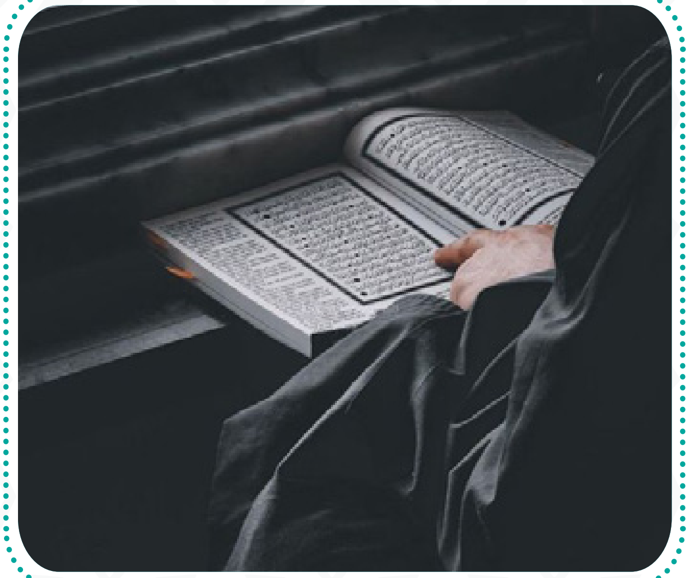


وأكثر ما تخوض الفلسفة فيه هو الأمور النظرية الذهنية التجريدية التي لا تُحَسُّ ولا يمكن قياسها، وأكثرها لا يمكن القطع بصوابه من خطئه، وأعظم ما قد يصل إليه الفيلسوف هو بناء النظرية المحكمة التي تبلغ به وبأتباعه مرحلة الفَهم، فهم الكون والحياة، وأما مرحلة الإصلاح والعمل فأمرٌ فوق طاقة الفلاسفة!

أين هؤلاء الفلاسفة العباقرة الأذكياء من رجل مثل محمد ﷺ؟ جاء بالعلم النافع، فما من شيء نطق به النبي ﷺ إلا وهو نافع في إصلاح الإنسان في نفسه، وإصلاح الحياة من حوله. وقد نَدَر أن يجلس إنسان إلى فيلسوف فيخرج من تحت يده (أو بعد قراءة كتابه) صالحاً مُصْلِحًا، بينما ندر أن يجلس إنسان إلى النبي ﷺ (أو إلى سُنته) ثم يخرج من تحت يده خاملاً أو ساكنًا.. لقد أخرج النبي ﷺ إلى هذا العالم جيوشًا من المصلحين! وكانت حركتهم في تغيير العالم وإصلاحه هي أسرع الحركات والفتوحات في تاريخ البشر كله، بل هي معجزة عسكرية تاريخية مدهشة لا مثيل لها!

لقد كان محمد ﷺ يحارب العلم غير النافع، وينهى عن الخوض فيما لا ينبني عليه عمل، وينهى عن السؤال في أمور لا يمكن للعقول أن تجد الإجابة عليها!

ثم إنه بثَّ هذا العلم العظيم في كلام سهل يسير، ليس فيه تعقيد ولا تكلف ولا تشدق، ولهذا فما أسرع ما كان يفهمه أصحابه! وعبر تلك الأجيال المتطاولة ما يزال الذي يجيد اللغة العربية يفهم القدر الأعظم من كلام النبي ﷺ، لا يفلت منه إلا القليل من المصطلحات التي لم تَعُد تُستعمل في بيئة العرب!



لقد جاء النبي ﷺ بتبسيط المعاني الكبرى العظمى التي يحتاجها البشر، فالقرآن والسنة يُخاطَب بهما: العامي والعبقري، الساذج والحاذق، الصغير والكبير، ويأخذ كل منهم منها بقدر ما يطيق، بينما بقيت أفكار الفلاسفة محصورة في فئة ضيقة من الناس، لا يفهمها غيرهم، وحتى أولئك الذين يزعمون فهمها يختلفون فيها أيضاً!

٤ علم شامل

لقد نفخ محمد ﷺ في هذا العلم النافع روحاً وطاقة وشعوراً لاهباً، فإن أنتَ جلست إلى الفيلسوف العبقري فلن يتضخم فيك إلا الرأس والعقل والذهن، وتبقى بقيتك ساكنة خاملة ذابلة، فأما إذا جلست إلى النبي ﷺ وما جاء به (القرآن والسنة) فقد ترعرع فيك كل شيء: العقل والنفس والروح جميعاً!

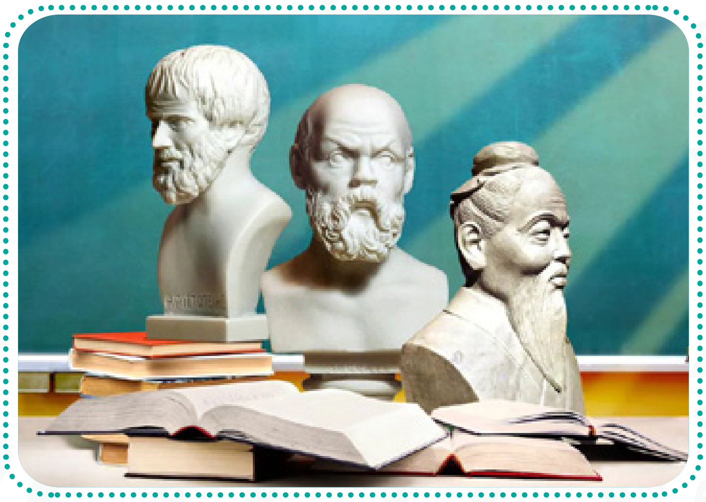
وبهذا كان نبينا ﷺ معلماً شاملاً يُذكِّي العقول ويُزكِّي النفوس ويرتقي بالأرواح، بل ويقوي الأبدان كذلك، فلقد جاءنا بنصائح في المأكل والمشرب والنظافة والحركة يستقيم معها البدن.

ولستَ ترى فيلسوفاً قد جاء بكل هذا، فإما فيلسوف قد جاء بعبقرية تزيد في العقل والذكاء، أو فيلسوف جاء بروحانية ورهبانية تزيد في صفاء النفس وخفة الروح، أو فيلسوف جاء بتغذية البدن وتلبية مطالب الجسد!

وقد جاء نبينا بإصلاح أحوال الحياة جميعها: السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق، وحتى حقوق الحيوان والنبات، وحتى تنظيف الطرقات جاء فيها بتعاليم غزيرة!

ولستَ ترى فيلسوفاً قد جمع كل هذا، فإما فيلسوف جاء بإصلاح الحكم والسياسة، أو بإصلاح الاقتصاد وتوزيع الثروة، أو بإصلاح أحوال الاجتماع من الأسرة والأطفال حتى الطبقات الاجتماعية وأحوال الأقليات، أو جاء بإصلاح الأخلاق في النفس أو في المجتمع!

والفيلسوف قد ينحاز إلى المادية حتى يستغرق فيها وتستغرقه، أو ينحاز إلى الروحية حتى يستغرق فيها أو تستغرقه، ولهذا فلن تجد حضارةً أبدًا مبنية على أفكار فيلسوف واحد، إذ أفكاره قاصرة وناقصة ولا تغطي سائر الجوانب.



بينما حضارتنا الإسلامية انطلقت وانبثقت وليس لها أساس إلا ما جاء به محمد ﷺ، لا مرجعية لها ولا مصدر سوى القرآن والسنة، وبقيت على هذا قرنًا على الأقل، قبل أن تبدأ في استيعاب الموارد والمصادر المختلفة من حضارات فارس واليونان والهند والصين، وهي عندما استوعبت هذا فإنما حاكمته ووزنته وروزته بميزان ما جاء به محمد ﷺ.

٥ خلاصة

لهذا كله، كان النبي ﷺ أكثر من جميع الفلاسفة أتباعاً وأنصاراً ورجالاً.. فمن كان معترفاً للفلاسفة بالعبقرية والذكاء، فيلزمه أن يعترف لمحمد ﷺ بأنه أعظمهم وأنفعهم للناس والحياة.

وينبغي في نهاية هذا المقال، الذي اجتهدت في اختصار معانيه وآمل أن أتمكن يوماً من بسطها والتفصيل فيها، أو لعل غيري يقوم بذلك فيُحسن ويجيد.. أقول: ينبغي في نهاية هذا المقال الذي لم تتسع المساحة لمعانيه أن أؤكد على أمر مهم جدًّا:

نحن المسلمين لا نقبل أن يُقارَن نبينا ﷺ بغيره من البشر، فضلاً عن مقارنته بفلاسفة أكثرهم ملحدين وكفاراً ومتشككين في أنفسهم وفي الحياة من حولهم، وأكثرهم أخفقوا في عملهم وحياتهم، وكثير منهم كانت له فضائح ومخازٍ وأخلاق هابطة، وكثير منهم انتفع بفلسفته وارتزق بها مالاً أو نفوذاً أو شهوات، وليس قليلاً منهم من مات منتحراً.

لسنا نقبل بهذا ولا للحظة، ولكننا نضطر إلى مثل هذا التنزل حين ينفتح الحديث عن العلم، فلقد أخذ المعجبون بفلاسفتهم يسرفون في تلقيبهم بالمعلم الأول والمعلم الثاني ونحو ذلك، ويسرفون في وصف تأثير هذا الفيلسوف على الأوضاع في عصره أو على العقول من بعده! وينسى أكثر هؤلاء أن محمداً ﷺ أعظم منهم جميعاً، في كل شيء، وفي كل ناحية، وفي كل تأثير!

فبمثل هذه المقارنات نثبت لهم ولغيرهم أن نبينا محمداً ﷺ هو المعلم الأعظم.



الأمي الذي علّم الدنيا



د. عبدالحي يوسف
عميد أكاديمية أنصار النبي ﷺ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، أما بعد:

فإن أمية النبي ﷺ من القطعيات التي جاء بها الوحي؛ في قول ربنا جل جلاله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] وقوله جل في علاه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

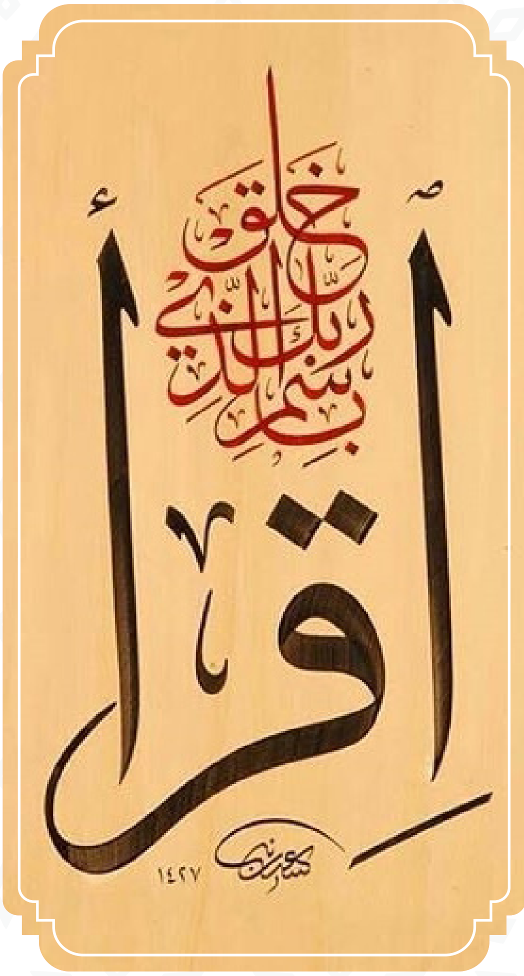
وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، قال أهل التفسير: المرادُ بالمُبطِلينَ هنا أهلُ الكتابِ. أي: فلو كان النَّبيُّ غيرَ أمِّيٍّ لَقالوا: الَّذي نجِدُه في كُتُبِنا أنَّه رَسولٌ أمِّيٌّ لا يكتُبُ ولا يَقرأُ. وقيل: المرادُ بهم: كُفَّارُ قُرَيشٍ. أي: فلو كان النَّبيُّ غيرَ أمِّيٍّ لارتاب هؤلاء وقالوا: إنَّما أخَذَ القُرآنَ وتعلَّمَه مِن كِتابٍ سابقٍ.



وقال القرطبي رحمه الله تعالى: «قال علماؤنا: كانت العرب أقل الخلق معرفة بالكتاب، وأقل العرب معرفةً به المصطفى ﷺ؛ صُرف عن علمه ليكون ذلك أثبت لمعجزته، وأقوى في حجته».

وهذه الأمية المحمدية إنما كانت معجزة ربانية من أجل قطع ألسنة المتخرصين الذين قالوا زوراً «إنما يعلمه بشر» وقالوا «أساطير الأولين اكتتبها»، بل قالوا: «أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر»، وهم في ذلك كله يعلمون أنهم كاذبون.. «إنكم لفي قول مختلف» فاختلافهم دليل كذبهم.

هذا الأمي صلوات الله وسلامه عليه هو الذي جاء بالعلم من اللحظة الأولى لرسالته حين فجأه الوحي في غار حراء بتلك الكلمات الخالدات: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].



قال ابن عطية رحمه الله تعالى: «وهي أول ما نزل من كتاب الله تعالى، نزل صدرها في غار حراء حسب ما ثبت في صحيح البخاري وغيره».

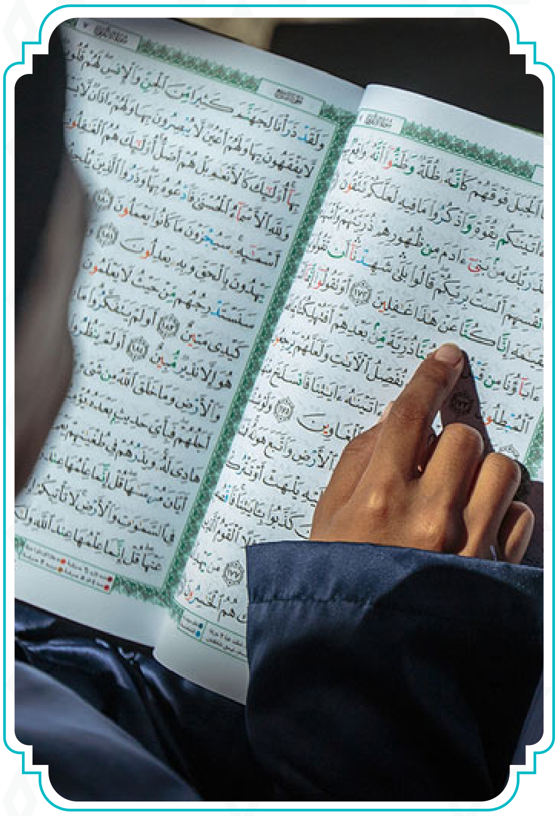
وهذه الآيات الخمس الأُوَل من سورة العلق التي هي مبتدأ الرسالة المحمدية تمثل الافتتاحية التأسيسية لهذه الرسالة العظيمة، ولو تأمل امرؤ في كلماتها {اقرأ - علَّم - بالقلم - علَّم الإنسان ما لم يعلم} يدرك بداهةً أن النبي ﷺ جاء ليبدد ظلمات الجهل بأنوار العلم ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وفي ذكر القلم في صدر هذه السورة المباركة تنويه بشأنه وتنبيه على عظيم قدره، قال قتادة السدوسي رحمه الله تعالى: «القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقُم دين، ولم يصلح عيش».

فدلَّ على كمال كرمه سبحانه، بأنه علَّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبَّه على فضل علم الكتابة؛ لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو، وما دُوّنت العلوم، ولا قُيّدت الحِكَم، ولا ضُبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا. قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

«القلم من أعظم نعمه على عباده، إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقائق وتعلَم الوصايا وتُحفَظ الشهادات وتُضبَط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تُقيَّد أخبار الماضين للباقين اللاحقين، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودَرَست السنين، وتخبطت الأحكام ولم يعرف الخلف مذاهب السلف، وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاءً حافظاً للعلم من الضياع كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان». ا.هـ

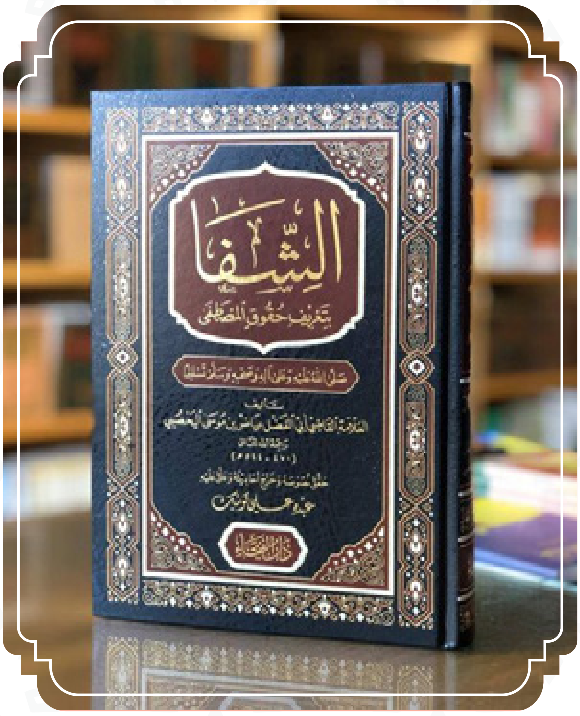
هذا وقد جاء صلوات ربي وسلامه عليه بالعلم اليقيني الذي لا يأتيه الباطل ولا يعتريه الشك، وفي الكتاب الذي أنزله الله ما يدل على أنه النبي المبعوث من عند الله عز وجل؛ وذلك بالنظر إلى تلك الغيوب التي أخبر عنها من أخبار الأولين وقصص الغابرين، وقد كان بعض تلك الأخبار مما يحرص أتباع الديانات على كتمانها وعدم البوح بها، ومن أمثلة ذلك قصة القرية التي كانت حاضرة البحر، وما ختم الله به للعصاة من أهلها حين قال لهم «كُونوا قِرَدَةً خاسِئِينَ»، وقد كان ذلك من الأخبار التي يكتمها اليهود عمن ساكنوهم من الأوس والخزرج، وكذلك إخباره إياهم عن حكم الرجم وما حرَّم إسرائيل على نفسه وما كان من تحريم الله تعالى عليهم بعض الطيبات جزاء كفرهم وعتوهم؛ قال سبحانه:



﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا * وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ

نُهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابًا أليمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١]، ومَن حاول منهم تكذيب شيء من ذلك جاء القرآن مقرّعاً إياه: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ [آل عمران: ٩٣].

وأما الغيوب المستقبلة التي جاء القرآن مخبراً بها ووقع كما ورد على الوجه الذي أخبر فما أكثرها! وقد ساق القاضي عياض بن موسى رحمه الله تعالى في كتابه الماتع (الشفا) نماذج من تلك الغيوب التي أخبر عنها القرآن:



كقوله تعالى: «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ».

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ».

وقوله: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ».

وَقَوْلِهِ: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ» الْآيَةَ.

وَقَوْلِهِ: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ».

فَكَانَ جَمِيعُ هَذَا كَمَا قَالَ.. فَغَلَبَتِ الرُّومُ فَارِسَ فِي بِضْعِ سِنِينَ. وَدَخَلَ النَّاسُ فِي الْإِسْلَامِ أَفْوَاجًا فَمَا مَاتَ ﷺ وَفِي بِلَادِ الْعَرَبِ كُلِّهَا مَوْضِعٌ لَمْ يَدْخُلْهُ الْإِسْلَامُ. وَاسْتَخْلَفَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَرْضِ ومكن دِينَهُمْ.. وَمَلَّكَهُمْ إِيَّاهَا مِنْ أَقْصَى الْمَشَارِقِ إِلَى أَقْصَى الْمَغَارِبِ.. كَمَا قَالَ ﷺ: «زويت لي الْأَرْضُ فَأُرِيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا».



وَقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فَكَانَ كَذَلِكَ، لَا يَكَادُ يُعَدُّ مَنْ سَعَى فِي تَغْيِيرِهِ وَتَبْدِيلِ مُحْكَمِهِ مِنَ الْمُلْحِدَةِ وَالْمُعَطِّلَةِ لا سيما القرامطة، فأجمعوا كيدهم، وَحَوْلَهُمْ وَقُوَّتَهُمُ الْيَوْمَ نَيِّفًا عَلَى خَمْسِمِائَةِ عَامٍ فَمَا قَدَرُوا عَلَى إِطْفَاءِ شَيْءٍ مِنْ نُورِهِ، ولا تغصير كَلِمَةٍ مِنْ كَلَامِهِ، وَلَا تَشْكِيكِ الْمُسْلِمِينَ فِي حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» وقوله: «قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ» الْآيَةَ. وَقَوْلِهِ: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى» الْآيَةَ. وَقَوْلِهِ: «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ» الْآيَةَ. فَكَانَ كُلُّ ذَلِكَ، وَمَا فِيهِ مِنْ كَشْفِ أَسْرَارِ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ وَمَقَالِهِمْ وَكَذِبِهِمْ فِي حَلِفِهِمْ، وَتَقْرِيعِهِمْ بِذَلِكَ. كَقَوْلِهِ: «وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ» وَقَوْلِهِ: «يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ» الآية. وقوله: «وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ» الآية.

وبعد: فحريٌّ بالمسلمين أتباع محمد ﷺ أن يعرفوا حقيقة رسالة نبيهم ﷺ؛ فلا يتعلقوا بخرافات ولا أساطير، ولا ترهات ولا أباطيل، بل يعلموا علم اليقين أن العلم هو شعار رسالته ودثارها، ولحمتها وسداها، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، وأن عالماً واحداً أشد على الشيطان من ألف عابد، وأن مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدماء الشهداء؛ فإذا استقر ذلك في وجدانهم نهضوا من عميق سباتهم وعظيم غفلتهم ليقودوا الركب كما كان أسلافهم، وينفضوا غبار الجهل عنهم، وينقذوا البشرية الحائرة من ضلالها المبين، والله الهادي إلى سواء السبيل.



العلم في الإسلام

هل هو «الشرعي» فقط؟



الشيخ سامي الساعدي

عضو الأمانة العامة بالهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم..

اقرأ..

كانت هذه الكلمة أول الأوامر الربانية، وفاتحة الكلمات القرآنية، نزل بها الروح الأمين على أطهر قلب بشري، في غار بعيد عن صخب الأسواق، وضجيج العابثين، وضلال المشركين.

إنها إيذان حق بإخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ونقلهم من تيه الحيرة والشك إلى برد السكينة واليقين.

أخوكَ عيسى دَعا مَيتاً فقامَ لَهُ •• وَأَنتَ أَحيَيتَ أَجيالاً مِنَ الرِمَمِ
وَالجَهلُ مَوتٌ فَإِن أوتيتَ مُعجِزَةً •• فَابعَث مِنَ الجَهلِ أَو فَابعَث مِنَ الرَجَمِ[1]

وهكذا كان.. ففي مثل هذا الشهر استنار الكون بمولده ﷺ، فحيي ببعثته أناس بعد موات، واستنار برسالته قوم بعد أن كانوا في حوالك الظلمات.

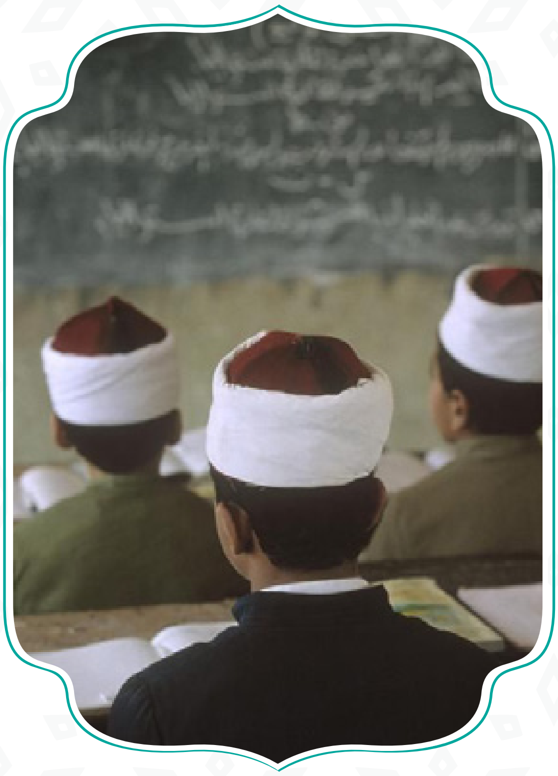
﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

كَأَنَّ وَجهَكَ تَحتَ النَقعِ بَدرُ دُجىً •• يُضيءُ مُلتَثِماً أَو غَيرَ مُلتَثِمِ
بَدرٌ تَطَلَّعَ في بَدرٍ فَغُرَّتُهُ •• كَغُرَّةِ النَصرِ تَجلو داجِيَ الظُلَمِ

لقد وردت مشتقات كلمة العلم في القرآن ثمانمائة وستاً وخمسين مرة، في حين وردت مشتقات كلمة العقل تسعاً وأربعين مرة، ومشتقات التفكّر ثماني عشرة مرة، ومشتقات التدبر أربع مرات. ليتدبر الناس وليعلموا ويتذكروا ويعقلوا، والنصوص التي ذكرت شرف العلم وفضائل أهله كثيرة وفيرة، وكان العلم منة من الله عزّ وجلّ على نبيه، وفضلاً من أفضاله العظيمة عليه وعلى أتباعه. ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

---

١ الرجم: أي القبر.



التعليم أول وظائف النبي ﷺ وحكمة من أولى الحِكَم التي بُعِثَ النبي ﷺ لأجلها، ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

بل دعا إبراهيم الخليل عليه السلام ربه فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وابتدأ النبي ﷺ دعوته على هذا النسق، يقرأ عليهم الآيات في دار الأرقم وفي غيرها. وبدأ النور ينتشر في الأنفس الآفاق، فيبدد الظلمات وينشر النور، ويقيم العدل وينشئ الحضارات. وتقرر لدى أصحابه وأتباعه ومَن تبعهم بإحسان أن «العلم قبل القول والعمل لقول الله تعالى: (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فبدأ بالعلم»[٢].

---

٢ فبدأ بالعلم: صحيح البخاري - كتاب العلم.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[٣].

وكانت قمة الإعجاز العلمي أن تأتي هذه المعارف للقوم على لسان رجل لا يقرأ كتابتهم ولا يكتبها:

كَفَاكَ بالعِلْمِ في الأُمّيّ مُعجزَةً •• في الجَاهِلِيّةِ والتّأديبِ في اليُتُمِ

هل المقصود بالعلم هو (الشرعي) فقط؟



وبعيداً عن الجدل الدائر حول مسألة:

هل النصوص الواردة في فضل العلم وشرف أهله تشمل سائر العلوم أم يقتصر في إنزالها على التفسير والحديث والفقه؟

فإن بعض الناس قد قصر النصوص الواردة في شرف العلم وفضل أهله على علوم الشريعة لا سيما التفسير والحديث والفقه. نعم فليكن.. هب أن ذلك صحيح؛ ولكن الذي يعنينا ابتداء في هذا المقام هو ما منزلة العلوم التطبيقية أو الإنسانية وسائر العلوم النافعة في الإسلام؟

---

٣ رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه.

نحن نعلم أن النبي ﷺ سأل ربه علماً نافعاً واستعاذ به من علم لا ينفع، كما صح في الأحاديث، وقد قرر علماؤنا رحمهم الله تعالى أن كل مهنة تحتاجها الأمة هي داخلة في فروض الكفايات التي إن أهملها المسلمون أثموا جميعاً، كما أن كل علم أو عمل إذا تعين طريقاً لدفع الضرر عن المسلمين يدخل في فروض الكفاية كذلك، جاء في مختصر خليل وشرحه الكبير في باب الجهاد وهو يعدد فروض الكفاية: «(ودفع الضرر عن المسلمين) ومَن في حُكمهم من أهل الذمة (والحِرَف المهمة) أي التي بها صلاح الناس وإقامة معاشهم».

وإذا كان تحصيل القوة يردع الأعداء عن التطاول على حرمات المسلمين وأراضيهم فإنه داخل في فروض الكفايات، قال الله عز وجل:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].



«أي ﴿وَأَعِدُّوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي: والسياسة التي

بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتَعَلُّم الرَّمْيِ، والشجاعة والتدبير. ولهذا قال النبي ﷺ: «ألا إن القوة الرَّمْيُ». ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته. فإذا كان شيء موجود أكثر إرهاباً منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأموراً بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة، وجب ذلك، لأن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم. ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم».

وقد ذهب بعض علماء الأصول ومنهم الإسفراييني والجويني إلى أن فرض الكفاية أفضل من فرض العين كما قال صاحب المراقي في فرض الكفاية:

وهو مفضل على ذي العينِ •• في زعم الأستاذ مع الجويني

وذلك «لأنه يصان بقيام البعض الكافي في الخروج عن عهدته جميع المكلفين عن الإثم البعض القائم به فقط»[٤].

ولعل أوضح مثال على هذه المهن الشريفة المهمة -التي تعتبر معرفتها علماً شرعياً باعتبارها فرضاً كفائياً- مهنة الطب، ولهذا كان لها عند علماء الإسلام المحل الرفيع.. كان للإمام الشافعي رحمه الله عناية خاصة بعلم الطب، وهو عالم الفقه والحديث وعَلَمُه، وأحد أئمة المذاهب الأربعة المتبوعة، بل هو مجدد القرن الثاني

٤ نثر الورود، ١/٩٢.

الهجري عند المحققين، وقد بوب الإمام البيهقي رحمه الله تعالى في مناقب الشافعي باب «ما يستدل به على معرفة الشافعي رحمه الله بالطب»، روى فيه عن الشافعي عبارات يشيد فيها بالطب وينبه على أهميته، منها قوله: «إذا دخلت بلدة ولا تجد فيها حاكماً عدلاً، ولا ماء جارياً، وطبيباً رفيقاً- فلا تسكنها».



ومنها قوله: «اثنان أَغْفَلَهما الناسُ: الطب والعربية».

ومنها قوله: «احذر أن تشرب لهؤلاء الأطباء إلا دواء تعرفه».

وقال: «لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام، أنبل من الطب، إلا أن أهل الكتاب قد غلبونا عليه».

وقال تلميذه حرملة بن يحيي التجيبي: «كان الشافعي يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب، ويقول: ضيعوا ثلث العلم، ووكلوه إلى اليهود والنصارى».

ومما يَلفت النظر في العبارتين الأخيرتين قوة النفَس التحريضي واستحثاث الهمم واستنهاض العزائم، للتفوق على الأمم الأخرى في مضمار العلوم النافعة[٥].

بل كانت أم المؤمنين عائشة من أعلم الناس بالطب، قال ابن أختها عروة بن الزبير: «مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَعْلَمَ بِالطِّبِّ مِنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا»[٦].

---

٥ انظر مناقب الشافعي، للبيهقي ٢/١١٤ - ١١٧، وسير أعلام النبلاء، للذهبي ١٠/٥٧.
٦ سير أعلام النبلاء، ٣/٤٥٦.

وقال الغزالي رحمه الله في بيان ما هو من العلوم فرض كفاية: «أما فرض الكفاية فهو علم لا يُستغنى عنه في قوام أمور الدنيا؛ كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما؛ وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين، فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات؛ كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة، فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك؛ فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك»[٧].

وإذا ذكرت علوم الرياضيات والجغرافيا والفلك، هنا فسيقفز إلى الأذهان اسم الإمام الفقيه الحنفي محمد بن موسى الخوارزمي، المتوفَّى سنة ٤٠٣ هـ، الذي وصفه الذهبي بالمُفْتِي، العَلاَّمَة، شَيْخُ الحَنَفِيَّة»، ونقل عن الصيمري قوله فيه: «ثُمَّ صَارَ إِمَامَ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ وَمفتيهُم شَيْخُنَا أَبُو بَكْرٍ الخُوارَزْمِيّ، وَمَا شَاهد النَّاسُ مِثْلَهُ فِي حُسْنِ الفَتْوَى وَحُسْنِ التَّدرِيْس، وَقَدْ دُعِي إِلَى القَضَاءِ مِرَاراً، فَامْتَنَعَ رَحِمَهُ اللهُ»[٨].

هذا الفقيه الحنفي الفلكي الرياضي صار رئيساً لدار الحكمة ببغداد، وقد تُرجمت كتب الخوارزمي إلى اللاتينية ثم إلى الإنجليزية والألمانية بعد ثلاثة قرون من تأليفها، ولعل من أشهر كتبه كتابين هما: كتاب (مختصر الجبر والمقابلة)،



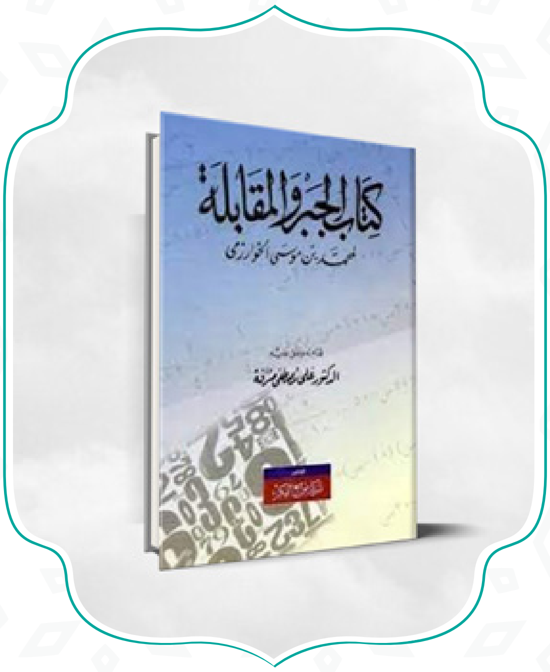
٧ إحياء علوم الدين، ١/ ١٦.

٨ انظر سير أعلام النبلاء، ١٧/ ٢٣٥.

وكتابه في الأعداد الذي حل به إشكاليات استعصت على الأوربيين والصينيين وغيرهم من الأمم، وذلك كإشكالية الصفر وإشكالية كتابة الأعداد الكبيرة.

وإذا كانت كلمة الجبر -التي ضمنها الخوارزمي عنوان كتابه السالف الذكر- كلمة عربية تعني ترميم الأجزاء المهمة وجمعها، فإنها وبفضل الخوارزمي دخلت عالَمَ اللغات الفسيح لتصبح مصطلحاً عالمياً هو (Algebra)؛ بل إن اسم «الخوارزمي» نفسه قد عقد صلة وثيقة بعلم (اللوغاريتمات) (Algorism) المشتق من اسمه.

ولا تحسبن الخوارزمي وهو يؤلف كتبه هذه غافلاً عن احتساب الأجر في ذلك، أو مبتوت الصلة بذكر الله تعالى وأحكامه، كيف وهو الإمام الفقيه الحنفي؟!



انظر إليه في مقدمة كتابه (الجبر والمقابلة) وهو يوصل لهذا المعنى فيقول: «لم يزل العلماء في الأزمنة الخالية، والأمم الماضية، يكتبون الكتب مما يصنفون من صنوف العلم، ووجوه الحكمة، نظراً لمن بعدهم، واحتساباً للأجر بقدر الطاقة، ورجاء أن يلحقهم من أجر ذلك، وذخره، وذكره، ويبقى لهم من لسان الصدق ما يصغر في جنبه كثير مما كانوا يتكلفونه من المؤونة، ويحملهم على أنفسهم من المشقة في كشف أسرار العلم وغامضه».

ويقول رحمه الله: «على أني ألفت من «كتاب الجبر والمقابلة» كتاباً مختصراً، حاصراً للطيف الحساب وجليله، لما يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصاياهم، وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجاراتهم، وفي

جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين كَرِيِّ الأنهار، والهندسة، وغير ذلك من وجوهه وفنونه، مقدماً لحسن النية فيه، راجياً لأن ينزله أهل الأدب بفضل ما استودعوا من نعم الله تعالى، وجليل آلائه، وبالله توفيقي في هذا وفي غيره، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم»[9].

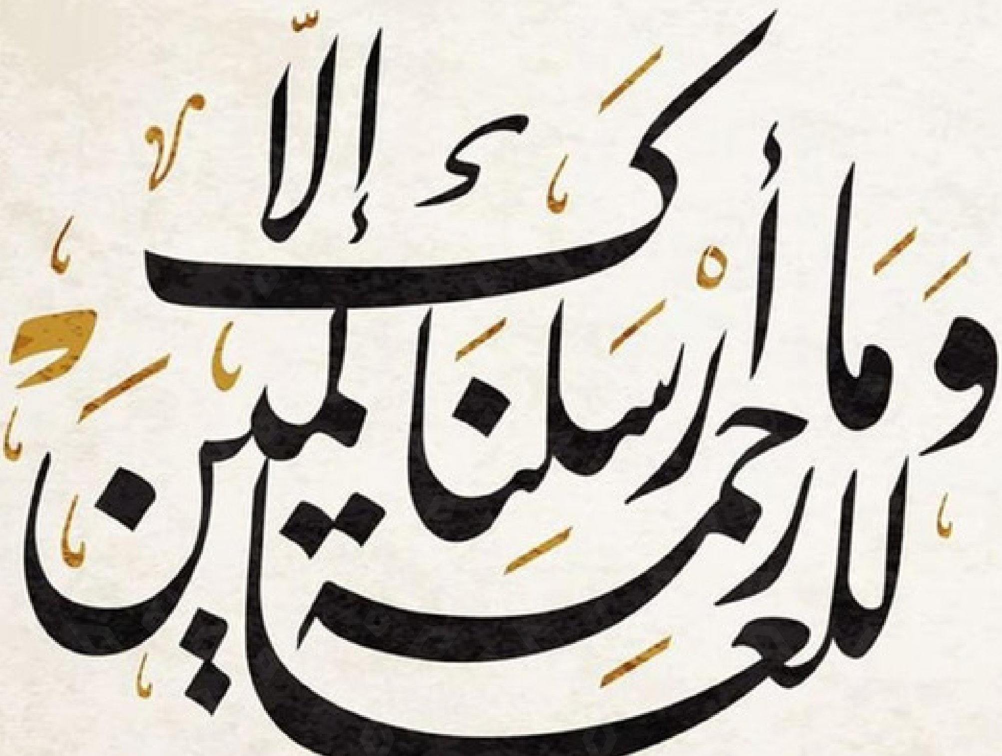
ولم تقتصر الإشادة بالخوارزمي وجهوده على إخوته في الدين من العلماء والمؤرخين المسلمين فحسب؛ بل شهد بذلك غيرهم أيضاً، فهذا (جورج سارتن) مؤرخ العلوم الأمريكي البلجيكي الأصل يقول: «إن النصف الأول من القرن التاسع هو عصر الخوارزمي، فهو أعظم علماء الرياضة في ذلك العصر، بل يعد الخوارزمي أحد أعظم علماء الرياضة في كل العصور».

وأخيراً.. بقيت جامعات المسلمين في قرطبة وغرناطة وبغداد والفسطاط وغيرها من حواضر العالم الإسلامي ولعدة قرون، شاهدة على أن هذا الدين دين العلم، وجحد أكثر الغرب بذلك لكنهم استيقنوه في أنفسهم.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

---

٩ الجبر والمقابلة، ١٥-١٦.



المعلم الأول والمربي الأمثل



د. علي الصلّابي

المؤرخ الإسلامي

أشاد القرآن الكريم بالعلم، والَّذين يتعلَّمون، بل كان أول ما نزل من الكتّاب العظيم الحثّ على العلم والتعلم، قال الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

كما رُويت أحاديث عن تقدير الرَّسول ﷺ للعلم والحث عليه، فقال ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة»[١]. وكان النبيّ ﷺ المعلّم الأول، والمربّي الأمثل لأمته، فترك للإنسانية إرثاً علميّاً عظيماً ممزوجاً بنور الوحي والحكمة الذي أوتيه ﷺ.

---

١ رواه أبو داود، ٣٦٤١.

فكانت مسيرة الأمَّة العلميَّة تتطوَّر مع تطور مراحل الدَّعوة، وبناء المجتمع وتأسيس الدولة. ولقد أيقنت الأمَّة: أنَّ العلم من أهم مقوّمات التَّمكين؛ لأنَّه من المستحيل أن يمكّن الله تعالى لأمَّةٍ جاهلةٍ، متخلِّفةٍ عن ركاب العلم. وإنَّ النَّاظر للقرآن الكريم؛ ليتراءى له في وضوحٍ: أنَّه زاخرٌ بالآيات الَّتي ترفع من شأن العلم، وتحثُّ على طلبه وتحصيله، فقد جعل القرآن الكريم العلم مقابلاً للكفر؛ الذي هو الجهل، والضَّلال. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩][٢].

وإنَّ الشَّيء الوحيد؛ الَّذي أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يطلب منه الزِّيادة هو العلمُ. قال تعالى: ﴿وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. كما أنَّ أوَّل خاصيّةٍ ميَّز الله تعالى بها آدم عليه السلام هي العلم. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].



واستمرَّ النَّبيُّ ﷺ في منهجه التَّربويِّ يعلِّم أصحابه، ويذكِّرهم بالله عزَّ وجلَّ ويحثُّهم على مكارم الأخلاق، ويوضِّح لهم دقائق الشَّريعة، وأحكامها، وكان توجيهه ﷺ لأصحابه أحياناً فرديّاً، ومرَّةً جماعيّاً، وترك لنا الحبيب المصطفى ﷺ ثروةً هائلةً في وسائله التَّربويَّة في التَّعليم، وإلقاء الدُّروس، فقد راعى ﷺ الوسائل

٢ التمكين للأمَّة الإسلاميَّة، ص ٦٢.

التَّربويَّة؛ الَّتي تعين على الحفظ، وحسن التلقِّي، وتؤدِّي إلى استقرار الحديث في نفوس وأفئدة الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم؛ فمن هذه الوسائل والمبادئ العظيمة النَّافعة في العهد المكِّيّ، والمدنيّ[٣]:

١. الاعتدال، وعدم الإملال، واختيار الوقت المناسب



كان ﷺ يقتصد في تعليمه؛ في مقدار ما يلقيه، وفي نوعه، وفي زمانه؛ حتَّى لا يملَّ الصَّحابة، وحتَّى ينشطوا لحفظه، ويسهل عليهم عَقْلُه، وفهمه، فعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ ﷺ يَتخوَّلُنا بالموعظة في الأيام؛ كراهيةَ السآمةَ علينا[٤].

٢. ضرب الأمثال

للمثل أثرٌ بالغٌ في إيصال المعنى إلى العقل، والقلب؛ ذلك: أنَّه يقدِّم المعنويَّ في صورةٍ حسِّيةٍ، فيربطه بالواقع، ويقرِّبه إلى الذِّهن؛ فضلاً عن أنَّ للمثل بمختلف صوره بلاغةً تأخذ بمجامع القلوب، وتستهوي العقول، وبخاصَّةٍ عقول البلغاء؛ ولذلك استكثر القرآن من ضرب الأمثال، وذكر حكمة ذلك في آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقرآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] .

٣ مناهج وآداب الصَّحابة في التَّعلُّم والتَّعليم، د. عبد الرحمن البر، ص ٥٩.

٤ البخاري (٦٨).

٠٣ طرح المسائل

إنَّ طرح السُّؤال من الوسائل التربويَّة المهمَّة في ربط التَّواصل القويِّ بين السَّائل والمسؤول، وفتح ذهن المسؤول، وتركيز اهتمامه على الإجابة، وإحداث حالة من النَّشاط الذِّهنيِّ الكامل؛ ولذلك استخدم النَّبيُّ ﷺ السُّؤال في صورٍ متعدِّدةٍ لتعليم الصَّحابة؛ ممَّا كان له كبير الأثر في حسن فهمهم، وتمام حفظهم، فأحياناً يوجِّه النَّبيُّ ﷺ السُّؤال لمجرد الآثارة، والتَّشويق، ولفت الآنتباه، ويكون السُّؤال عندئذٍ بصيغة التَّنبيه (ألا) غالباً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ألا أدلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدَّرجات؟» قالوا: بلى يا رسولَ الله! قال: «إسباغُ الوضوء على المكاره، وكَثْرَةُ الخُطَا إلى المساجد، وانتظارُ الصَّلاة بعد الصَّلاة، فذلكم الرِّباط»[٥].

وأحياناً يسألهم النَّبيُّ ﷺ عمَّا يعلم أنَّهم لا علم لهم به، وأنَّهم سيكلُون علمه إلى الله، ورسوله، وإنَّما يقصد إثارة انتباههم للموضوع، ولفت أنظارهم إليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلسُ فينا من لا درهم له، ولا متاعَ. فقال: «إنَّ المفلس من أمَّتي، من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ، وصيامٍ، وزكاةٍ، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دَمَ هذا، وضرب هذا، فيُعطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يُقضى ما عليه؛ أُخذَ من خطاياهم، فطُرِحَتْ عليه، ثمَّ طُرِحَ في النار»[٦].

وأحياناً يسأل، فيحسن أحد الصَّحابة الإجابة، فيثني عليه، ويمدحه تشجيعاً له، وتحفيزاً لغيره، كما فعل مع أُبَيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المُنْذِرِ! أتدري أيُّ آية من كتاب

---

٥ مسلم (٢٥١)، ومالك في الموطأ (١٦١/١)، والترمذي (٥١)، والنسائي (٨٩/١)، وابن ماجه (٤٢٨).

٦ مسلم (٢٥٨١) والترمذي (٢٤١٨). مناهج وآداب الصَّحابة، ص ٦٧.

الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسولُه أعلم! قال: «يا أبا الْمُنْذر! أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظمُ؟» قال: قلت: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال: فضرب في صدري، وقال: «والله! ليَهْنك العِلْمُ أبا المنذِر!»[٧].



فهذا الاستحسان، والتَّشجيع يبعث المتعلِّم على الشُّعور بالارتياح، والثِّقة بالنَّفس، ويدعوه إلى طلب، وحفظ المزيد من العلم، وتحصيله[٨].

٤. إلقاء المعاني الغريبة المثيرة للاهتمام، والدَّاعية إلى الاستفسار، والسُّؤال

ومن ألطف ذلك وأجمله، ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بالسُّوق، داخلاً من بعض العَالية، والنَّاس كَنَفَتَهُ، فمرَّ بجَدْيٍ أسَكَّ ميتٍ، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثمَّ قال: «أيكم يحبُّ أنَّ هذا له بدرهم؟»، فقالوا: ما نحبُّ أنَّه لنا بشيءٍ، وما نصنع به؟ قال: «أتحبُّون أنَّه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيّاً كان عيباً فيه لأنه أسَكُّ، فكيف وهو ميتٌ؟! فقال: «فو الله! للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم»[٩].

---

٧ مسلم (٨١٠) وأبو داود (١٤٦٠) وأحمد (١٤٢/٥).
٨ مناهج وآداب الصَّحابة، ص ٦٩.
٩ مسلم (٢٩٥٧).

٥. استخدام الوسائل التوضيحيَّة



كان النَّبيُّ ﷺ يستخدم ما يسمَّى اليوم بالوسائل التَّوضيحية؛ لتقرير، وتأكيد المعنى في نفوس وعقول السَّامعين، وشغل كلِّ حواسِّهم بالموضوع، وتركيز انتباههم فيه، ممَّا يساعد على تمام وعيه، وحسن حفظه بكلِّ ملابساته، ومن هذه الوسائل:

أ. التعبير بحركة اليد: كتشبيكه ﷺ بين أصابعه، وهو يبيِّن طبيعة العلاقة بين المؤمن وأخيه، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضه بعضاً». وشبَّك بين أصابعه[١٠].

ب. التعبير بالرَّسم: فكان ﷺ يخطُّ على الأرض خطوطاً توضيحيَّة، تسترعي نظر الصَّحابة، ثمَّ يأخذ في شرح مفردات ذلك التَّخطيط، وبيان المقصود منه، فعن عبدالله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطّاً بيده، ثمَّ قال: «هذا سبيلُ الله مستقيماً»، ثمَّ خطَّ خطوطاً عن يمينه، وعن شماله، ثمَّ قال: «وهذه سُبُلٌ -قال يزيد: متفرِّقةٌ- على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه»، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣][١١].

ج. التَّعبير برفع وإظهار الشَّيء موضع الحديث: كما فعل ﷺ عند الحديث عن حكم لبس الحرير، والذَّهب، فعن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: إنَّ نبيَّ الله ﷺ أخذ حريراً، فجعله في يمينه، وأخذ

---

١٠ البخاري (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥).

١١ أحمد (٤٣٥/١)، والطيالسي (٢٤٤)، والدارمي (٢٠٨)، وابن حبان ٦ و٧.

ذهباً، فجعله في شماله، ثمَّ قال: «إنَّ هذين حرامٌ على ذكور أمَّتي»[١٢]. وزاد في رواية: «حلٌّ لإناثهم»[١٣]، فجمع النَّبيُّ ﷺ بين القول، وبين رفع الذَّهب والحرير وإظهارهما، حتَّى يجمع لهم السَّماع، والمشاهدة، فيكون ذلك أوضحَ، وأعونَ على الحفظ.

د. التَّعليم العمليُّ بفعل الشَّيء أمام النَّاس، كما فعل عندما صَعِدَ ﷺ المنبرَ، فصلَّى بحيث يراه النَّاس أجمعون، فعن سهل بن سعدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: رأيت رسولَ الله ﷺ قام على المنبر، فاستقبل القبلة، وكبَّر، وقام النَّاس خلفه، فقرأ وركع، وركع النَّاس خلفه، ثمَّ رفع رأسه، ثمَّ رجع القَهْقَرى، فسجد على الأرض، ثمَّ عاد إلى المنبر، ثمَّ قرأ، ثمَّ ركع، ثمَّ رفع رأسه، ثمَّ رجع القَهْقَرى، فسجد على الأرض، ثمَّ عاد إلى المنبر، ثمَّ قرأ، ثمَّ ركع، ثمَّ رفع رأسه، ثمَّ رجع القَهْقَرَى، حتَّى سجد بالأرض، فلمَّا فرغ؛ أقبل على الناس، فقال: «أيُّها النَّاسُ! إنَّما صنعت هذا لِتأْتمُّوا بي، ولِتَعلَّموا صلاتي»[١٤].

٦. استعمال العبارات اللَّطيفة، والرَّقيقة

إنَّ استعمال لطيف الخطاب، ورقيق العبارات يؤلِّف القلوب، ويستميلها إلى الحقِّ، ويدفع المستمعين إلى الوعي، والحفظ، فقد كان ﷺ يمهِّد لكلامه وتوجيهه بعبارةٍ لطيفة رقيقةٍ، وبخاصَّةٍ إذا كان بصدد تعليمهم ما قد يُسْتَحيا من ذكره، كما فعل عند تعليمهم آداب الجلوس لقضاء



---

١٢ أبو داود (٤٠٥٧) والنسائي (١٦٠/٨).

١٣ المصدران السابقان.

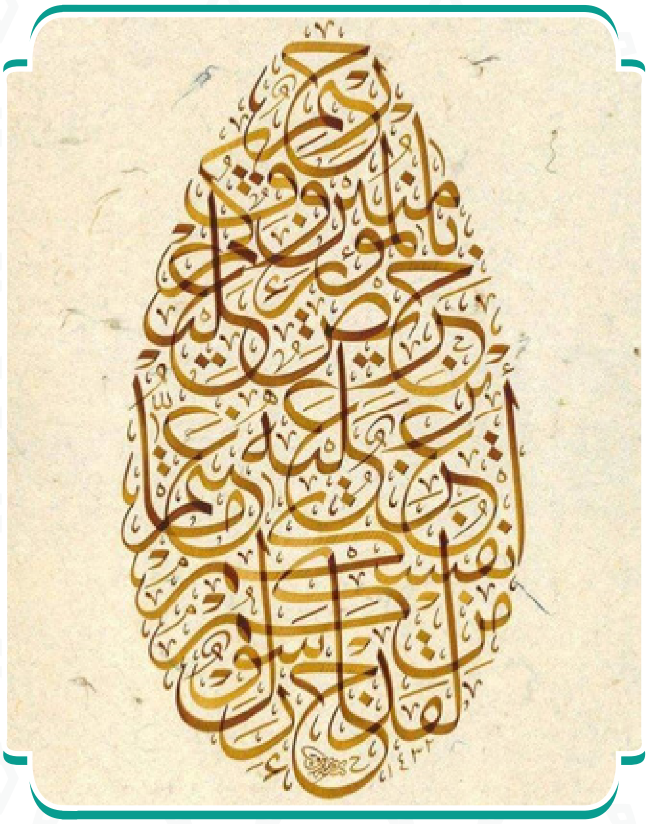
١٤ البخاري (٣٧٧).

الحاجة؛ إذ قدَّم لذلك بأنه مثل الوالد للمؤمنين، يُعلِّمهم؛ شفقةً بهم، فقد قال ﷺ: «إنَّما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعَلِّمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط، فلا يستقبل القبلة، ولا يستدبرها، ولا يَسْتَطِبْ بيمينه»[١٥].

لقد راعى المعلِّم الأوَّل ﷺ جملةً من المبادئ التَّربويَّة الكريمة، كانت غايةً في السُّموِّ الخُلُقيِّ، والكمال العقليِّ، وذلك في تعليقه على ما صدر من بعض الصَّحابة، جعلت التوجيه يستقرُّ في قلوبهم، وبقي ماثلاً أمام بصائرهم؛ لما ارتبط به من معانٍ تربويةٍ كريمةٍ، وهذه بعض المبادئ الرَّفيعة الَّتي استعملها النَّبيُّ ﷺ:

أ. تشجيع المحسن والثناء عليه

ليزداد نشاطاً وإقبالاً على العلم، والعمل؛ مثلما فعل مع أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه حين أثنى على قراءته، وحسن صوته بالقرآن الكريم. فعن أبي موسى رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال له: «لو رَأَيْتَني وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أُوتيتَ مِزْماراً من مَزَامِيرِ آل داود»[١٦].



ب. الإشفاق على المخطئ، وعدم تعنيفه

كان صلوات الله وسلامه عليه يقدِّر ظروف النَّاس، ويراعي أحوالهم، ويعذرهم بجهلهم، ويتلطَّف في تصحيح أخطائهم، ويترفَّق في تعليمهم الصَّواب، ولا شكَّ أنَّ ذلك يملأ قلب المنصوح حبّاً للرِّسالة،

١٥ أبو داود (٨). (مناهج وآداب الصَّحابة في التعلُّم والتَّعليم)، ص ٧٤.

١٦ البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣).

وصاحبها، وحرصاً على حفظ الواقعة، والتَّوجيه، وتبليغهما، كما يجعل قلوب الحاضرين المعجبة بهذا التَّصرُّف، والتَّوجيه الرَّقيق مهيَّأةً لحفظ الواقعة بملابساتها كافَّةً، ومن ذلك ما رواه معاوية بن الحكم السُّلميُّ رضي الله عنه قال: «بَيْنَا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ، إذ عَطَس رجلٌ من القوم، فقلت: يرحمُك الله! فرماني القومُ بأبصارهم، فقلتُ: واثُكْلَ أُمِّيَاهْ! ما شأنُكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلمَّا رأيتهم يُصَمِّتُونَني، لكنِّي سكتُّ، فلما صلَّى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمِّي! ما رأيتُ معلِّماً قبله ولا بعده أحسنَ تعليماً منه، فو الله! ما كَهَرَني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «إن هذه الصَّلاة لا يَصْلُح فيها شيءٌ من كلام النَّاس، إنَّما هو التَّسبيح، والتَّكبير، وقراءة القرآن»[١٧].

فانظر -رحمك الله!- إلى هذا الرِّفق البالغ في التَّعليم! وانظر أثر هذا الرِّفق في نفس معاوية بن الحكم السُّلَمي رضي الله عنه، وتأثُّره بحسن تعليمه ﷺ!



ج. عدم التَّصريح والاكتفاء بالتَّعريض فيما يُذَمُّ

لما في ذلك من مراعاة شعور المخطئ، والتَّأكيد على عموم التَّوجيه، ومن ذلك ما حَدَثَ مع عبدالله بن اللُّتْبيَّة رضي الله عنه حين استعمله النَّبيُّ ﷺ على صدقات بني سُلَيْم، فقبل الهدايا من المتصدِّقين، فعن أبي حُمَيْد السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: استعمل رسولُ الله ﷺ رجلاً على صدقات بني سُلَيْم، يُدعى ابن اللُّتْبِيَّة، فلمَّا جاء حاسبه ﷺ، فقال: هذا مالُكم، وهذا هديةٌ. فقال رسول الله ﷺ: «فَهَلاَّ جلستَ في بيت أبيك

١٧ مسلم (٥٣٧) وأبو داود (٩٣٠ و٩٣١) والنسائي (١٤/٣-١٨) وأحمد (٤٤٧/٥).

وأمِّك حتَّى تأتيك هديَّتك، إن كنت صادقاً؟» ثمَّ خطبنا، فحمد الله، وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أمَّا بعدُ، فإنِّي أستعمل الرَّجل منكم على العمل ممَّا ولاَّني الله، فيأتي، فيقول: هذا مالكم، وهذا هديةٌ أُهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمِّه حتَّى تأتيه هديَّته؟ والله! لا يأخذ أحدٌ منكم شيئاً بغير حقِّه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفنَّ أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رُغَاءٌ، أو بقرةً لها خُوارٌ، أو شاةً تَيْعَرُ» ثُمَّ رفع يديه، حتَّى رُئِيَ بياض إبطيه يقول: «اللَّهمَّ! هل بلَّغتُ؟ بَصُرَ عيني، وسَمِعَ أذني»[١٨].

د. الغضب، والتَّعنيف، متى كان لذلك دواعٍ مهمَّة

وذلك كأن يحدث خطأٌ شرعيٌّ من أشخاصٍ لهم حيثيَّةٌ خاصَّةٌ، أو تجاوَزَ الخطأُ حدود الفَرديَّة، والجزئيَّة، وأخذ يمثِّل بداية فتنةٍ، أو انحرافٍ عن المنهج، على أنَّ هذا الغضب يكون غضباً توجيهيّاً، من غير إسفافٍ، ولا إسرافٍ، بل على قدر الحاجة.

وهكذا استمرَّ البناء التَّربويُّ في المجتمع الجديد من خلال المواقف العمليَّة الواضحة، منسجماً مع غرس فريضة التعلُّم، والتَّعليم بين أفراد المجتمع المسلم، فكانت تلك التَّوجيهات تسهم في إعداد الفرد المسلم، والأمَّة المسلمة، والدَّولة المسلمة الَّتي أسَّسها رسول الله ﷺ، وهذا جزءٌ من كلٍّ، وغَيْضٌ من فَيْضٍ، وتذكيرٌ، وتنبيهٌ لأهميَّة استمرار البناء التَّربويِّ، والعلميِّ في الأمَّة، حتَّى بعد قيام الدَّولة.

---

١٨ البخاري (٦٩٧٩) ومسلم (١٨٣٢/٢٧).



لماذا لم يكن النبي ﷺ قارئًا؟



الشيخ محمد بن محمد الأسطل

باحث في العلوم الشرعية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي ﷺ وصحبه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فإنَّ العلمَ هو صبغة هذه الأمة، وإن معجزتها الكبرى الخالدة تمثَّلت في كتاب يُقرأ هو القرآن، وهذا الكتاب هو الذي حفظ عقيدتها وهُويتها وثقافتها على امتداد تاريخها رغم كل عوامل التذويب والانصهار، فحضارة المسلمين حضارة نَص.

ومفتتح الوحي في هذه الأمة تلك الآيات الخمس التي قررت أصول الفكر الإسلامي في بناء المجتمعات والدول: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ * ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ * ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [سورة الْعَلَق: ١-٥].

فالأمر بالقراءة هو أول فرضٍ فرضه الله عزّ وجلّ على هذه الأمّة، وتكرر الحديث عن العلم وآلائه ست مرات في أول خمس آيات، وربطت الآية الثالثة بين كرم الله تعالى وبين القراءة؛ لنعلم أنّ فضلَ الله يتنزّل على الأمة القارئة الآخذة بأسباب عمران الأرض ولو كانت كافرة أو عاصية.

ثم نزلت سورة القلم؛ إشعارًا بفضل القلم وقدره. فالسورة الأولى إذن مُصَدَّرَةٌ بطلب القراءة عبارةً، والسورة الثانية مُصَدَّرَةٌ بطلب الكتابة إشارةً.

ولما ذكر ربنا سبحانه التفقه في الدين ذكره بألفاظٍ عسكرية فقال جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً، فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]؛ فإنَّ النفيرَ والفرقةَ والإنذارَ والحذرَ من مفردات قاموس المعارك.



وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ المتفقهَ بمنزلة المجاهد في سبيل الله، وأنَّ هذه الأمة يحميها رجلان: فارسٌ بسيفه وعالمٌ بلسانه وقلمه، فإذا كان المجاهد حارس المسلمين بالسيف والسنان.. فإنَّ العالمَ حارسُ الدين بالدليل والبرهان[١].

١ بدائع السلك في طبائع الملك، لابن الأزرق، ص٣٦.

وثمة علاقةٌ بين حمل السلاح على الأمة وبين غشها في علمها وفكرها، وقد جمع النبي ﷺ بينهما فقال: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»[٢].

ومن هنا قال الشيخ العالم المجاهد عبد الله عزام عليه رحمة الله: إنَّ خَيرَ رِجَالِ الأمةِ من يَخُطُّونَ تاريخها بِخَطَّين: خَطٍّ أسود؛ وهو مِدَاد العلَماء، وَخط أَحمر؛ وَهُوَ مِداد الشهداء، ومَا أَجْمَلَ أن يكونَ الدم والمِدَادُ واحدًا، والرِّيشَةُ واحدة؛ لِتكونَ يَدُ العالِمِ التِّي تَبْذِلُ المِدَادَ وتُحَرِّكُ القَلَمَ هي اليدَ نفسها التي تبْذِلُ الدِّمَاءَ وَتُحَرِّكُ الأمَم.



لكن العجيب هو أمرُ النبي ﷺ رأس الإسلام، رسول الله ﷺ إلى العالمين، فإنه لم يكن يقرأ، وحين جاءه جبريل وقال له: «اقرأ» قال: «ما أنا بقارئ»، وتكرر ذلك منه.

فلماذا لم يكن قارئًا؟!

إنك لو كنت تجلس في مجلسٍ وفيهم رجلٌ وجيهٌ هو المُقدَّم فيهم، وفي أثناء المجلس جاءه بعض أبناء عشيرته ليوقع على اتفاق صلحٍ مثلًا ثم إذا به لا يعرف القراءة ولا الكتابة ويسأل عن مكان اسمه من الورقة ليضع بصمته.. لكان هذا محرجًا له، وربما صار على شدة في حضرة الناس والعيون ترمقه وتأخذ عليه في ذلك.

---

٢ سلسلة الثقافة، لمحمد محمد أبو موسى، الحلقة (٣) والسلسلة حوارية وهي منشورةٌ على الإنترنت. وحديث «من غشنا فليس منا» رواه مسلم (٢٩٤).



فكيف بإمام الملة رسول الله ﷺ الذي لم يكن يقرأ ولا يكتب!

فما حكمة ذلك؟

إنَّ الحِكَمَ التي تذكر في هذا الصدد كثيرة، من مثل أنه ليس بحاجةٍ لأن يتتلمذ على أي أستاذٍ ولا أن يقرأ في أي كتاب؛ لأن الله تعالى هو الذي تولى تعليمه وحِفْظَ القرآنِ والعلم في صدره كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٧ - ١٩].

لكن الذي أريد التركيز عليه معنى آخر أهم؛ وهو حراسة النص من المؤثرات البشرية، فلم يكن النبي ﷺ عالمًا ولا متعلمًا، بل لم يكن قارئًا، بمعنى أن ذهنه خالٍ من الانتماء لأي أفكار سابقة، أو من التبعية لأي أمة كان لها منهج وثقافة كفارس والروم.

ثم إن الله تعالى قدَّر أن يموت أبوه حين كان ببطن أمه، وأن تموت أمه بعد أن زار قبر أبيه وله من العمر ست سنين، وأن يموت جده عبدالمطلب وهو ابن ثماني سنين، فلم يتعلم من أب ولا من أم ولا من جد، ولم يكن له شيخ أو أستاذ يأخذ عنه.

والبيئة التي ينتمي إليها بيئة أمية، بل يسمى أهلها بالأميين، والأمية فيهم غالبة لا سائدة؛ ففكرة القراءة والكتابة كانت حاضرة ولكن عند الخاصة وأصحاب المواهب، ولما نزل الوحي كان في قريش سبعة عشر رجلًا كلهم يكتب منهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان.

ثم إن النبي ﷺ فوق ذلك لم يسافر إلى بلاد الثقافات كفارس والروم، بل كان سفره للتجارة دون أن يكون له تأثر ثقافي بأي أمة. ورغم أنه في بيئة الشعر والشعراء إلا أنه لم يكن يقول الشعر، فلم يكن خياله يرتب أفكارًا ومعاني على النحو الذي عليه الناس. كل هذا كان حمايةً للنص من أي مؤثر بشري، ومن ثم لا يُخشى من دخول الريبة على الناس، وإلا فلو كان مطلعًا على الكتب القديمة وتاريخ الأمم وحضارات الدول وكان يقرأ ويكتب ويتكلم بالشعر ثم جاءت بَعثته على ذلك.. لكان متهمًا بأن مادة الإسلام إنما هي من نتاج أفكاره وعزلته في غار حراء مثلًا.

وحين عرض القرآن مقاصد بَعثته عرض صورتين مختلفتين متقابلتين فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فهو قد جاء بعلمٍ يُزكّي به ويعلم في أمة ضالة، لتكون العلاقة بين الإسلام والجاهلية هي العلاقة بين النور والظلام والظل والحرور والخير والشر والهداية والغواية والملائكة والشياطين. وقد حرص كفار قريش أن يجعلوا أفكار التوحيد أفكارًا بشريةً ينسبونه إليها كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].



فالنبي ﷺ هو الميزان الذي سيبقى في الناس إلى أبد الدهر، فلا بد أن يكون نقيًّا صافيًا سالمًا من الأهواء محفوظًا من التحريف والتأثير والغبش. إنه

كان أميًّا وبقي بعد رسالته أميًّا حتى لا تُنسب الشريعة لأي ثقافة كانت، شرقية كانت أو غربية، شماليةً كانت أو جنوبية. إن وظيفة النبي ﷺ أن يبلغ، فهو رسول تأتيه رسالة واضحة، فينقلها كما هي دون أن يتدخل فيها، وما يتكلم به فهو بأمر الله وتسديده كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٣ - ٥]. فليس الأمر عائدًا لأفكاره وخواطره.

وتظهر فائدة ذلك في أمورٍ، منها:



أولًا: أنَّ أحكام الشريعة تصبح منزهةً عن النقاش والأخذ والرد، انطلاقًا من أنها وجهات نظر تحتمل الصواب والخطأ، كلا؛ بل هي من عند الله خالصة نقية.

ثانيًا: حسم الباب في وجه الفتن الفكرية؛ فإن إحدى أخطر المعارك التي ستمر بالأمة هي فتنة إعادة قراءة النص القرآني والنبوي في ظل مقررات الثقافات السائدة، فتُحقَن نصوص الوحي بها ويُلصَق بالإسلام ما ليس منه. وهذه فتنة في التأويل، وفي مسند الإمام أحمد أن النبي ﷺ يقول: «إن منكم من يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيله»[٣]. ومن هذه الفتنة خرج لنا ما يعرف بالرأسمالية الإسلامية والاشتراكية الإسلامية والليبرالية الإسلامية واليسار الإسلامي وما إلى ذلك.

---

٣ مسند أحمد، رقم الحديث: (١١٢٨٩). تعليق شعيب الأرنؤوط : صحيح وهذا إسناد حسن رجاله ثقات.

ثالثًا: الرجل العربي حين كان ذهنه خاليًا من أي ثقافةٍ سابقة كان أَحَدَّ ذهنًا وأصفى قولًا ومنطقًا، فلم يختلط ما لديه بثقافات المتحضرين، وأراد الله للعرب أن يكونوا محضن الرسالة لينتشروا بها في الناس، مع هذه العقول الصافية التي لم تتشوش بشيء. وأشار الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله إلى ذلك فقال: «وإنما أوثرت بعثته صلوات الله عليه في الأميين؛ لأنهم أحدُّ الناس أذهانًا، وأقواهم جنانًا، وأصفاهم فطرة، وأفصحهم بيانًا، لم تفسد فطرتهم بغواشي المتحضرين، ولا بأفانين تلاعب أولئك المتمدنين، ولذا انقلبوا إلى الناس بعد الإسلام بعلم عظيم، وحكمة باهرة، وسياسة عادلة، قادوا بها معظم الأمم، ودوخوا بها أعظم الممالك»[٤].

وتبرز هنا مسألة في ضوء ما تقرر وتسطر:

هل يعني ما تسطَّر أنَّ النبي ﷺ لم يكن مجتهدًا، وأنه ليس سوى آلة تنطق ما وصله؟

الجواب: كلا، بل هو إمام مجتهد عبقري عظيم، ولكن جميع ما ينطق به إنما هو مما فهمه من القرآن، وما كان اجتهادًا منه كان القرآن ينزل بإثباته أو بتصويبه، وهذا الذي يُصوَّب -كما في الموقف من أسرى بدر- يكون رأيه من أعظم الآراء، لكن نظر القرآن أعظم، وهذه المسألة دقيقة إلا أن المقام ليس لها. ومن هنا تعظم العناية بدرس السيرة النبوية؛ لأنها تجربة نالت تزكيتها من الله تعالى، فخير الهدي هديُ محمد.

ومن الأمور التي ينبه عليها: أنَّ النبي ﷺ كان يعرض العلم النافع في ألفاظ سهلة، أو في أفعالٍ عظيمةٍ حكيمة دون أن يقوم ببيان سياسته فيها. وهذا الذي أقول حين يُعرض في هذا الزمان الذي نعيش فيه؛ حيث الجامعات والكليات والكتب الأكاديمية والمصطلحات والتقسيمات.. فقد يتوهم متوهم معه أن

---

٤ محاسن التأويل، أوائل تفسير سورة الجمعة.

العلم الذي بين أيدينا متقدمٌ عما كان متوفرًا يومئذٍ بين يديه من شتى العلوم الإنسانية. والحق أنه بلغ الغاية في العلم بما يحتاج البشر معه أن يقضوا بياض نهارهم وسواد ليلهم في التتلمذ على كلامه إذا أرادوا نهضة الدنيا وفلاح الآخرة.

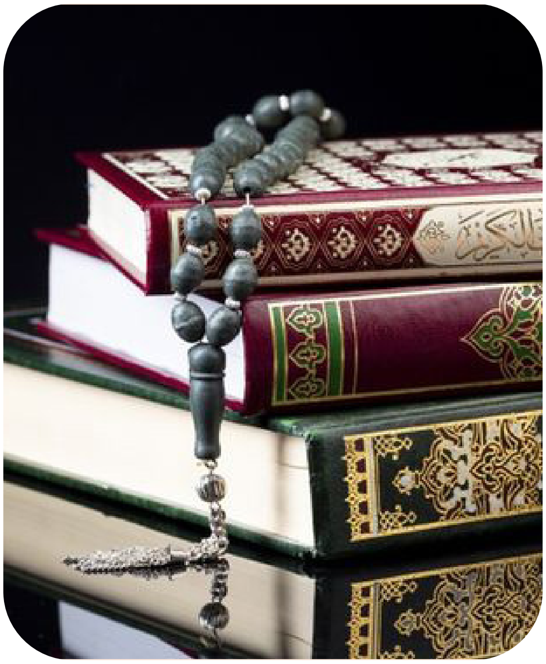


وأي صاحب تخصص لو هضم المسائل جيدًا ثم أخذ يقرأ في كتب السُّنة والسيرة سيُدهش غاية الدهشة من عظمة المفاهيم العلمية النبوية، إلا أنها بحاجةٍ لبارع يحولها لألفاظٍ من معتاد أهل الزمان.

خذ مثلًا جائحة كورونا حين حصلت، فبعد أن صارت نصائح الأطباء تنهمر في ظل سطوة الجائحة اكتشف الناس أن هناك رزمةً كبيرةً من الأحاديث النبوية تنظم حالة التعامل مع الوباء، وأحكام دخول البلاد والخروج منها، وأحكام الخلطة بين الناس، ومسألة الطهارة وما جاء فيها من أحاديث كثيرة وغير ذلك، وسجل كثيرٌ من الناس لا سيما في الغرب عجبهم من رجلٍ كان يعيش في جوف الصحراء كيف يهتدي لمثل هذه التفاصيل الدقيقة؟

وفي الباب الإداري مثلًا لو أخذنا نظرية: «القيادة التحويلية»، وهي قيادة الأتباع بالإقناع.. فإننا نجد السيرة النبوية زاهرةً زاخرةً بالمواقف التي تندرج تحتها، من مثل إقناع من آمن بدعوته وبالهدف الذي جاء به، وعرض الدولة على أهل يثرب، ومن مثل استشارته لأصحابه يوم بدر ويوم أُحد وغير ذلك، وإقناعه للأنصار يوم حُنين في مسألة الغنائم، وغير ذلك كثير.

ونتيجة ذلك: أنه أسس دولة عظيمة في سنواتٍ قليلة، وحمل أتباعه الرسالة وما زالوا ينتشرون بها في الآفاق جيلًا بعد جيلٍ حتى وصلتنا الدعوة بعد هذه القرون المتطاولة فكنا بفضل الله من المسلمين الموحدين.



بل أتقدم درجةً في الخطاب فأقول: إن كل متخصص في أي علم من العلوم الإنسانية ينبغي أن يقرأ سنته وسيرته ليستخرج منها النظريات والقواعد، لا سيما أن العلوم الإنسانية هي علوم أكثر ما تشتغل به أن تقرأ المشهد وتفسره وتصفه وتحوله لقواعد ونظريات واضحة يمكن أن يستفاد منها.

ومن أمثلة ذلك: أن النبي ﷺ يوم بيعة العقبة الثانية -وهي بيعةٌ سياسيةٌ- قال للأنصار: «أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا يكونون على قومهم». ومن العجب أن البراء بن معرور كان ممن وقع عليه الاختيار وما مضى على إسلامه إلا أيام! فنلحظ هنا أن النبي ﷺ لم يتولَّ إخراجهم بنفسه، ولم يجعل معيار ذلك بحسب الأقدمية في الإسلام، وإنما جعل الولاية بحسب الذي من قامت زعامته في نفوسهم. وهذا مبدأ يستفاد من سلوكه في هذا الموقف وغيره.

وعلى ذلك أقول: إن من أعظم أسباب انتظام المجتمعات والدول على نظامٍ وسياسةٍ أن يكون اختيار الولاة موكولًا للناس بحسب من تقدم زعامته في نفوسهم. وتقريب ذلك: لو دَخَلْتَ نادِيَ قومٍ وهو ما يُعرف في لسان الناس بالديوان.. فإنك تجد الذي يجلس في الوسط كبيرُهم، وبجانبه من يليه في

الفضل، فإذا كان الأول بمنزلة الأمير فإن من بجواره بمنزلة الوزير، ويتسلسلون في المجلس بحسب رتبتهم في النفوس. ويظهر هذا حين يدخل داخلٌ؛ فلو كان هو الكبير فإن مكانه في الوسط يكون محفوظًا، فإذا كان الوزير فسحوا له في الموضع الذي يوافق منزلته في نفوسهم، فإذا كان من غمر الناس جلس حيث انتهى به المجلس. هذه الهرمية تشبه قوة الضوء حين يبدأ قويًّا ثم يتسلسل في الضعف حتى نصير إلى الظلام، ولا يمكن لهذا الأمر أن يُضبط بسهولة.

وزيادةً في التأكيد على هذا المبدأ وباعتماد نفس المثال: فإنك ترى من يريد السفر أو الزواج أو البتَّ في قرارٍ مهم.. فإنَّه يقصد كبير القوم ولو لم تكن له رتبةٌ معلومة، ولو لم يكن ذا علمٍ، بل لو فعل أحد الأفراد شيئًا من مهمات الأمور دون استشارته.. فلربما اعتذر إليه بأنْ أمضى قراره على عجل لباعثٍ على ذلك!

وعلى هذا، فإنَّ أي منظومة تريد جمع الأتباع على قائدٍ ويمتثلون لكل ما يُطلب منهم.. فبوابة ذلك أن يختاروا أميرهم بحسب الذي في نفوسهم، من غير مؤثراتٍ تحجبهم عن تحقيق مرادهم. ولو كان الذي اختاروه ضعيفًا شيئًا ما.. فإنه يقوى باجتماعهم معه، ومساندتهم له، ولو كان الذي فرض عليهم قويًّا.. لانفضوا عنه، ولما اتبعوه إلا في القدر الواجب عليهم وجوبًا لا سبيل للانفلات منه، وحينئذٍ فإن الأمير يَتعب ويُتعب، ويَتعب الأتباع ويُتعبون.

هذا والله أعلم وصل الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.



أُمي علّم المتعلمين



الشيخ حسين عبد العال

عضو الأمانة العامة للهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

إنما العلم بالتعلم، فإن وجد من الخلق متعلم فلابد له من مُعَلِّمٍ، ومعلم الخلق كلهم هو الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وهكذا جاء قول الملائكة لربهم: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

فبدء العلم كله من الله تعالى، فلا عجب أنَّ من علم الملائكة وعلم آدم -عليه السلام- أن يخص أحدًا من خلقه بتعليمه ما لم يعلمه أحد غيره في زمانه وإن رآه الناس أميًا، فهذا هو رسولنا محمد ﷺ، علمه ربه سبحانه وتعالى فقال له: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وذلك بواسطة جبريل عليه السلام ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

فرسول الله ﷺ أمي لم يقرأ كتابًا، ولا خط بقلم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].



والعجيب أن من يعجبون من هذا، أو من ينكرون هذا، أو يستبعدون هذا، لا يلتفتون إلى جهلهم وحماقتهم، وإلا فما قولهم في هدهد؟ سار واكتشف ودعا إلى الله، وحمل رسالة الملك، ورد على الملك ردًا بليغًا، واستنكر عبادة القوم لغير الله، وسعى بالوساطة حتى أسلموا مع سليمان -عليه السلام- فهل خط الهدهد بقلمه خطًا؟ وهل جلس لمعلم يتعلم منه ذلك؟ إذن فمن علمه كل هذا؟!

علمه الذي أتقن كل شيء، وأحكم كل شيء، وعلم كل شيء.

وذلك ليس بأكثر عجبًا من النملة التي عَلِمَتْ أن جيش سليمان سيحطم قومها، فقامت منذرةً لهم، آمرةً لهم بالابتعاد عن جيش سليمان، بل ووصل علمها أن سليمان عليه السلام وجنوده سيحطمونها وقومها



دون أن يشعروا بذلك، فسمعها سليمان عليه السلام وتبسم ضاحكًا من قولها، فيا ترى من علمها ذلك العلم وفهمها ذلك الفهم؟ إنه الله العليم القدير.

والأعجب من هذا، من علَّم سليمان لغة الطير ولغة النمل؟! هل جلس سليمان إلى هدهد يتعلم منه؟ أم جلس إلى نملة في جحرها يتعلم لغتها؟! لا بل علمه الله تعالى، ولذا قال عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، وكذلك النحل وكذلك الغراب.. وقِسْ على ذلك، فمن علم هذا الكون كله؟ أليس هو الله العليم الحكيم؟!!

وما جاء به النبي ﷺ هو علم عظيم بلا شك، لكن هذا العلم لم يكن يعلمه على وجه الأرض أحد من العلماء ولا من الحكماء، ولا من الأدباء ولا الشعراء، ولكنه علم يصدر من رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب، وما جرؤ أحد أن يأتي بمثله، مع قمة فصاحتهم وبلاغتهم، بل والأكثر من ذلك أنه يتحداهم وهم الفصحاء، تحداهم أن يجتمعوا جميعًا وأن يأتوا بمثله.

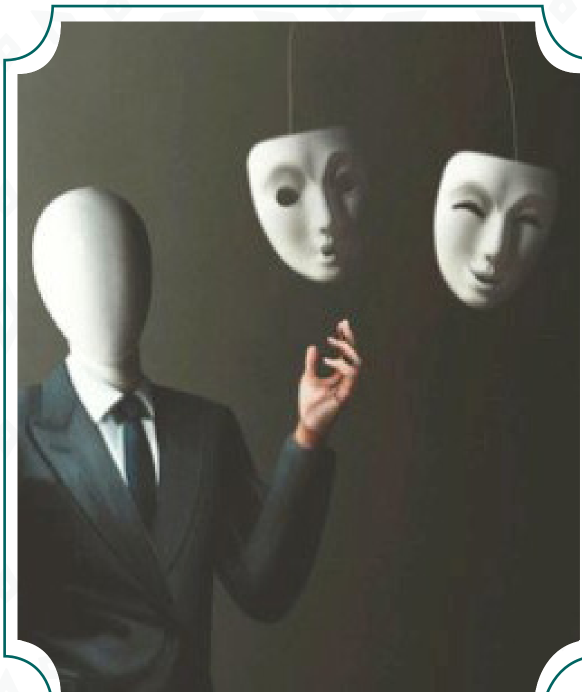
قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤] فعجزوا، فسهل عليهم وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فقط، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣] فعجزوا، فقال لهم فلتأتوا بسورة واحدة، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨] فعجزوا، وهم العلماء والحكماء والشعراء، وهم يرون علمًا لا قِبل لهم بمجابهته ولا معارضته، وكانوا يتعلمون منه وهم العلماء وهو الأمي ﷺ.

النبي الأمي يأتي بعلم ما مضى

ومع أميته ﷺ، فقد جاءهم بعلم الغيب فيما مضى من الزمان، ومع قمة علمهم لم يكونوا يعرفون عنه شيئًا، فحدثهم عن بدء الخلق وعن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والرسل، عليهم السلام جميعًا، وعن الأمم التي كذبت وكيف كان مصيرها، وعن العوالم الأخرى، ولم يستطيعوا إنكار ذلك ولا معارضته، قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

وفي قصة مريم عليها السلام مثلًا يخبر ربنا عن أمر كان غيبيًا، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [مريم: ٤٤]، ولم يستطع أهل الكتاب بكل علمائهم وأحبارهم ورهبانهم أن يُكَذِّبُوا ذلك، وفي غيرها من الآيات، فدل على أن ما أخبر به النبي الأمي ﷺ هو الحق الذي ما استطاعوا معارضته، بل وتعلموا منه ما لم يكونوا يعلمونه.

النبي الأمي يخبرهم بما في نفوسهم في حاضرهم



ثم يخبرهم بالغيب الحاضر في حياتهم، وما استطاعوا أيضًا معارضته، فعندما يخبرهم عن حال المنافقين، رغم أنهم ما صرحوا بذلك، قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤]، فما استطاعوا أن يقولوا إن هذا لم يحدث مثلًا، ثم لَمَّا حلفوا كذبًا وزورًا بأنهم ما قالوا، رد عليهم بكل حزم ينقض قولهم، قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ

بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤]، فلم يجرؤ أحد منهم أن يقول شيئًا بل سلموا له ﷺ.

ثم لما يتوعدهم في شيء بين أيديهم وهم يستطيعون نقضه ولم يفعلوا فعلام يدل ذلك؟ قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ [المسد: ١- ٥]، فما استطاع أبو لهب أن يكذب النبي ﷺ ولو ظاهريًا، فيقول مثلًا ها أنا أسلمت فكيف أدخل النار؟ ولكنه سمعها وسكت دليلًا على تصديقه بها، وعدم استطاعته معارضتها، حتى مات على الكفر لتظهر نبوءته ﷺ.



النبي الأمي يخبر بأمور مستقبلية وقعت كما أخبر

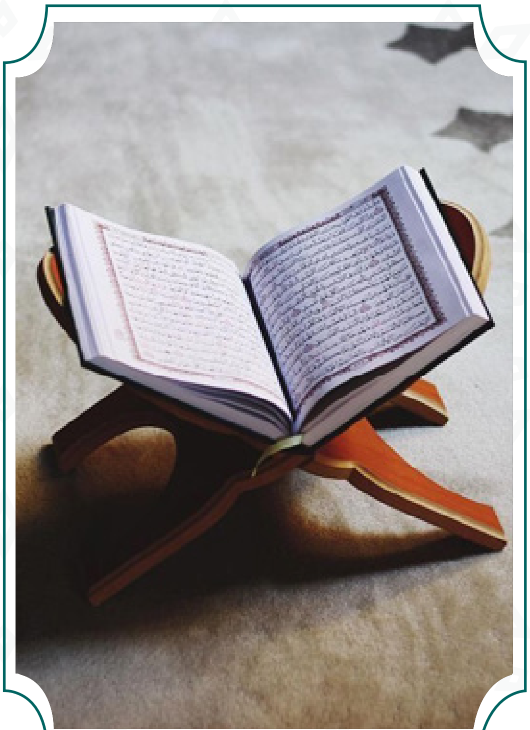
ثم تحداهم في أمور الغيب المستقبلية، وما أكثرها وقد وقعت كلها تباعًا تصديقًا لما جاء به النبي الأمي محمد ﷺ، منها مثلًا قوله تعالى: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ١- ٦].

وقد تحقق ذلك في زمانهم كما أخبر النبي الأمي ﷺ بالتمام والكمال.

وكذلك إخباره بدخول المسجد الحرام، والطواف فيه والتحليق والتقصير، وكان من الممكن أن يعارضوه ليكذبوه فما استطاعوا ذلك البتة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧]، ونزلت قبل دخوله مكة معتمراً بعام كامل فما استطاعوا منعه؟! بل وإلى يومنا هذا يتحقق ما أخبر به النبي الأمي محمد ﷺ.

النبي الأمي يأتي بعلوم من الغيب هي دلائل نبوته

كل هذا يبين أن هذا النبي الأمي، قد جاءهم بعلوم غيب حدثت في الماضي الذي ما كانوا يعرفونه، فكيف عرفه هو؟ ثم تحداهم بعلمه للغيب في حاضرهم فما استطاعوا معارضته، ثم تحداهم بعلوم الغيب المستقبلية، فحدثت كلها كما أخبر ﷺ، ليظهر للقاصي والداني أن العلم الذي جاء به النبي الأمي، تعلم منه كل العلماء، والأكثر من هذا أن علمه يشهد بصدقه ﷺ في كل ما أخبر به.



وهو قد أخبرنا أن هذا العلم ليس من عنده، بل هو من عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، وما نسب العلم لنفسه، بل أخبر أنه مجرد رسول يخبر عن رب العزة سبحانه وتعالى، وهذا هو الحق والصدق، فكان علمه مخبراً بصدقه ﷺ.



﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾



د. حسن سلمان

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

الحمد لله العليم الخبير، الذي لا يعزُب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، والصلاة والسلام على النبي الأمي، الذي بعثه الله تعالى معلماً تالياً للآيات ومزكياً للعباد ومُعلماً للكتاب والحكمة وفصل الخطاب.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢].

أولاً: نعمة العلم

الوجود الإنساني كله نعمة من نعم الله تعالى إيجاداً وإعداداً وإمداداً، ومن أعظم النعم والأفضال الربانية على الناس كافة وعلى رسل الله تعالى خاصة: نعمة العلم، والتعليم المنافي للجهل والتضليل، والهادي إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ولما يحتله العلم من مكانة ومنزلة سامية في الإسلام، فقد تكاثرت مفردة العلم في كتاب الله تعالى بصيغ مختلفة، بلغت في مجملها (٧٧٨) مرة، صفةً لله تعالى واسماً له (العليم) وأن الله تعالى مصدر كل علم على الحقيقة؛ فمنذ اللحظة الأولى لخلق آدم كان التلقي العلمي عن الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وكان العلم نقطة تفوق لآدم على الملائكة بما علّمه الله تعالى، واعتراف منهم بأنهم فقراء لعلم الله تعالى الذي وسع كل شيء، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وبالعلم كانت بداية الكون كله عندما قال الله جل جلاله للقلم: «اكتب»؛ فكتب كل شيء حتى قيام الساعة كما جاء في الحديث الصحيح. فكان الوجود كله مظهراً من مظاهر علمه وإرادته المكتوبة في اللوح المحفوظ، تنتهي بالتخلق باعتباره آخر مراتب القدر، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]؛ فالعلم نعمة الله تعالى المستوجبة لشكره والثناء عليه واستشعار آلائه في كل شيء، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤].

ثانياً: فضل العلم



العلم هو مدخل تقدم الشعوب والأمم ونهضتها، والجهل سبب تخلفها وقعودها، فبالعلم كانت الصناعات الكبرى والتقنية الحديثة، وبالعلم كانت محاربة الأمراض الفتاكة والقاتلة، وبالعلم كانت حركة النقل الجوي والبحري والبري، وبالعلم كان التفوق في كافة المجالات الدنيوية، وبه يكون العمران والنهضة الحضارية والعيش الكريم والحياة الطيبة.

كما أن العلم هو الأصل في سعادة الإنسان الأخروية، وخاصة العلم بالله تعالى لأنه أعظم مطلوب في الوجود، وهو أول واجب على المكلف، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ٤٧]، ولذا ترجم الإمام البخاري في صحيحه باب «العلم قبل القول والعمل».

ولهذا فالإسلام يحض على العلم ويوجبه كما في الحديث: «العلم فريضة على كل مسلم، وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر»[١]. وهو البداية مع خلق آدم عليه السلام، وكانت بداية الرسالة المحمدية مدخلها العلم والقراءة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

اقرأ /علَّم /القلم: كلها كلمات ذات علاقة بالعلم وأدواته.

١ أخرجه ابن ماجه وصححه الألباني.

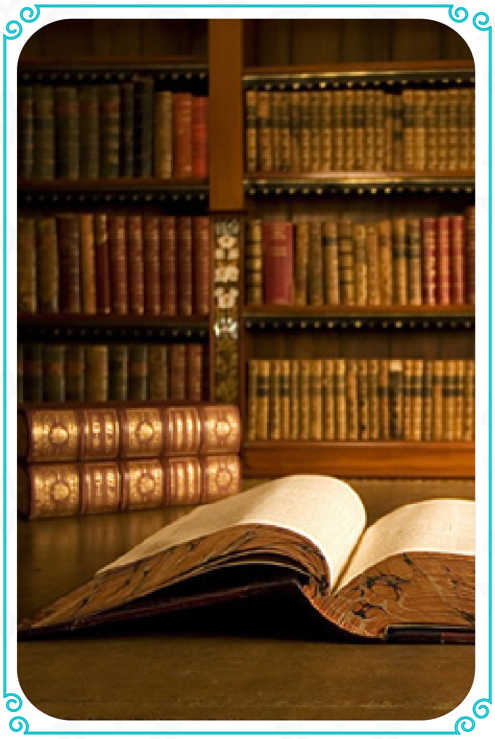
والعلم سبب للرفعة في الدنيا والفلاح في الآخرة، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].



والعلم هو الشيء الوحيد الذي أمرنا الله تعالى بأن نطلب المزيد منه في قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤] وزيادة العلم في بعض الأمور جعلت كليم الله موسى يطلب العلم ممن هو دونه في النبوة والمقام، وهو الخضر عليهما السلام: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف: ٦٦].

وفي مقام وساحات الجهاد والقتال كانت المطالبة بالنفرة للعلم والفقه؛ ليكون الإنذار على أتم وجه والقتال على أوضح بصيرة وهدى، قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ولأهمية العلم وعلو مقامه ومنزلته فإن علماء الإسلام تناولوا العلم وفضله في كتبهم، سواء أفردوا له كتاباً أو تناولوه ضمن مؤلفاتهم الجامعة، ولمزيد من التفصيل والبيان يمكن مراجعة كتاب (إحياء علوم الدين للإمام الغزالي رحمه الله تعالى؛ فقد تحدث عن العلم في (رُبع العبادات) من كتابه، مبيناً فضيلة العلم والتعليم



والتعلم، وأنواع العلوم المحمود منها والمذموم، وأحكام كل نوع منها، كما تناول آداب المتعلم والمعلم، وآفات العلم، وغير ذلك بما لا مزيد عليه.

ثالثاً: مفهوم العلم

ومع الاتفاق على أهمية العلم وفضله بين العامة والخاصة، إلا أنه بذات القدر قد اختلف الناس حول مفهومه قديماً وحديثاً بحسب المرجعيات والمنطلقات، والعجز عن الوصول لتعريف جامع مانع قد يكون لشدة الوضوح أو شدة الخفاء، كما عبر عن ذلك العلامة الرازي في تفسيره بعد ذكره لعدد من التعريفات: «فاعلم أنّ العجز عن التعريف قد يكون لخفاء المطلوب جداً، وقد يكون لبلوغه في الجلاء حيث لا يوجد شيء أعرف منه ليُجعل مُعرِّفاً له»».

ويبدو أن ماهية العلم ينطبق عليه هذا الكلام، ومع ذلك فإن العلم في المعاجم العربية هو ضد الجهل، وهو: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً. وعرّفه الجرجاني بقوله: «الاعتقاد الجازم المطابق للواقع»[٢].

وأما التعريف الوضعي المشهور للعلم هو: صفة تقال على كل خبر أو تقرير أو مقولة أو وصف ينطبق على واقع الأحداث والأشياء والاكتشافات، وتصويرها حقاً قاطعاً ويقيناً لا شك فيه ولا ريب ولا ظن[٣].

---

٢ التعريفات، ص١٥٥.

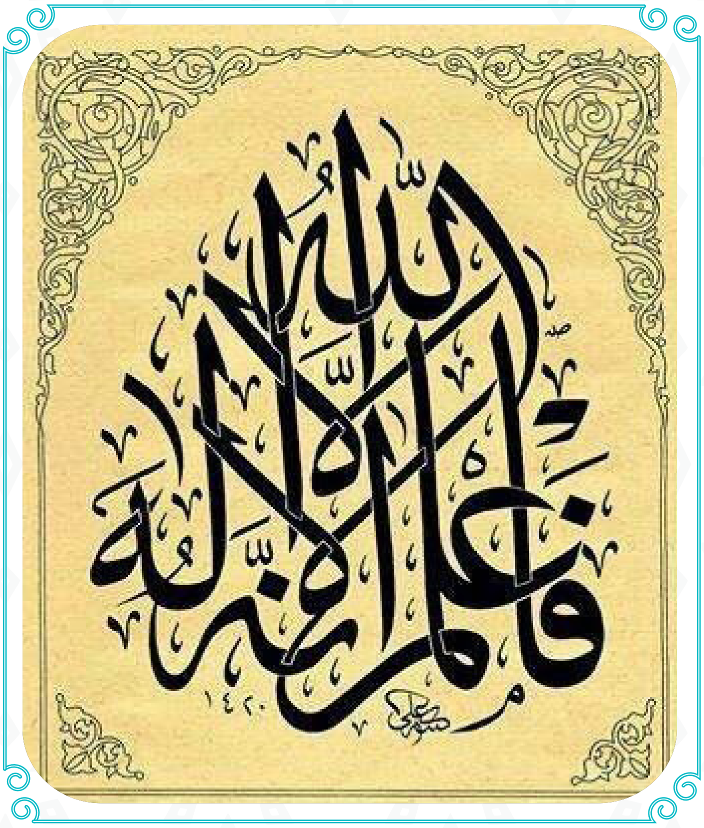
٣ راجع مفهوم العلم في القرآن الكريم، زكريا بشير إمام.

إلا أن هذا التعريف ينصرف لعالم المحسوسات والمشاهدات والملاحظات، أي كل ما له علاقة بالحس والتجربة، ولا يدخل في ذلك عوالم الغيب الفسيح، وبالتالي فهو تعريف مادي بحت لا يعطي الأبعاد الحقيقية لمعنى ومفهوم العلم، ولهذا فإن العلم في الإسلام أوسع نطاقاً لأنه يتناول عالم الغيب والشهادة، ولذا فالعلم هو: كل ما ثبت بالوحي والحس والتجربة والعقل.

فهو بحث في حقائق الوجود الغيبي والمادي، بالأدلة النقلية والعقلية والحسية، ثم بعد إدراك الحقيقة على ما هي عليه قد يكون العلم نافعاً فيكون ممدوحاً، وقد يكون ضاراً فيكون مذموماً، والعلم النافع الذي دلّت النصوص على تحصيله هو ما يُبنى عليه عملٌ صالح في الدين أو الدنيا، ومن العلم النافع المطلوب تحصيله ما يلي:

١. العلم بالله

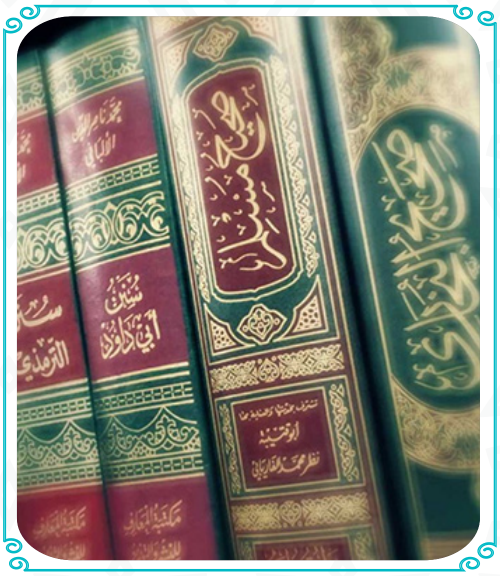
وهو رأس العلوم كلها لأنه مدار السعادة الأبدية، التي ما أُنزلت الكتب وأرسلت الرسل وقام ميزان القسط إلا لأجله، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ٤٧]. والعلم بالله يورث الخشية والتوكل واليقين، ويؤدي للكمالات في مدارج السائرين ومقامات العارفين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].



٢. العلم بالرسالة

وهو خطاب الله المنزل على عباده، والمتضمن الحق والنور والهدى والقيم والتشريعات المطلوبة من المكلف، وهي الفرقان والصراط المستقيم الذي مَن آمن به هُدي ونجا وعاش حياة طيبة في الدنيا وسعادة أبدية في الآخرة، ومن كذّب وعاند وأبَى فهو شقي ومحروم في الدنيا والآخرة.

٣. العلم بالرسول

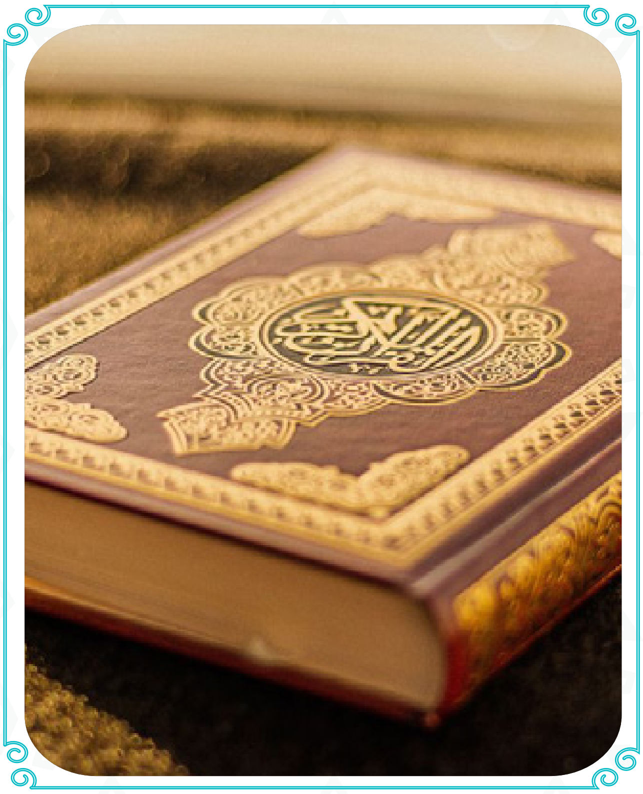


وهو المبلّغ عن الله تعالى رسالته، والمبيّن لمراد الله فيها، والمعصوم في تبليغها، والمستعصم في العمل بها، وهو بذلك واجب اتباعه والسير على هداه، وأنه الأسوة الحسنة؛ قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

٤. العلم النافع في دنيا الناس وما تقوم به حياتهم الدنيوية

وهو يختلف باختلاف الحاجة إليه؛ فهناك ما هو عيني لكل مختص بعمل معين، وهناك ما يحتاجه المجتمع بعمومه وهو يدخل في فروض الكفايات، ويسقط التكليف عن البعض بالبعض بحيث إذا قام به البعض سقط الواجب عن الآخرين، وهذا يستوعب كافة العلوم الدنيوية النافعة التي يكون بها الاستخلاف في الأرض والعمران فيها، وعلى المسلمين ألا يكونوا عالة على غيرهم بل عليهم تحصيل العلوم النافعة كلها بما يصلح دينهم ودنياهم.

وبذلك يكون المكلَّف قد وقف إجمالاً على ما يجب عليه وجوباً عَينياً في العلم بالمرسِل (الله جلّ في عُلاه) والرسالة والرسول وعلوم الحياة الدنيوية. وكلما توسّع المكلف في العلم بذلك تفصيلاً كان إلى الله أقرب وفي المقامات أرفع وللخلق أنفع.



رابعاً: المنهج العلمي في القرآن الكريم

الإسلام يؤسس للمنهج العلمي القائم على الخبر والمختبر والمعقول، وفقاً لتصوره لماهية العلم.

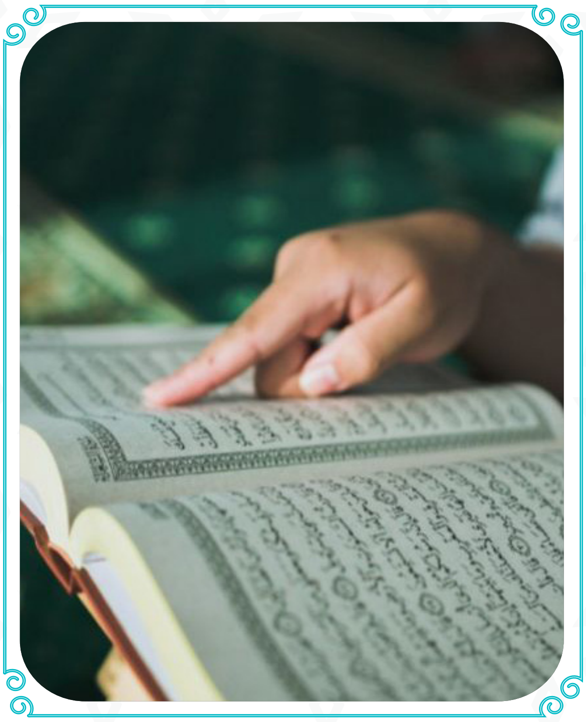
ونقصد **بالخبر:** ما جاء بالدليل القاطع عن الله تعالى في كتابه أو سُنة نبيه ﷺ، أي الوحي المنزل، وهو يتناول الجوانب الاعتقادية الإيمانية أو العلمية و المعرفية أو السلوكية والقيمية.

وأما المختبر: فهو يتعلق بالقضايا التي يمكن الوصول إليها بالتجربة والبحث العلمي الذي يتم فيه اكتشافات علمية هائلة كل يوم، أو ما عُلم من خلال الحواس الخمس.

وأما المعقول: فهو ما عُلم بالعقل الصريح (النقل والملاحظ والمشاهد والمحسوس والمعقول).

ولذا فإن تعريف العلم في الإسلام كما تقدم هو: ما ثبت بالوحي والحس والتجربة والعقل.

وأما الغرب فيُخرِج الوحي عن مسمى العلم؛ فهم أهل مختبر وتجارب وليسوا أهل خبر (وحي)، وبذا يفوت عليهم من العلم بحسب ما تركوا من الوحي، وهذا انكفاء في ظواهر العلم دون الغوص في أعماقه،



قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] وحتى علمهم بالدنيا منقوص من حيث طلب هدايات التنزيل الحكيم.

وقد تواترت النصوص القرآنية والنبوية حول ثلاثية النقل والعقل والحس، وأنها طرائق الحصول على العلم، نورد منها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]؛ فالإنسان يولَد جاهلاً لا يعلم شيئاً، ولكن الله عزّ وجلّ سخّر له أدوات المعرفة الثلاث: السمع والبصر والفؤاد. وقد حثت الشريعة على السير في الأرض وتفعيل هذه الأدوات قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، كما بينت الشريعة خطورة تعطيل هذه الأدوات العلميّة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وأن الله كرّم الكائن الإنساني وجعله مكلفاً بقدرته على توظيف أدوات العلم والمعرفة لديه، وفي حالة تعطيلها فهو يهبط من التكريم الإنساني إلى الحيوانية البهيمية بل أضل منها، وتكون عاقبته الأخرويّة الندامة الأبدية والخسران المبين، قال تعالى حكايةً عمن عطّل سمعه وعقله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

وبهذا فالعقل المسلم يقوم على الدليل والبرهان والحجة والبيّنة، ولا يقبل شيئاً إلا بخبر صحيح أو عقل صريح

أو مختبر دقيق؛ بل يتشكك شكاً منهجياً حتى تستبين الحجة ويقوم الدليل، وهذا المنهج يساعد على البحث والتحري وتشجيع الباحثين واحترام آرائهم والنظر في أدلتهم ومدى قوتها وضعفها وقبول النقد، ما دام المطلوب هو البحث عن الحقيقة المجردة من كل هوى.

وهكذا يجمع العقل المسلم في منهجية القراءة الربانية بين القراءتين، قراءة الوجود الكوني الطبيعي، وهو الكتاب المنظور، وقراءة الوحي المنزل، وهو الكتاب المسطور.

والقراءة تختلف بحسب الخلفيات والمناهج والتصورات، وقد كانت البداية في الرسالة المحمدية بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [اقرأ: ١] لتكون القراءة باسم الرب، وكان المفتتح لكتاب الله تعالى وابتداء كل سورة منه بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لتكون القراءة باسم الله عزّ وجل، ويعني ذلك القراءة الإيمانية، أي: العلم المقترن بالإيمان. وحينها فالعلم يقود للإيمان والإيمان يشجع على العلم الذي لا يقف عند السؤال عن الكيف والكم؛ بل يمتد لما وراء ذلك من الغايات والمقاصد والعِلل والحِكم الدالة على الرب المعبود، وبذا يكون للحياة معنى وللوجود غاية، بعيداً عن العبثية والعدمية، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].



والآيات القرآنية التي فيها الحديث عن العلم والمعرفة النافعة تتناول العلوم والمعارف كافة، ولكن الفرق بين العلم الأخروي (إن جاز التعبير) والعلم الدنيوي هو أن التفصيل يكون في الأول لأنه مما لا يُعرف إلا بالوحي، والإجمال يكون في الثاني لأنه يُعرف بالتجارب والبحث العلمي،

وكلاهما أمرنا بأن نقرأهما باسم الله وباسم الرب جل جلاله كما سبق. فالعلم والمعرفة الدينية والدنيوية تكون باسم الله، وإلا صارت ضلالاً وغواية وطغياناً وعلماً بالظواهر فقط دون الأبعاد والمآلات المقصودة من العلم النافع، الذي يجب أن يقودنا للعمل الصالح.



خامساً: وظيفة العلم

للعلم وظائف أساسية عديدة في التصور الإسلامي، ولكن نشير لأهم ثلاث وظائف تمثل ركائز هامة في هذا المجال ويؤسس عليها كل ما عداها من وظائف فرعية، وهي:

أولاً: معرفة الله تعالى، **ثانياً:** معرفة الوجود الظاهري، **ثالثاً:** الإيمان باليوم الآخر.

ونحاول الحديث عن هذه العناوين في إشارات مجملة تفي بالغرض بما يتناسب والمقالة في مساحتها المحدودة.

أولاً: معرفة الله تعالى

من أهم وظائف العلم في التصور الإسلامي هو الدلالة على الحق والحقيقة، ومن أعظم الحقائق الوجودية حقائق الغيب (الله تعالى/ الملائكة/ الجنة والنار/ إلخ...)؛ فالله تعالى غَيبٌ، وهو الحق جل جلاله في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]. ومعرفة الله تعالى هي الغاية العظمى التي يتحقق من خلالها

غايات الوجود الإنساني بتحقيق العبادة والعمران والاستخلاف في الأرض، فأول وظيفة للعلم في الإسلام هي معرفة الله جل جلاله موجوداً ورباً وخالقاً ومتصفاً بكل كمال، ومنزّه عن كل نقص، وأن الوجود كله مظهر من مظاهر علمه وقدرته وجلاله وجماله وكرمه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].



والعلم التجريبي كما تقدم مجال بحثه هو العالم الطبيعي المادي وعالم الظواهر، بواسطة الكشف والاستنتاج والقياس وغيره، ومن خلال المعرفة الظاهرة بالوجود يربط العقل بين الآيات المنظورة في الكون والآيات المنزلة بالوحي، ويوظّفها نحو تحقيق وتعزيز المعرفة بالله تعالى؛ فكلها آيات (علامات) دالّة على الله تعالى وهذه أهم وظيفة للعلم.

ومعرفة الله تعالى ممكنة بواسطة العقل المجرد -إجمالاً لا تفصيلاً-؛ فكثير من العلم بالله لا يمكن حصوله بالعقل بعيداً عن الوحي، كما لا يمكن حصوله بالعلم التجريبي، ولكن يبقى دور العقل والعلم ضبط بوصلة التوجه نحو معرفة الله تعالى من خلال مفهوم الآيات المنظورة في الكون أو المعلومة بالعقل؛ فالإسلام يعمل على توظيف العلوم نحو مغزى وغاية سامية ولا يقف عند الظواهر، ولعل من أعظم دلالات القرآن الكريم في هذا الربط بين العقل والآيات الكونية والنقل في معرفة الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام وهو يجادل قومه ليصل بهم إلى اليقين بالله تعالى بعيداً عن عالم الظواهر المجردة والوقوف عندها أو اتخاذها آلهة من دون الله جلّ جلالُه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ

ٱلْمُوقِنِينَ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩].

ثانياً: معرفة الوجود الظاهري

لقد نادت الاتجاهات الوضعية بتنحية الأفكار الفلسفية والميتافيزيقية جانباً عند دراسة الظواهر الوجودية؛ ليكون الأمر وصفياً محضاً بعيداً عن التعمق في الغايات والمقاصد الما ورائية لتلك الظواهر. ومن أبرز رموز هذا الاتجاه الفيلسوف (أوغست كونت)، وبالتالي فإن وظيفة العلم وحدوده ودوره تختلف باختلاف الاتجاهات الفلسفية والعلمية.

ولما كان الإسلام مغايراً للتوجهات الوضعية، وله منهجيته الخاصة في العلوم، وكان الوحي هو المصدر الأساس للعلم اليقيني سواء في عالم الغيب أو الشهادة.. فإنه ينطلق مما يمكن تسميته بالمدرسة التوحيدية الجامعة للوحي والعقل والتجارب الحسية في سياق راشد، متجهاً بالعلم نحو وظيفة عميقة في دراسة الظواهر الوجودية، وذلك بعدم الاكتفاء بالدراسات الوصفية على أهميتها، ولكنه يقوم بتفسير الظواهر وفق تصور غيبي مطلق وكلي ومحايد ومحدد، من خلال منهجية القراءتين كما تقدم (الخبر والمختبر)، وهنا يمكن القول بأن العلم اليقيني هو علم الوحي المنزل، ثم الانطلاق منه نحو الوجود الظاهري والإجابة على سؤال لماذا تحدث الظواهر بهذا الشكل؟ أي سؤال المغزى والمعنى والغاية لا سؤال الوصف الذي يجيب عن الكيف والكم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33].

ومن تتبع النصوص الشرعية وما فيها من سُنن وقوانين في النفس والآفاق يجد ذلك جلياً، فمثلاً الحديث عن كسوف الشمس وخسوف القمر لا يتم تناولهما بالجانب الوصفي، أي: كيف تحدث؟ لأن ذلك يمكن العلم به من خلال العلوم التجريبية كما هو الحاصل الآن، ولكنها تقدم تفسيراً عمّا وراء الظاهرة الكونية ومغزاها الذي يُبنى عليه عمل، يقول رسول الله ﷺ عن عبدالله بن عباس: «إنّ الشَّمْسَ والقَمَرَ آيَتانِ مِن آياتِ اللهِ لا يَخْسِفانِ لِمَوْتِ أحَدٍ ولا لِحَياتِهِ، فَإذا رَأَيْتُمْ ذلكَ فاذْكُرُوا اللهَ»[٤].

فالحديث عن الظواهر الكونية من زلازل وبراكين وكوارث كلها آيات يخوّف الله عز وجل بها عباده، ويذكّرهم بها عن حقيقة ما خُلقوا له قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء: ٥٩].

كما أن الآيات القرآنية تعمل على توظيف العلم بالظواهر الوجودية، وتفسيرها للاستدلال بها على وجود الله تعالى وأنه الخالق وليس لهم خالق سِواه، قال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ * أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].



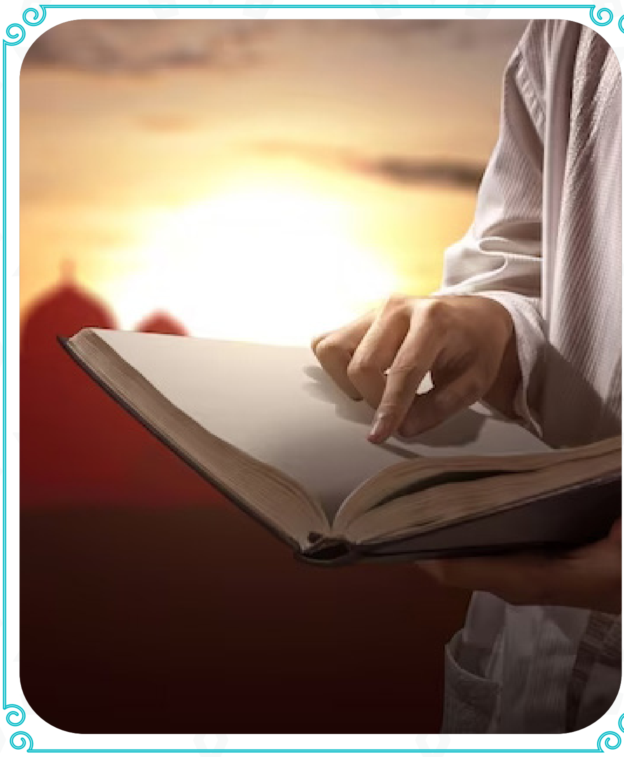
ثالثاً: الإيمان باليوم الآخر

الإسلام في تصوّره للحياة الدنيا يراها مؤقتة وليست دائمة وباقية، بل هي دار ابتلاء واختبار ومحل للاستخلاف المؤقت،

٤ صحيح البخاري.

وأنه لا معنى للحياة الحقيقية إلا إذا ارتبطت بالأبد، وبالتالي فإن الوقوف بالعلم عند الظواهر دون البحث في ما وراء هذه الدنيا هو نوع من الغفلة ونقص في العلم ونمط من العماية، قال تعالى:

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٤-٦٦].



فالإسلام يعمل على توظيف العلم للمعنى الحقيقي للحياة، فإذا كانت العلوم التجريبية والعقلية يمكنها تحقيق اليقين العلمي والعيني للظواهر المشاهدة في هذه الحياة الدنيا فإن الوحي وعلومه تؤسس لليقين الحق أو حق اليقين الأخروي، بالتفصيل عن يوم القيامة وما فيها من جزاء وحساب وجنة ونار وغيرها من مشاهد الآخرة، التي فصلت تفصيلاً بما لا مَدرك للعقل والعلم التجريبي له لأنه أمر غيبي، قال تعالى:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٨٨-٩٦].

وقال تعالى مبيناً بأن الحياة الحقيقية هي في الدار الآخرة وليس في هذه الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤][٥].

وخلاصة القول

فإن الإسلام في نظرته للعلم أوسع وأشمل وأعمق وأكثر يقيناً من العلم في منظوره الوضعي؛ لأن نظرية الإسلام المعرفية لها مرجعيتها ومصادرها ومناهجها التي ترتكز على مفهوم توحيدي لا تقسيمي للحقيقة، والحق والحقيقة هي محور العلوم كلها، فمتى ما ظهرت الحقيقة فالتسليم بها واجب ولا مجال للأوهام والظنون والتخرصات، والحق هو محور التنزيل الحكيم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقال سبحانه: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا * قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا *وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٥-١٠٩].

وقد حرّم الشارع وجرّم تلبيس الحق بالباطل أو كتمان الحق بعد ظهوره، حتى لا تتأسس الحياة على الباطل والوهم والخرافة، وهذا منتهى ما تسعى إليه العلوم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

اللهم علمنا ما ينفعنا وزِدنا علماً!

---

٥ لمزيد من التفصيل، انظر: أصول المنهج القرآني، الدكتور محمد المجذوب.



الأُميَّة مَزِيَّة لخير البريَّة

وهي بليَّة لمعظم البشريَّة



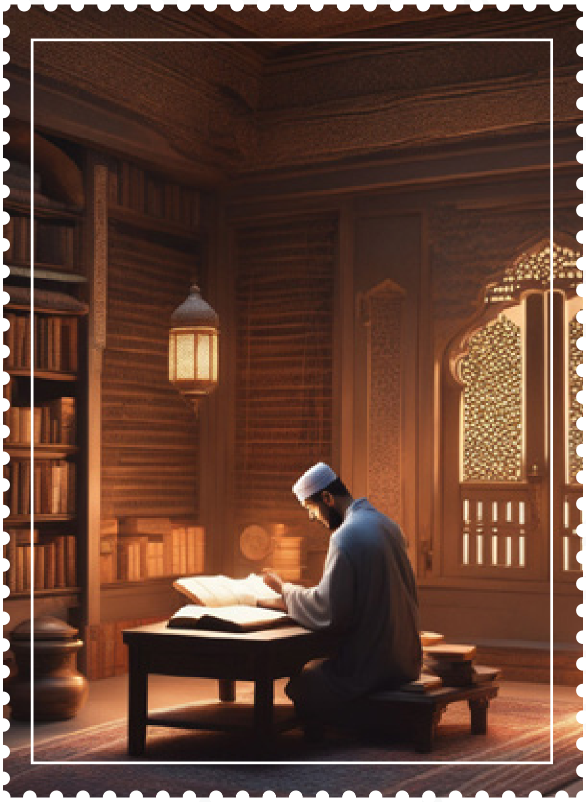
د. يونس الأسطل

عضو رابطة علماء فلسطين

الحمد لله الذي بعث في الأُمِّيين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتهِ، ويزكيهم، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين، والصلاة والسلام على مَنْ أَوحى إليه ربُّه ببعض أنباء الغيب التي ما كان يعلمها هو ولا قومه من قبلِ ذلك، فكانت دليلاً على صدق نبوته، وصورةً من صُور معجزاته.

وبعــد:

فإنه مع اقتحامِنا عاماً دراسياً جديداً، وانخراطِ الملايين من أبناء الأمة الإسلامية في برامج الدراسة المختلفة، يحسن بنا التنبيهُ على قضيةٍ قد لا تسترعي انتباه الأكثرين، وهي البحث في أسرار الحكمة الإلهية باختيار نبيٍّ أميٍّ ترعرع في أمةٍ أُمّيةٍ، لِيخصَّه بالرسالة العالمية من بعدِ أن كان كلُّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصة، والعجب أن هذه الرسالة قائمةٌ على العلم، محرِّضةٌ على الاستزادة منه، من المَهْد إلى اللَّحْد، تحقيقاً لمقصد الاستخلاف، وتأَهُّلاً لعمارة الأرض.



فقد علَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها، وأثبت أبو البشرية بأهلية العلم أنه أجدر بالخلافة في الأرض من الملائكة المقربين الذين يُسَبِّحون الليل والنهار لا يَفْتُرون، كما أن ربَّكم سبحانه قد أنشأكم من الأرض، واستعمركم فيها، وجعلكم خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس، كما جعلكم أمة وسطاً؛ لتكونوا شهداء على الناس، فتكون لكم الريادة فيهم والقيادة والسيادة، حين تبلغون بهذا الدين ما بلغ الليل والنهار.

إن سيدنا محمداً كان دعوة أبَوَيْه إبراهيمَ وإسماعيل، فقد دَعَوَا اللهَ ربَّهما، بعد أن رفعا القواعد من البيت، أن يجعلهما مُسْلِمَيْنِ له، ومن ذريتهما أمةً مسلمةً له، وأن يبعثَ فيهم رسولاً منهم لأربعة أهداف؛ هي تلاوة آياته عليهم، وتعليمهم الكتاب والحكمة، وتزكيتهم.



وقد أُجيبت دعوتهما، فبعث فيهم نبياً أُمِّيّاً في أمةٍ أُمِّية؛ لِينذرَ عشيرته الأقربين، ثم ليدعوَ أهل الكتاب، سواء كانوا هُوداً أو نصارى؛ ليتبعوا الرسول النبيَّ الأُمِّيَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ثم أمره أن يقول للناس كافةً: «إني رسول الله إليكم جميعاً»، ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف ١٥٨].

وهنا أتساءل عن بعض الأسرار في ذلك الاختيار لنبيٍّ أميٍّ يعلِّم الناس ما لم يكونوا يعلمون، من بعد أن أنزل الله عليه الكتاب، والحكمة، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً؟!

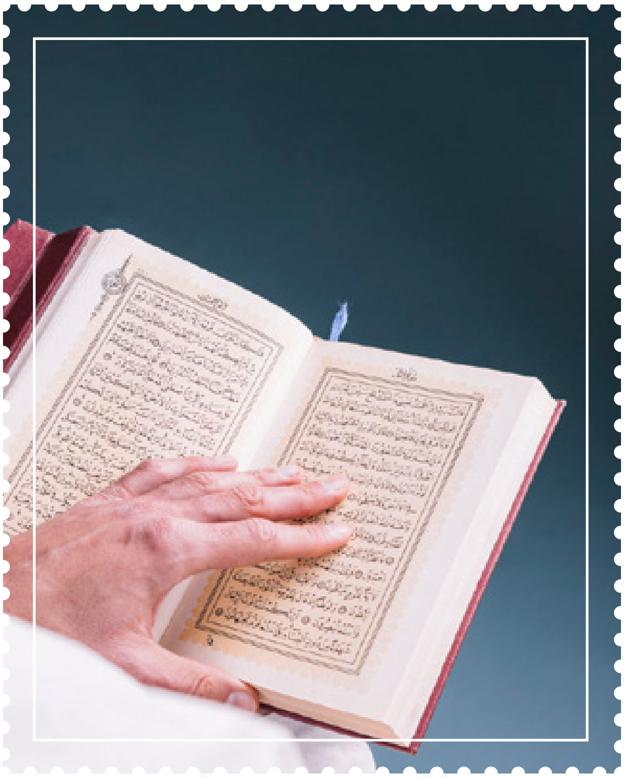
والسؤال هذا موصولٌ بسؤالٍ آخرَ، وهو ما عساها تكون حكمة الله تبارك وتعالى في اختياره من أمةٍ أُمِّيةٍ كذلك؛ لتكون هي الأمةَ التي يُخرج الله بها الناس من الظلمات إلى النور من بعد أن أنزل الله إليهم ذِكْراً، رسولاً يتلو عليهم آياتِ الله مُبيِّناتٍ، ليُخرجَهم من الظلمات إلى النور؟!.

أما بخصوص السؤال الأول، فإن (الأُمِّي) في حقِّ رسول البشرية صفةُ كمالٍ دون غيره من الرجال، ووجه ذلك يتجلى في حِكَمٍ، أهمُّها ثنتان:

إثبات صدق الرسالة والوحي، إذْ كيف لنبيٍّ أميٍّ أن يأتيَ بكتابٍ يَعْجَزُ العرب والعجم عن محاكاته في وجوه إعجازه التي لا تُحصَى كثرةً، ولا زال يتكشَّفُ منها المزيد؟!

فهو معجزٌ للعرب في بيانه، وفي ألفاظه وتراكيبه، وفيما أخبر به من الغيب الغابر، أو الحاضر، أو الواقع في المستقبل، وهو معجزٌ لغيرهم في إعجازه العلمي، والتشريعي؛ إذْ كيف تحدَّثَ النبيُّ الأميُّ عن آيات الله في الآفاق، وفي الأنفس، وقد بلغ الأربعين، وهو لم يجلس إلى أستاذٍ، ولا كان يتلو من قبله من كتابٍ، ولا يخُطُّه بيمينه، فلا يتصور ذلك إلا إذا كان وحياً إليه من علَّام الغيوب الذي يعلم مَنْ خلق، وما خلق؛ بل عنده مفاتحُ الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، كما يعلم خائنة الأعين، وما تخفى الصدور.

إنه فضلاً عن التحدّي بالمعجزات، فقد أراد الله عزَّوجلَّ أن يقضيَ على شبهات المبطلين الذين جادلوا بالباطل لِيُدْحِضُوا به الحق، فقالوا: أساطيرُ الأولين اكْتَتَبَها، فهي تُمْلَى عليه بُكرةً وأصيلاً، كما يقولون: إنْ هذا إلا إفكٌ افتراه، وأعانه عليه قومٌ آخرون، والله يعلم أنهم يقولون: إنما يعلِّمه بشرٌ، يريدون أنه كان يختلف إلى يهوديٍّ، يجلس إليه، ويتلقَّى منه القرآن، وقد كانت هذه الفرية في غاية التهافُتِ، فلسان الذي يُلحدون إليه أعجميٌّ، وهذا لسانٌ عربيٌّ مُبين؛ فكيف للأعجمي أن يأتيَ بقرآنٍ عربيٍّ غيرِ ذي عوَجٍ، ثم يعجز البلغاء والشعراء، والأدباء والفصحاء، أن يأتوا بسورةٍ من مثله، حتى لو اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً؟!



وقد قال تعالى في تِبْيان هذه الحكمة: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ونظراً لأهمية الأمية في حياة نبيِّنا محمد ﷺ لإقامة الحجة بذلك على العالمين؛ فقد راح المبطلون يطعنون في ذلك، ويقولون: إنَّ وَصْفَ الأمية لا يعود إلى أنه لا يعرف القراءة والكتابة؛ بل لأنه من مكة، وهي أمُّ القُرى، وهذه حجة دَاحِضةٌ عند ربِّنا، فأُمُّ القرى ليس وَصفاً خاصاً بمكةَ التي فيها أولُ بيتٍ وضع للناس؛ بل إن كانَّ مدينةٍ حولها عددٌ من القرى التابعة لها في الإمارة تُسَمَّى أُمَّ القرى كذلك، ودليل هذا في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

فأمُّ القرى وَصْفٌ يُطلق على كلِّ المدن التي بعث الله فيها رسله؛ لِينذرَ تلك المدينة وما حولها من القرى؛ وليقيم عليهم الحجة، فإذا لم يؤمنوا أَخَذَهم أَخْذَ عزيزٍ مقتدر، والقائلون بغيره قد جاؤوا ظُلْماً وزوراً، فليس إذاً خاصاً بمكة المكرمة.

وقد تَمَحَّك بعض المشكِّكين في أُمِّيته ﷺ ببعض الأدلة النقليَّة والعقلية، غير أن كل ذلك من اتِّباع ما تشابهَ منه؛ ابتغاءَ الفتنة، وابتغاءَ تأويلِه، وهو أمارةُ زَيْغٍ في قلوبهم، ولا حاجةَ بي إلى أن أتتبَّعَ كلَّ ساقطةٍ في ذلك.

وأما السؤال الثاني فالجواب عنه من وجهين:

إن أمية العرب في ذلك الوقت هي التي جعلتهم أهلاً لحمل رسالة الله ابتداءً، وليكونوا أولَ المؤمنين بها؛ فقد كان لدى الأمم السابقة من الفلسفات والثقافات ما جعلهم يستنكفون عن اتِّباع الرسل، ويكتفون بما عندهم من العلم؛ بل ويفرحون به، حتى إننا لَنجدُ أحد الأنبياء يوم القيامة ومعه الرجل، والنبيَّ ومعه الرجلان، والنبيَّ وليس معه أحد، واقرؤوا في هذا المعنى:

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ * فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ * فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].



فقدِ ٱكتَفَوْا بما عندهم من العلم فَرِحِين به، ورَأَوْا أنهم في غِنًى عن اتباع دعوة النبيين والمرسلين.

ومن وجوه الفضل في أُمِّية العرب أنهم كانوا سالمين مما صار طبعاً لبني إسرائيل، خاصةً حين بلغت الأمِّية بعامة أهل الكتاب أنهم لم يعودوا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ، وإنْ هم إلا يظنون، كما في سورة البقرة (٧٨)، بينما كان علماؤهم يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عنده الله؛ ليشتروا به ثمناً قليلاً، وكان منهم مَنْ إن تأمنه بدينارٍ لا يؤدِّه إليك إلا ما دمتَ عليه قائماً؛ ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا في الأُمِّيِّين سبيل، ويقولون على الله الكذِبَ وهم يعلمون، لذلك فقد نُزِعتْ راية الدعوة والنبوة من بني إسرائيل، ودفعت إلى بني إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

ولعله من المناسب أن أشيرَ إلى أن الأُمِّية ليستْ محصورةً في العجز عن القراءة والكتابة، فهذه صورة من صورها، مع أن كثيراً من الأُمِّيين قد بَزُّوا المجيدين للمطالعة والتدوين، ولو جمعوا بين الإلمام بعدد من اللغات، وإلَّا فإنَّ الأعمى مثلاً كان إلى عهدٍ قريبٍ لا يقرأ ولا يكتب، ولكنَّ الذين تفوَّقوا في العلوم منهم، لا سيما النظرية منها، لا يُحْصَوْن كثرةً؛ منذ زمن عبدالله بن أم مكتوم من السابقين الأولين في الصحابة الأكرمين أجمعين، وإلى عصرنا هذا.

إن الأُمِّية المَقِيتةَ هي أميةُ الجهل والضلال، والأوهام والظنون، والأساطير والأباطيل، ولعلَّ أكثرَ الناس تَدَنُّساً بها هم اليهود، فما أكثر الخرافات والخزعبلات في عقولهم وسلوكهم!!، فهم قوم لا يفقهون ولا يعقلون، كما في سورة بني النضير أو الحشر، الآيتان (١٣، ١٤)، وإلَّا فمن ذا الذي يجترئ على الله، ويُلْحِدُ في أسمائه وصفاته، ويجترئ كذلك على دماء رسله وأنبيائه، إلّا من كان ظلوماً جَهولاً؟!



انظروا إليهم وقد خرجوا لِتَوِّهم من (لسان السُّويس) في البحر الأحمر بعد إهلاك فرعونَ وجنودِه، فلما جاوزوه أَتَوْا على قومٍ يَعْكُفُون على أصنامٍ لهم، فإذا بهم يقولون: يا موسى اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون.. كما في سورة الأعراف (١٣٨)، وأعظم الجهل هو الجهل بالله ووحدانيته ذاتاً، وصفاتٍ، وتشريعاً، فله وحده الحاكمية والأمر.

إن هذا النوع من الأمية أو التخلف قد أصاب أمتنا عبر قرنين من الزمان، قرنٍ أُهمل فيه التعليم من قَبْلِ سقوط الخلافة عام ١٩٢٤م، وقرنٍ بعدها، وَضَعَ فيه أعداؤنا الصليبيون مناهجَ الدراسة لنا، وعزلوا فيها الإسلام والقرآن، وكذا اللغة العربية، عن أن تكون مناهجَ أصليةً؛ بل وجعلوا المتخصص في الدين أو اللغة إنْ أُتيحتْ له فرصةُ العمل؛ فإنها تكون براتبٍ لا يوازي نصف مكافأة المتخصص في العلوم الأخرى، لا سيما الطب، والهندسة، والفيزياء، وما شاكل ذلك؛ بل ربما لا يساوي راتبَ المراسل في المدرسة أو المؤسسة التي يعمل بها.

إن المختصَّ في أيِّ علمٍ، مهما بلغ فيه من المراتب، ما لم يكن قائماً على الإيمان بالله واليوم الآخر فهو والجهلُ سواء؛ بشهادة سورة الروم: ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].

فقد نفى عنهم العلم، ثم أبدل منه عِلْمَهم بظاهرٍ من الحياة الدنيا؛ أيْ أنه مهما تعمَّق الإنسان في علمٍ من علوم الدنيا فلا يعدو أن يكون عِلْماً بظاهرِ ذلك الجانب، بينما يظل مردُّ علم باطنِهِ إلى الله جلَّ جلاله، وأنه ما لم يُسَخَّرْ ذلك العلم لطلب السعادة في الآخرة، فإنه يكون عينَ الجهل؛ إذْ إن الآخرة هي حياتنا الأبدية، والناس فيها فريقان؛ فريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السعير، فما قيمة أعلى المراتب العلمية إذا كان مصير صاحبها إلى الشقاء الأبدي، فهم في العذاب والضلال البعيد؟!



وإنَّ مما يؤكد ذلك أن عدداً من الآيات الي يُستدلُّ بها على أهمية العلم، وفضل العلماء، تتعلق بعلم الآخرة، وبالأخصِّ قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]؛ فإنها تمامُ ستَّ عشرةَ آيةً تحدث عن مشاهدَ من اليوم الآخر، كمن يحملون أوزارهم على ظهورهم، وساء لهم يوم القيامة حملاً؛ حيث يُحشرون يوم ينفخ في الصور سُودَ الوجوه زُرْقَ العيون، يوم ينسف ربُّنا الجبال نسفاً، ويستجيبون لداعي القيام من القبور، وقد خشعتِ الأصواتُ للرحمن، فلا تسمع إلا

همساً، وهم يتخافتون بينهم عن مدة لُبْثِهم في الدنيا، وعَنَتِ الوجوه للحي القيوم، وقد خاب من حمل ظلماً، بينما من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظُلْماً ولا هَضْماً.. وغير ذلك من الأهوال والوبال.



ومثل هذه الآية قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]؛ فإن صدر الآية يتحدث عمن هو قائمٌ آناءَ الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربِّه، والمعنى: هل يستوي الذين يعلمون أن الآخرة يومٌ عسيرٌ، على الكافرين غير يسير، فهو يومٌ يجعل الوِلْدانَ شِيباً، فراح يقوم أكثر الليل؛ لعله يكون ممن يأتون آمنين يوم القيامة، وفي نفس الوقت فإنه يرجو الجنة؛ لأن أهلها كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، فقد كانوا يَبِيتُونَ لربِّهم سُجَّداً وقياماً، وتتجافى جنوبُهم عن المضاجع يَدْعُونَ ربهم خوفاً وطمعاً.. هل يستوي هؤلاء مع مَنْ ينام ليله طويلاً؟! فليس عندهم إشفاق من الساعة، ولا من عذابِ ربِّهم، مع أن عذابَ ربِّهم غيرُ مأمون، وتلك -والله- هي الأمية والجهل.

ولا ينبغي أن يستقرَّ في خَلَدِ أحدٍ أن هذه الآيات وأخواتِها تزهِّدُ في اكتساب علوم الدنيا؛ ذلك أن خشية الله عزوجل إنما تحصل وتزداد كلما نظر المؤمن في خلق الله الدالِّ على عظمته، وعلى حكمته، وسعة علمه، وطلاقة قدرته؛ فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] جاء مسبوقاً بشدِّ الانتباه إلى علم النباتِ المختلفِ الألوان؛ مع أنه في قِطَعٍ من الأرض متجاورات، ويُسْقَى بماءٍ واحد، ثم إلى الجبال وألوانها، وإلى اختلاف الأجناس من الناس، والدوابِّ، والأنعام.. ثم جاء بعدها الإغراء بتلاوة كتاب الله، وإقام الصلاة، والإنفاق من الكسب والعرق سِرّاً وعلانية؛ فإنهم عندئذٍ يكونون من المُصْطَفَيْنَ

الأخيار، بما أورثهم مجموعُ الكتابين: الكتاب المقروء، والكتاب المتطور، من خشية الله التي يستحقون بها أن يُنْعَتُوا بوصف العلماء، فالعلم الحقيقي هو ما أورثَ خشيةَ العليم؛ لتنظر نفسٌ ما قدَّمتْ لغدٍ، وترجو اليوم الآخر، فلا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين.

۞ إن مصيبتنا الكبرى أننا اتخذنا هذا القرآن مهجوراً، فإن أكثر أمتنا قد اتخذوه وراءهم ظِهْرِيًّا، فلا هُمْ فهموا الدينَ على وَجْهِه، ولا هم حَذَقُوا الدنيا التي يجدون أصولَ علومها مكتوبةً عندهم في القرآن، ثم في سنة العدنان عليه الصلاة والسلام، ولا يغرنَّكم أنكم تدخلون المساجد، فتجدون ما لا يُحْصَى من التالين للقرآن المبين، ومن الألوف أو الملايين من المنخرطين في سلك الحافظين؛ فإنَّ أكثرهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أَمَانِيَّ، وإن هم إلَّا يظنون، كما الحال في عامة بني إسرائيل.

إنه لن نعودَ سيرتَنا الأُولى حتى يعودَ الإيمان والقرآن رُوحَنا التي بها نَحْيا، ونُورَنا الذي نمشي به في الناس، وعِلْمَنا الذي نستخرج به الخبْأَ في السموات والأرض؛ فقد سخرَّ لكم ربُّكم ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليكم نِعَمَه ظاهرةً وباطنة، وآتاكم من كلِّ شيءٍ سبباً، فما عليكم إلا أن تَتْبَعُوا سبباً، كما فعل ذو القرنين رحمه الله، فملك بها مشارق الأرض ومغاربها، وساس الدنيا بمنهاج ربِّ البرية، وما أرسل الله رسوله إلا رحمة للعالمين، لكنه عزَّ وجلَّ قد أناط بنا أن نحملها إلى العالمين، لِنكونَ جديرين بمناقب خيرِ أمةٍ أُخرجتْ للناس، ولِنتأهَّبَ به لجنةٍ عرضُها السموات والأرض، أُعِدَّتْ للمتقين.

فهل إلى خروجٍ من هذه الأمية الماحقة من سبيل يا أمة القراءة والقلم، كما في سورتي العلق والقلم، وفي سائر القرآن، وتجارب الأمم؟!

والله تعالى هو الأعلم. وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ، على آله وصحبه وسلَّم

مشاعل النور والعلم



الشيخ مختار بن العربي مؤمن

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

«اقرأ» عنوان الرسالة الخالدة، والأمة الخاتمة، هي أول ما نزل على نبينا ﷺ، وهو الأمي الذي لم يقرأ في حياته ولا كتَب، جاءت اقرأ لتحيي الأميين فتجعلهم أمّة العلم والعمل، لم تكن تلك البداية عبثاً البتّة، بل كانت من عليم حكيم يعلم أن هذه الأمة الخاتمة هي التي ستحمل مشعل العلم والإيمان فلا ينفصلان حتى قيام الساعة.



لم يمرّ على الأمة إلا زمن يسير حتى شع نور تلك الكلمة فعجّت المساجد بالطّلاب، وصارت الركبان تقطع الفيافي والبحار لتلقّي العلم، وصار التعليم أداة لفك الأسير، وإغناء الفقير، ورفعة الحقير «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[1].

العلم في القرءان

لم يحظَ كتاب من الكتب السابقة ما تضمنه القرءان من الحث بالعلم، والتنويه بشأنه،ورفعة أهله كما حظي بذلك الكتاب الخاتم، فلقد وجّه الله نبيه ﷺ ليطلب المزيد من العلم فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤]، ونوّه بشأنه وشأن أهله فقال: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩].



وأشهدَ على وحدانيته أهل العلم فقال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وبيّن درجة العلم والعلماء ورفعتهم في الدارَين؛ فقال: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١].

بل إن كلمة «علم» نكرة ومعرفة ذكرت في القرءان الكريم (٨٠) ثمانين مرة، أما مشتقاتها: علم ويعلم وعليم وعلام.. فقد ذكرت مئات المرات.

---

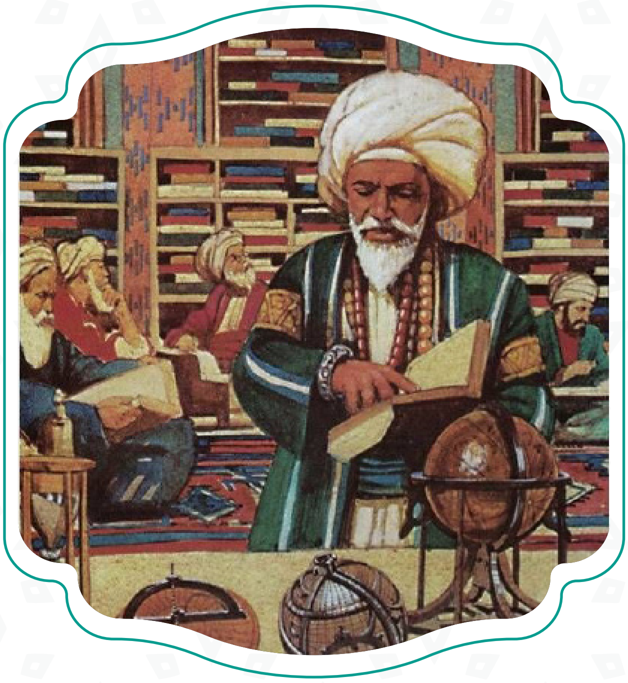
[1] رواه مسلم، من حديث عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ رضي الله عنه.

بل إنّ القرءان حرّم على الإنسان أن يسلك مسالك التعالم فيفتي بغير علم، أو يتقوّل على الله ما لم يقُل، أو يسند لنبيه ما لم يأتِ به، فتلك جريمة شنيعة، وصنعة فظيعة لا يقبلها الحق، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقرن القول على الله بغير علم بالشرك فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

بل إنّ علماء الحديث عقدوا في مصنفاتهم كتاباً يحمل اسم «العلم» بعد الوحي والإيمان، ليدل على أن علماً قُطعت صلته بالوحي والإيمان حريّ أن يكون مبتوراً، ولا يبقى في كتاب الكون مسطوراً.. فهذا أصحّ كتاب بعد كتاب الله: (البخاري) يبوّب بعد الوحي والإيمان فقال: «كتاب العلم». وقد اشتمل على مئة حديث وحديثين، وهكذا في سائر كتب السنّة، بل قد طفحت كتب التراجم بذكر العلماء ومنجزاتهم في كل ميادين الحياة، في الطّب، والهندسة، والكيمياء، والعلوم المتنوعة.

إنّ أمّة يدعو كتابها إلى العلم والمعرفة هي خير أمّة أُخرجت للنّاس، يوم أن كانت تتمتع بحاسة التدبر والتعليم والعمل، والفهم والابتكار، فاخترعت من شتى العلوم منافع للبشرية لا زالت تتفيأ ظلالها، فلما أصيب ببلادة الاستعمار والنظرة التحتانية صارت في ذيل الأمم، ولن تعود إلى سامق مجدها، وعلو نجمها إلا عندما تعود إلى «اقرأ» فهماً وتدبراً وعلماً وعملاً.



الرسول والعلم

لقد حثّ نبينا على العلم، واحترام العلماء، كل ذلك ليجعل من الأمة الأمية أمية رائدة ومبدعة في كل مجالات الحياة مع الفوز بالجنات والدرجات، فالإسلام يدعو إلى طلب العلم وقد جعل الرسول ﷺ طلب العلم فريضة على كل مسلم، وبيّن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وأن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً و لا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر.



وأخبر ﷺ أن طلب العلم طريق إلى الجنة، حيث بوب البخاري باباً فقال: (بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ). وأورد الحديث معلّقاً أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سهَّل اللَّه لَه طَرِيقًا إِلَى الجنةِ، وَإِنَّ الملائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطالِب الْعِلْمِ رِضًا بِما يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعالِم لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ في السَّمواتِ ومنْ فِي الأَرْضِ حتَّى الحِيتانُ في الماءِ، وفَضْلُ الْعَالِم عَلَى الْعابِدِ كَفَضْلِ الْقَمرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ وإِنَّ الأَنْبِياءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا وإِنَّما ورَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[٢].

وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس منا مَن لم يُجل كبيرنا ويَرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا»[٣].

---

٢ أخرجه البخاري معلقاً، ومسلم (٢٦٩٩)، الترمذي (٢٦٨٢) واللفظ للترمذي.

٣ أحمد ٣٢٣/٥، والحاكم ١٢٢/١ وسنده حسن، وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» وزاد في آخره «حقه» ولم ترد هذه اللفظة في المطبوع من «المسند» و«المستدرك».



فأيّ حظ أوفر من هذا الحظ، إن أهل المال وأهل الجاه والسلطان ليَتَمَنَّون يوماً من أيام مجالس العلماء ليكونوا مثلهم، ولكن هيهات بين من كان جلس على الكرسي حارساً للشريعة وحاميها، ومن همّه حماية الكرسي ولو أدى إلى سيلان الدماء، وزهق الأرواح، وهتك الأعراض، فهذا أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي المشهور (عبدالله بن محمد) المتوفى سنة (١٥٨) رحمه الله تعالى، اشتهى يوماً أن يكون على كرسي العلم يعلم الناس ويرشدهم، فقد قيل له: هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تنلْه؟ قال: بقيت خصلة، أن أقعد على مِصْطَبَة، وحولي أصحاب الحديث، يقول المستملي: من ذكرت رحمك الله؟ يعني: فأقول: حدثنا فلان، قال حدثنا فلان، عن رسول الله. قال: فغدا (أي بكّر) عليه النُّدماء، وأبناء الوزراء، بالمحابر والدفاتر، فقال لهم: لستم بهم! إنّما هم الدّنسة ثيابهم، المشققة أرجلهم، الطويلة شعورهم، بُرُدُ الآفاق (أي جوّابوا البلدان والمسافات البعيدة) ونقَلة الحديث[٤].

لقد كانت أمتنا رائدة في العلم والتعليم، والكتابة والتأليف، ولم تعرف أمة مثلها، لاسيما في القرون الماضية حينما كانت أوربا تعيش الظلام الدامس، كانت بيوت المسلمين لا تخلو من مكتبة فضلاً عن الجوامع والأربطة والمساجد ودور العلم، ولو طالعت كتاب (تاريخ المكتبات الإسلامية) للمحدث الشيخ عبدالحي الكتّاني، لرأيت عجباً لا ينقضي، ولقد رمى التتار من الكتب في نهر دجلة والفرات ما غيّر لون الماء شهوراً من أثر المِداد، وكانت وقتها وما بعدها تعلّق الكائس مَن يريد العلم في المشانق.

---

٤ تاريخ الخلفاء، ص٤٣٢.

بل إن الإسلام حث على تعلم اللغات الأجنبية للاستفادة من تجارب الأمم، لا سيما إذا كان ثَم علم نافع، ولأن رسالة المعلم الأول جاءت عالمية، فعَنْ خَارِجَةَ يَعْنِي ابْنَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ:

أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَ يَهُودَ، وَقَالَ: «إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي» فَتَعَلَّمْتُهُ، فَلَمْ يَمُرَّ بِي إِلَّا نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى حَذَقْتُهُ، فَكُنْتُ أَكْتُبُ لَهُ إِذَا كَتَبَ وَأَقْرَأُ لَهُ، إِذَا كُتِبَ إِلَيْهِ»[٥].

أخلاقيات العلم والعلماء

إن علماء الأمة الميامين ألفوا في فضل العلم وأهله، وبيّنوا أن العلم إذا لم يكن له سياج من الأخلاق الرفيعة، والآداب المنيعة كان وبالاً على صاحبه، ومعولَ هدم للأمّة، وأداة تحريف وتخريب، ويرحم حافظ إبراهيم شاعر النيل حيث يقول:

فَإذا رُزِقتَ خَليقَةً مَحمودَةً	فَقَدِ اصطَفاكَ مُقَسِّمُ الأَرزاقِ
فَالناسُ هَذا حَظُّهُ مالٌ وَذا	عِلمٌ وَذاكَ مَكارِمُ الأَخلاقِ
وَالمالُ إِن لَم تَدَّخِرهُ مُحَصَّناً	بِالعِلمِ كانَ نِهايَةَ الإِملاقِ
وَالعِلمُ إِن لَم تَكتَنِفهُ شَمائِلٌ	تُعليهِ كانَ مَطِيَّةَ الإِخفاقِ
لا تَحسَبَنَّ العِلمَ يَنفَعُ وَحدَهُ	ما لَم يُتَوَّج رَبُّهُ بِخَلاقِ
كَم عالِمٍ مَدَّ العُلومَ حَبائِلاً	لِوَقيعَةٍ وَقَطيعَةٍ وَفِراقِ
وَفَقيهِ قَومٍ ظَلَّ يَرصُدُ فِقهَهُ	لِمَكيدَةٍ أَو مُستَحَلِّ طَلاقِ
يَمشي وَقَد نُصِبَت عَلَيهِ عِمامَةٌ	كَالبُرجِ لَكِن فَوقَ تَلِّ نِفاقِ
يَدعونَهُ عِندَ الشِقاقِ وَما دَرَوا	أَنَّ الَّذي يَدعونَ خِدنُ شِقاقِ

---

٥ رواه أبو داود (٣٦٤٥)، والترمذي (٢٧١٥)، وعلقه البخاري في «صحيحه» (٧١٩٥) بصيغة الجزم.



وعلى العالم تعليم الناس وتبليغ دين الله وتبصير الناس بمعالم الحلال والحرام، ومواطن الخير والانحلال، ولا يحل له أن يكون بوقاً للظالمين؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

كما لا يحلّ له أن يكتم ما أنزل الله، ولو فعل لكان ملعوناً كإبليس مطروداً؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

وإن كثيراً من علماء السوء صاروا حجر عثرة أمام الإصلاح ودعوة الناس إلى الخير وتحكيم ما أنزل الله على نبيه، بل صاروا بوق افتراء وكذب وتحريف لكلمات الله المباركة، قال الحق واصفا إياهم: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

فعلى العالم أن يستشعر بالمسؤولية أمام الله لأن العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد بلغوا ما أمرهم به ربهم، ولم يكتموا، ولم يحرفوا، وهكذا ينبغي أن يكون العلماء الربانيون، لأنه كلما اتسع

علم الإنسان كلما ازددات مسؤوليته، وعسر حسابه، وثقلت تبعاته، ولقد كان أبو الدرداء يقول: «أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق، فيقول لي: يا عويمر، فأقول: لبيك رب! فيقول: ما عملت فيما علمت؟»[٦].

ما أجمل ما قاله الإلبيري في قصيدته الماتعة:

وإنْ أُوتيتَ فِيهِ طَويلَ باعٍ •• وقال النـاسُ إنَّكَ قد سبقتا
فلا تأمنْ سُؤالَ اللهِ عنهُ •• بتوبيخٍ: عَلِمتَ فهل عَمِلْتا؟
فرأسُ العِلمِ تَقوى اللهِ حقاً •• وليس بأن يُقالَ: لقد رأستا
وَضافي ثوبِكَ الإحسانُ لا أنْ •• تُرى ثَوبَ الإساءةِ قد لَبِستا
إذا مـا لـم يُفِدْكَ العِلمُ خيراً •• فخيرٌ منهُ أن لو قد جَهِلتا
وإنْ ألقـاكَ فَهْمُكَ في مهاوٍ •• فليتَكَ ثُمَّ ليتكَ ما فَهِمتا
ستجني من ثمار العجزِ جَهلاً •• وتَصْغُرُ في العيونِ إذا كَبِرتا

٦ الترغيب والترهيب (رقم ٢١٥) ج١.



منهجية تعليم التفكير والتغيير
في سيرة النبيّ ﷺ وأثرها في الحضارة



د. محمد أيمن الجمال
عضو أمناء المجلس الإسلامي السوري

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

التفكير والتغيير في أول ما أنزل: «اقرأ»

فإنّ أوّل ما أنزل على النبيّ ﷺ كان قول الله تعالى: «اقرأ»، وكان جواب النبيّ ﷺ متحرّزًا عن معصية الأمر أو إنكاره، لم يقل: لن أقرأ، بل قال: إنّه ليس بقارئ: «ما أنا

بقارئ» حتى تلك اللحظة ما كان يخطر ببال النبيّ ﷺ مفهوم القراءة المراد منه، ألا وهو: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] حينها عرف أنّ القراءة تمكن إن كانت باسم الله تعالى، وأنّ ذلك ممكن منه، بل سيكون ﷺ خير من قرأ، وأعلم من سيقرأ، وسيكون معلّم الناس القراءة، ورأس كلّ سندٍ في الإقراء، وإليه المنتهى في الإجازات العلمية في كلّ علوم الشريعة.



لم تكن «اقرأ» مجرّد كلمة، بل كانت فكرة، كانت طلبا لتغيير الواقع، وطلبًا لتغيير منهجية التفكير.

التفكير كمنهجية في السيرة

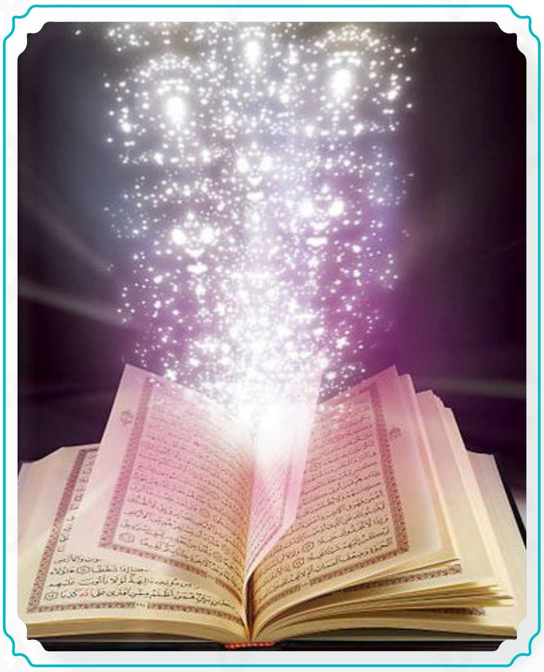
طالبت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى الناس بالتفكّر في هذا الكون، والتأمّل في بدء الخلق، وسبب الوجود، والحكمة منه، والتفكّر في محاكمة الأمور وموازنتها، وطلب إعمال العقل والقلب في التفكّر والتفقّه، ولا تخفى هذه الآيات على القارئ الكريم، وقد كان النبيّ ﷺ يحثّ أصحابه على التفكّر في كثيرٍ من المواقف:

بعضها بشكلٍ مباشرٍ عن طريق السؤال: «أتدرون من المفلس؟» «أي العمل أفضل؟» «أتدرون من البخيل؟» «أي الرقاب أفضل؟» «أتدرون أيكم أفضل عند الله؟» ويكون السؤال أحياناً عن طريق الاختبار والامتحان «إنَّ مِن الشجر شجرةً، لا يَسقط ورقُها، وإنها مثل المسْلِم. فحدِّثوني ما هي؟» «ما تعدّون الصرعة فيكم؟» وغير ذلك كثيرٌ في السنّة النبويّة المطهّرة.

وبعضها بشكلٍ غير مباشر بوسائط متعددة، منها تكرار الكلام وتأكيده والدعاء ونحو ذلك، فلمّا كرّرَ النبيُّ ﷺ مراراً: «أشيروا عليّ أيّها الناس» فهِمَ بعض الصحابة كسعد بن معاذ من تكرارها: «لكأنّك تريدنا يا رسول الله»! فقال له النبيّ ﷺ: «أجل».

نقل التفكير من الماديات إلى المعنويات، ومن ذلك تغييره ﷺ لمفهوم الصدقة في عدد من المواضع: «على كل سُلامى من الناس في كل يوم تطلع فيه الشمس صدقة» وظاهر الصدقة المطلوبة أنها الصدقة الماديّة، ولذلك صرف النبيّ ﷺ أفهام الناس إلى المعنى غير المادي، فذكر أنّ إماطة الأذى عن الطريق صدقة وأنّ تبسّمك في وجه أخيك صدقة وأنّ الإصلاح بين الناس صدقة، وتبعّل المرأة لزوجها من أعظم الصدقات.

وكان ممّا أراد النبيّ ﷺ تثبيته وتغييره النظرة الجاهلية إلى القبيلة والانتماء، فجعل الأصل هو الانتماء إلى الإسلام، حتّى قال: «سلمان منا أهل البيت»، وقال: «آل محمّد كلّ تقيّ»، وجعل الولاء للأمّة والانتساب إليها مقدّماً على كلّ انتساب إلى ما سواها، فجعل الانتساب إلى الإسلام معياراً للقرب منه، وجعل التعيير بالأم نوعاً من الجاهلية، وجعل التنابز والتفاخر بالقبائل من دعوى الجاهلية حين خرج غاضباً إلى الأوس والخزرج. إنّ تغيير مفهوم القرابة على أهميتها وتصحيح مفهوم «آل البيت» مهمّ جدًا في التعامل المستقبليّ بين أبناء هذه الأمة، خاصة في قضايا الحكم والولاية على الأمة، ولذلك فقد حرص ﷺ على وضعه في موضعه الصحيح وتصحيح المفهوم حوله.



إنّ هذه المنهجية في الحثّ على التفكير والتأمّل والبحث عن الجواب أساسية في تطوير الفهم، والحثّ على إعمال العقل للبحث عن الجواب، ووضع الاحتمالات الممكنة والمتوقّعة لجواب مثل هذه الأسئلة والاستفسارات، وهذا ما يزيد العقل تفتّحًا والذهن إدراكًا، ولا ريب أنّ عقول الصحابة رضي الله عنهم استوعبت الدرس وفهمت المراد، فوصلت إلى مراد النبيّ ﷺ، وقامت بما يجب عليها من التفكير والتأمّل.

أجوبة غير متوقّعه



لقد كان من منهج النبيّ ﷺ أن يغيّر المفاهيم في أذهان الصحابة، وأن يستعمل المصطلحات في غير ما تعوّدوا عليه، ولذلك كان يجيبهم أجوبة غير متوقّعة، ومن أمثلة ذلك تعريف المفلس الذي كان الناس يتوهّمون أنّه تعريف ماديّ فحسب «لا درهم له ولا متاع» لكنّه علّمهم أنّه متعلّق بالآخرة لا بالدنيا، وبالحسنات والسيئات لا بالماديات، فمن يأتي يوم القيامة . ومن ذلك أيضًا تعريف البخيل الذي كانوا يتوقعون أنه من يمسك المال عن غيره، فتبيّن أنّه من يمسك الحسنات عن نفسه، ومن يترك فعل القليل مع أنه ينال به الجزاء الجزيل والثواب المضاعف، ومن ذلك مفهومهم عن القويّ الصرعة، فقد كانوا يظنون أنه الذي يصرع الناس ويوقعهم أرضًا فلا يغلبه أحد فتبين أنه الذي يملك نفسه عند الغضب، فهذا هو الصرعة الحقيقيّ في نظر النبيّ ﷺ.

إنّ منهجيّة النبيّ ﷺ مستقاة من منهجية الوحي الإلهيّ الذي عمل على تغيير طرق التفكير وتغيير وسائل العلم ورفع قيمة العلماء وتغيير نظرة الناس إلى القرطاس والقلم والكتاب والورق، حتّى رفع الله عزّ وجلّ قدر الذين أوتوا العلم وإن لم يكونوا من المسلمين، وأعلى شأنهم فوق غير العالمين، وجعل لهم خصوصية ورفعة ومكانة فوق مكانة الناس من غيرهم، وهذا الذي سار عليه النبيّ ﷺ في حياته كلّها.



إنّ هذه المنهجيّة في تطوير التفكير وتغيير الأفكار هي التي سمحت لعلماء المسلمين أن يفكروا خارج الصندوق فيغيّروا وجه العالم وواجهته الحضارية، ويصلحوا أحوال الناس وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، ويفكّروا في حلول لمشاكلهم الحياتية والمعاشية.

وإذا نظرنا بتجرّد وإنصاف إلى العالم قبل مبعث النبيّ ﷺ بألف سنة مثلاً سنجد أنّ طرق المعاش لم تتطور في ألف سنة إلا تطوّراً يسيراً جداً، فقد بقي الناس كما كانوا قبل ألف سنة يجدون طعامهم ويزرعونه ويصيدونه، ويتنقّلون على الدوابّ بنفس الآليات والوسائل، ويشعلون النيران ويستخدمون أدوات الطهي بالوسائل عينها، ويصنعون ملابسهم وأثاثهم وأخشابهم وحديدهم بالطرق نفسها كما كانت قبل ألف سنة من البعثة النبوية المباركة، وإذا نظرنا إلى بعد البعثة بألف سنة سنجد أنّ كلّ وسائل الحياة وأساليبها وكثيرًا من أوضاعها قد تغيرت فأساليب البناء وأسس الحياة السياسية والإدارية وأدوات المعاش والصناعات كلّها قد تطورّت تطوّرًا كبيراً، والناظر في بناء القصور في حمراء الأندلس أو مساجد الأمويين في الشام أو العثمانيين في القسطنطينية أو غيرهما يدرك إبداع العقل المسلم و براعة التفكير وتطوير المنهجية في التعاطي مع التحديات،

وكلّ ذلك ثمرة من ثمار منهج النبيّ ﷺ في تعليم الجيل الأوّل من المسلمين التفكير الحرّ الإبداعيّ، وتعليمهم التفكير «خارج الصندوق»، وإرشادهم إلى أهميّة التطوير والإبداع والاختراع، ودلالتهم على أسباب التفوق والنهوض والحضارة، وتحفيزهم على نفع «الناس» كل الناس، فخير الناس في نظرهم أنفعهم للناس كل الناس.

فكما اجتهد أهل العصور الأولى في الإبداع في اختراع العلوم الشرعية تبارى من جاء بعدهم في إبداع الاختراعات النافعة للناس، فاستحدث أهل القرون الأولى علم الفقه والأصول والرواية والرجال والجرح والتعديل، وبنوا علوم العربية والتفسير، وترجموا ما لم يجدوا له أصولاً مباشرة في الكتاب والسنة من العلوم كعلم المنطق والفلسفة ونحوهما، ثمّ اجتهد من جاء بعدهم في علم الطبّ والهندسة والفلك والرياضة وغيرها، وكلّ ذلك أثرٌ من آثار تغيير الفكر وتطوير المنهجية والإبداع في العرض.

وكلّ ما تنعم به البشرية اليوم من خير فأصل نسبته إلى من جعل الناس يغيرون تفكيرهم ويطورون أعمالهم ومخترعاتهم، ولم يقيدهم بشيء من الأوليات التي تمنع تفكيرهم أو تحدّ من حريّتهم الفكريّة والإبداعيّة، حتّى بقي الملحد والفيلسوف كما بقي الخارجي والمعتزليّ آمناً على أفكاره في المجتمع المسلم الحرّ، ما لم يؤثر في بنية المجتمع أو يخرج على ثوابته الأصلية، وما أحرانا اليوم أن نعيد سيرة الإبداع فينا، وأن نجدد نفع العالم منّا، فنخترع للعالم ما يفيده ولا يضرّه، ولا تغزنّا مخترعات الحضارة الموهومة في الغرب التي تُبنى على أسس استغلال الإنسان والمادية المحضة وإنكار الله والدار الآخرة، والعداء للإنسان، فنقدم للعالم نموذجاً من مخترعات تفيده ولا تفسد تفكيره، وتنفعه وتخفف عنه دون أن تغير عقيدته، وتحسّن ظروف حياته دون أن تقهره.

إن الإسلام هو الذي يمكن أن يقدّم النموذج التي تعيش الأمم كلّ الأمم في ظلّه آمنةً على أفكارها، مبدعةً في أسباب معاشها، ينفع فيه الناس بعضهم ولا يكون همهم أن ينتفعوا من بعضهم، ويتسابق الناس فيه في اختراع ما يقدّم للبشرية كلها الخير والرشاد.



لأن قائدهم محمد ﷺ
فقد كانوا أعظم القادة



بادية شكاط

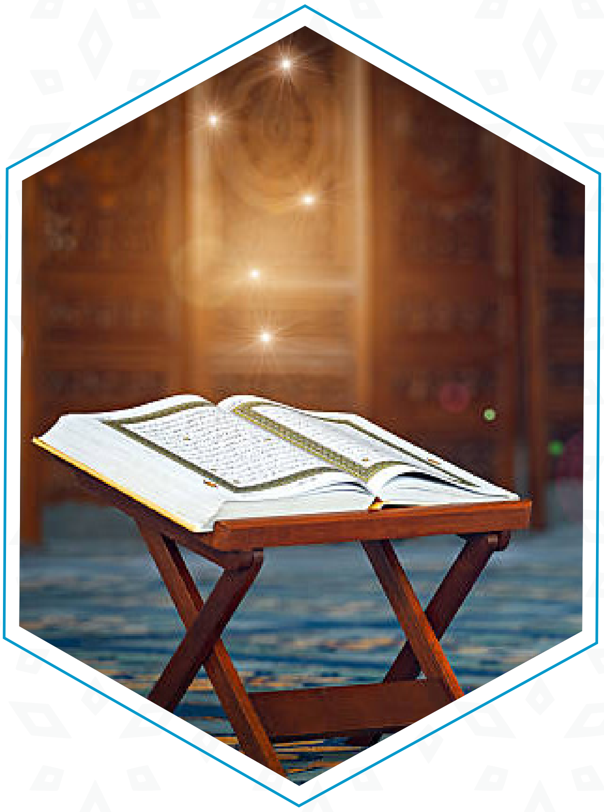
كاتبة من الجزائر

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف خلق الله، سيدنا وحبيبنا محمد، وبعد:

إننا حين لم نشتغل لأجل الإسلام، بل انشغلنا عن الإسلام، واعتقدنا أن الاكتفاء بإصلاح النفس ثم إصلاح دنيانا هو غاية ديننا.. أصبحنا مجرد غثاء أمام من قلوبهم من ديننا هواء، ولم يعد رسولنا وقدوتنا ﷺ فينا، ولم يعد منهجه في حياتنا يعنينا..

وإن عصَفت بعض العواطف غضباً للإساءة إليه هنا وهناك، فإنها سرعان ما تهدأ ويعود المسلمون يتنافسون الدنيا كأنفس مايبتغون، وليتَهم كانوا على الأرض سادة، بل هم المبعدون في القارات الخمس عن كل قيادة.

قال تبارك وتعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].



فأن نبحث عن مسارات للتمكين دون قائد بصير، أتى بإشعاع كتاب الله المنير الذي لا ينطفئ سناه في القلوب ما تقلب الليل والنهار في الدروب، لهو التيه الذي لن يسع صاحبه أي مكان، وإن وسعه في ذلك الزمان.

فمحمد ﷺ قد ربى رجالاً يعرفون موضع الأقدام لحظة الإقدام، لايغشيهم النعاس في ساعة اليقظة، ولا يؤثرون القعود بينما غيرهم في صعود، فالثورة على كل جبار عنيد هي نهجهم الرشيد.

فليست القيادة بتطاول الأعناق على المنابر والتشدق بحب رسول الله ﷺ، ثم لا تأخذنا الحمية ونحن نرى اعوجاج المفسدين، وإذلال المستضعفين، وإهانة مقدسات هذا الدين.

إن القائد الذي جعل محمداً ﷺ له مثيلاً ونورَه في نهجه دليلاً، هو ذاك الذي لا يحيد عن الحق وإن حاد الحق عنه، فيرتضي أن يكون أمام صاحبه مغلوبًا على أن يكون حق غيره مسلوبًا، فيغرس في نفوس أتباعه ما غرسه محمد ﷺ فيه، غير جاهل بأن ثمار النفس إذا استقامت لكل خير أقامت.



جاء في حديث سفيانَ بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رَسُولَ الله قُلْ لي في الْإِسلامِ قَوْلاً لَا أَسْأَلُ عنه أَحَدًا بعدك -وفي رواية: غَيْرَكَ- قال: «قُل آمنتُ بالله ثم استقِم»[1].

فمن عرف محمداً ﷺ فقد عرف عن الله، ومن عرف عن الله أصبح لا يعرف إلا الله في خطراته، وفي حركاته مع سكناته، فلا تراه إلا ينأى بروحه عن الغايات الدنيئة الأرضية،مستغرقاً في أشواقه السماوية، فتراه لاينطق إلا صدقاً، ولا يفعل إلا حقاً، يبصر ميزانه في حياته قبل مماته.

يقول الفيلسوف الصيني هواي نان: «عندما يستحق القادة الاحترام، فإن الناس سيرغبون في العمل معهم، وعندما تستحق فضائلهم الإعجاب يمكن أن ترسخ سلطتهم».

---

١ رواه مسلم.

أثر التربية المحمدية



لهذا فهو ﷺ لم يكن قائداً عادياً، حين كان كرابعة شمس في سماها والكواكب تلتف حولها، فكان من أثر تربيته المحمدية ما انعكس على أصحابه ﷺ، فهم أصحاب الشأن الأعلى والقِدح المُعلَّى، فما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه بعد وفاة رسول الله ﷺ أمر بإنفاذ جيش أسامة الذي عقد لواءه رسولُ الله ﷺ في آخر حياته، وأمره أن يتجه إلى الشام لحرب الروم، فيأتيه الصحابة يراجعونه في ذلك لما رأوا ردة العرب، فيجيب أبو بكر بحزم وثبات:

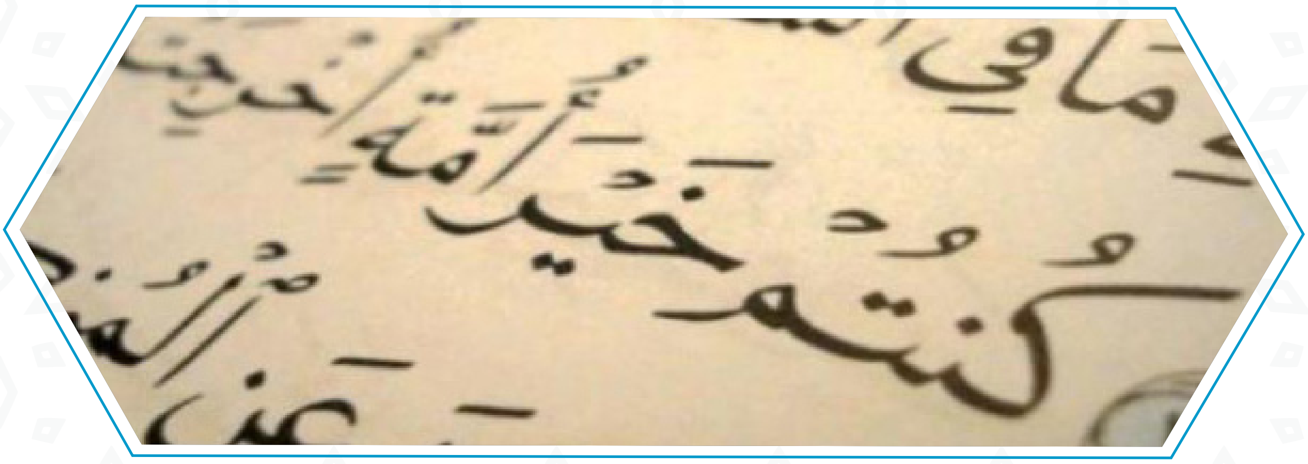
والله! لو علمتُ أن السباع تجرّ برجلي إنه لم أردّه ما رددته، ولا حللت لواءً عقده رسول الله ﷺ.

ويأتيه عمر رضي الله عنه ويقول عن الأنصار: أمروني أن أبلغك لو وليتَ أمر الجيش مَن هو أقدم سنًا من أسامة؟ فوثب أبو بكر وكان جالسًا وأخذ بلحية عمر وقال: «ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه»؟!

وأمر بالجيش فجُمع، وأوصاهم بوصاياه العظيمة في الحرب، ويركب أسامة فرسه وأبو بكر رضي الله عنه تحت عنقها يمشي معه يودعه ويوصيه، فقال له أسامة: «يا خليفة رسول الله! والله لتركبن أو لأنزلن». قال: «والله لا تنزل، ووالله لا أركب، وما عليّ أن أغبّر قدمي في سبيل الله ساعة».

ومثل هذا حرب المرتدين يوم أن فرقوا بين الصلاة والزكاة، والصحابة يراجعون أبا بكر، وعمر يأتيه ويقول: علام نقاتلهم؟! دعهم ما أقاموا الصلاة. وأبو بكر يرفض ويجأر بأعلى صوته: «لأقاتلنّ من فرّق بين الزكاة والصلاة، ولو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه»».

ومضى جيش المسلمين لحرب المرتدين كما أراد أبو بكر، ويعود مظفراً منصوراً، فما كان من عمر بعدها إلا أن قبّل رأس أبي بكر وقال: «وجدتك والله أحسم مني وأمضى»».



ورُوي في السيَر أيضًا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنت أفتقد أبا بكر أيام خلافته ما بين فترة وأخرى، فلحقته يومًا فإذا هو بظاهر المدينة، قد خرج متسللاً، فأدركته وقد دخل بيتًا حقيرًا في ضواحي المدينة، فمكث هناك مدة، ثم خرج وعاد إلى المدينة،فقلت: لأدخلن هذا البيت، فدخلت فإذا امرأة عجوز عمياء وحولها صبية صغار،فقلت: يرحمك الله يا أمة الله من هذا الرجل الذي خرج منكم الآن؟ قالت: إنه ليتردّد علينا، ووالله إني لا أعرفه، فقلت: فما يفعل؟ فقالت: إنه يأتي إلينا فيكنس دارنا، ويطبخ عشاءنا،وينظف قدورنا، ويجلب لنا الماء، ثم يذهب، فبكى عمر حينذاك وقال: الله أكبر والله لقد أتعبتَ من بعدك يا أبا بكر.

إن عظمتهم كانت من عظيم همهم بهذه الأمة، يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لبعض جلسائه: تمنوا، فتمنى كل واحد أمنية، أما عمر لم يتمن لنفسه ولا لشخصه، بل تمنى لله ولنفع هذه الأمة، فقال عمر: لكني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً أمثال أبي عبيدة بن الجراح. فالأمة تفوز وتنتصر بوجود مثل أبي عبيدة بن الجراح، وما كان ذاك إلا لما سمعه من النبي ﷺ حين قال: «أمين هذه الأمة هو عبيدة بن الجراح».

ومن مواقف الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضاً حين كان أميراً للمؤمنين، موقفه مع الهرمزان أحد قادة الفرس، فحين رأى الهرمزان عمر بن الخطاب نائمًا بالمسجد متوسدًا درته قال: عدلت فأمنت فنمت، والله إني قد خدمت أربعة من ملوك الأكاسرة أصحاب التيجان، فما هبت أحدًا منهم هيبتي لصاحب هذه الدِرة.



وكان ذلك حين فتح المسلمون «تستر» فبعثوا بالهرمزان إلى عمر بالمدينة لأنه نزل على حكمه،فلما وصلوا إلى بيته لم يجدوه فيه فسألوا عنه فقيل لهم: إنه ذهب إلى المسجد، فجاؤوا إلى المسجد فلم يجدوا فيه أحدًا، فرجعوا فإذا بأولاد يلعبون فقال لهم الأولاد: ماذا تريدون؟ قالوا: نريد عمر، قالوا لهم: هو في المسجد نائم. فرجعوا إلى المسجد فوجدوه نائمًا متوسدًا برنسًا له ودِرته مُعلقة في يده، فقال الهرمزان: أين عمر؟

فقالوا: هو ذا النائم، وجعلوا يخفضون أصواتهم لئلا ينبهوه، وجعل الهرمزان يقول: وأين حُجّابه؟ وأين حرّاسه؟ فقالوا: ليس له حُجاب ولا حُراس ولا كُتّاب ولا ديوان، فقال: ينبغي أن يكون نبياً، فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء.



ويروَى أنه لما ولي عمر الخلافة، تفرق الرجال وتركوا مجالسهم في الشوارع هيبة منه، فلما وصله ذلك نادى بالصلاة جماعة، ثم صعد منبر رسول الله ﷺ وجلس عند قدمي أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: بلغني أن الناس خافوا شدتي وهابوا غلظتي، وقالوا: لقد اشتد عمر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، واشتد علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟! ألا فاعلموا أيها الناس أن هذه الشدة قد تضاعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين،أما أهل السلامة والدين والقصد، فأنا ألين إليهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحدًا يظلم أحدًا أو يعتدى عليه، حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على خده الآخر حتى يذعن للحق، وإني بعد شدتي تلك لأضع خدي أنا على الأرض لأهل الكفاف وأهل العفاف.

وأيضًا من أعظم مواقفه رضي الله عنه موقفه من الهدية التي أهداها له عامله بأذربيجان عتبة بن فرقد من الحلوى والفالوذج، فسأل عمر الرسول الذي جاء بها: أَوَكلّ الناس هناك يأكلون هذا؟ فيجيبه الرجل قائلاً: كلاَّ يا أمير المؤمنين إنَّها طعام الخاصة. فيَخْتَلِجُ عمر ويقول للرجل: احمل هديتك وارجع بها إلى صاحبها، وقل له: اتَّقِ الله،وأشبع المسلمين مما تشبع منه.

وأما عن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه فهو الذي قال في خطبته حين ولي خليفة للمسلمين: فإني كُلفت وقد قبلت، ألا وإني متبع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليَّ بعد كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ثلاثاً:

اتّباع مَن كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسن أهل الخير فيما تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم العقوبة.

وقد كان رضي الله عنه لينًا على رعيته، عطوفًا على أمته، يخاف أن يصاب أحد دون علمه، فلا يتمكن من تلبية حاجته، وكان يتتبع أخبار الرعية، فيأخذ الحق من قويهم لينصف ضعيفهم.

ومن اتصافه بالحنو والرحمة ما روى عنه عبدالله الرومي فقال: كان عثمان بن عفان يأخذ وَضوءه لنفسه إذا قام من الليل، فقيل له: لو أمرت الخادم كفاك، قال: لا، الليل لهم يستريحون فيه.

فهو مع كبر سنه وعلو منزلته يخدم نفسه في الليل ولا يوقظ الخدم.

وقد ذكر أيضاً في تواضعه وزهده أنه شوهد على بغلة وخلفه غلامه نائل، وهو خليفة.

كما أنه رضي الله عنه كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل إلى بيته فيأكل الخل والزيت.

وأما رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فيمكن إجمال جميع ركائز القيادة المحمدية من خلال كتابه الذي أرسله إلى الأشتر النخعي، عندما وَلاَّه على مصر وأعمالها عام ٦٥٦ للميلاد، حيث جاء فيه:

١. الحب والرحمة: «وأشعر قلبَك الرحمةَ للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم».



٢. الابتعاد عن المحاباة: «أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك، أو من خاصة أهلك، ومَن لك فيه هوىً من رعيتك، فإنَّك إلَّا تفعل تظلم، ومَن ظلم عبادَ الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحضَ حجته، وكان لله حَرْبًا حتى ينزع أو يتوب».

٣. إرضاء الجماعة: «وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإنَّ سخطَ العامة يجحف برضا الخاصَّة، وإنَّ سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة».



٤. اصطفاء المستشارين: «ولا تدخلن في مَشورتك بَخيلاً يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، ولا جبانًا يضعفك عن الأمور، ولا حَريصًا يُزيّن لك الشر بالجور، فإنَّ البخلَ والجبنَ والحرصَ غرائز شتَّى، جمعها سوء الظن بالله».

٥. توفير الحوافز: «ولا يكن المحسنُ والمسيء عندَك بمنزلة سواء، فإنَّ في ذلك تزهيدًا لأهل الإحسان في الإحسان، تدريبًا لأهلِ الإساءة على الإساءة، وألزم كلاًّ منهم ما ألزم نفسه».

٦. توظيف ذوي الكفاية: «ثُمَّ انظر في أمور عمالك، فاستعملهم اختيارًا، ولا تولّهم محاباة وأثرةً، فإنَّهما جماع من شُعَبِ الجور والخيانة، وتَوَخَّ منهم أهلَ التجربة والحياء من أهل البيوتات الصَّالحة، والقدم في الإسلام فإنَّهم أكرمُ أخلاقًا، وأصحُّ أغراضًا، وأقل في المطامع إشرافًا، وأبلغ في عواقب الأمور نظرًا».

٧. الرقابة والمساءلة: «تفقد أعمالَهم، وابعث العيونَ من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإنَّ تعاهُدَك في السرِّ لأمورهم حدوةٌ لهم على استعمال الأمانة والرِّفق بالرَّعيَّة، وتحفظ من الأعوان، فإنْ أحد منهم بَسَط يدَه إلى خيانة اجتمعتْ بها عليه عندك أخبارُ عيونك، اكتفيتَ بذلك شاهدًا، فبسطتَ عليه العقوبة في بدنه، وأخذتَه بما أصاب من عمله، ثم نصبتَه بمقام المذلة، ووسمتَه بالخيانة، وقلَّدتَه عارَ التهمة».

٨. سياسة الأجور: «ثُمَّ أسبغْ عليهم الأرزاقَ؛ فإنَّ ذلك قوةً لهم على استصلاح أنفسهم،وغنًى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرَك، أو ثلموا أمانتك».

٩. الاتصال بالرعية: «لا تطولن احتجابك عن رعيتك، فإنَّ احتجابَ الوُلاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علمَ ما احتجبوا دونه،فيصغر عندهم الكبير، ويعظُم الصغير، ويقَبح الحسن، ويَحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل».



١٠. تقدير الأمور: «وإياك والعجلةَ بالأمور قبل أوانها، أو التساقُط فيها عند إمكانها، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت، أو الوَهن عنها إذا استوضحت، فضَعْ كلَّ أمرٍ موضعه، وأوقعْ كلَّ عمل موقعه».

وقد ذكر السياسي الأمريكي المعاصر ميشال هميلتون هذه الرسالة في كتاب له موجود في الكونغرس الأمريكي بواشنطن، وأبدى إعجابه

الفائق بالسياسة الحكيمة لخليفة المسلمين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعدّ ذلك انعكاساً لسلوكيات الخليفة الحميدة وفضائل أخلاقه التي أهّلته لدخول تاريخ الإنسانية من أبوابه العريضة.

كما اعتمدت الرسالة في الأمم المتحدة كونها من أوائل الرسائل الحقوقية التي حددت الحقوق والواجبات بين الدولة والشعب، وقد صرح الأمين العام للأمم المتحدة بأن عبارة: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبّة لهم، واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سَبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنّهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدين، وإمّا نظير لك في الخلق». المذكورة في رسالة الخليفة علي رضي الله عنه ينبغي أن تعلّق على كلّ المؤسسات الحقوقية في العالم.

وهي نفسها العبارة التي جعلت (كوفي عنان) ينادي بأن تدرس الأجهزة الحقوقية والقانونية رسالة الإمام لمالك الأشتر، وترشيحه لكي يكون أحد مصادر التشريع للقانون الدولي، وبعد مداولات استمرّت لمدّة سنتين في الأمم المتحدة صوّتت غالبية دول العالم على كون ما ورد في رسالة علي بن أبي طالب لمالك الأشتر سيكون أحد مصادر التشريع للقانون الدولي.



ولأنهم جعلوا هديه ﷺ سراجًا للاهتداء، فبهم ينبغي الاقتداء، ولن يصلح أمر أمتنا إلا بأمثالهم، فهم الرجال الذين صدقوا الله فصدقهم، وجعلوا حياتهم فتحاً عظيماً للإسلام والمسلمين، وهم الذين لم يزدهم التمكين إلا عزة لهذا الدين.



الحقيقة بين
المعرفة والعلم والوهم



جلال الشميري
كاتب يمني

العلم والمعرفة

العلم في الاستخدام القرآني لفظ يدل على الإحاطة والتفصيل في الأمر المعلوم، لذلك طلب الله ممن يحرمون أصنافاً من الأنعام بالتفصيل عن علم: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وطالب المشركين بدليل علمي على منهجهم وعلى عبادتهم لغيره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

وربط الله بين العلم والعقل في قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. حيث إن الإعقال عملية تستلزم عرضاً ومقارنةً وتحليلاً تؤدي إلى استنتاج، فالعلم -إذن- منهجية وليس مجرد ادعاء.

أما المعرفة فهي إحاطة إجمالية غير تفصيلية، قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٦]. فسبحانه لم يطلع المؤمنين على نعيم الجنة تفصيلاً بل ذكر لهم بعض نعيمها، وأجملَ نعماءها إجمالاً في مثل قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

ومن المعرفة الفِراسة، أي التعرف بالسمات والأوصاف، قال عز وجل: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].



لذلك فالله عز وجل وصف نفسه بالعلم لا بالمعرفة:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [التغابن: ١٨].

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وأهل الظاهر كالفقهاء في العلوم الشرعية والفيزيائيين في العلوم الطبيعية يسمون بالعلماء لأن معلوماتهم مكتسبة عن بحث وفحص وتجريب، فهو علم منهجي دقيق ينتج عنه الإحاطة التفصيلية، ولا يسمى العلم علماً إلا إذا كان قابلاً للملاحظة والتجريب والفحص.



أما أهل الباطن كالمتصوفة والفلاسفة يسمون بالعارفين لأن معرفتهم غير قابلة للفحص والتجريب، فهي نتاج تأملات فكرية أو تجارب روحية شخصية، وبالتالي فهي غير قابلة للتقليد والاتباع.

لذلك فالمعرفة هي أقل رسوخاً من العلم من حيث ثبات المعلومة، والعالم أرسخ من العارف لذلك، قال تعالى:

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

وهذا لا يجعل -لزامًا- العالم أوسع علمًا من العارف، فقد تكون أبواب مدركات العارف هائلة جداً ولكنها مجملة، بينما أبواب مدركات العالم قليلة ولكنها مفصلة.



وقد يجمع الإنسان بين العلم والمعرفة، وهو الشأن الأرقى والمطلوب ليقترب الإنسان من الكمال.

علم اليقين

المقصود باليقين حقيقة الأمر كما هي، وقد ذكر الله سبحانه في كتابه ثلاث مراتب لليقين: علم اليقين – عين اليقين – حق اليقين.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٥- ٨].

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٦].

ونلاحظ أنها كلها مرتبطة بالحواس كالمشاهدة العينية، فالكافر المنكر للجحيم في الدنيا يراها في الآخرة بعينيه ويحس عذابها على جلده.

فاليقين هو ما يمكن إدراكه والتأكد منه بالحواس الخمس، فمثلاً وجود الشمس أمر يقيني لا يحتاج إلا جدال، وكذا وجود الخالق فإن كل ما في الوجود يدل عليه.

وقد وضع الله تعالى علم اليقين في كتابه المسطور (القرآن الكريم) وفي كتابه المنظور (الكون العظيم)، وجعل آلية استخراجه من القرآن بكيفية التدبر والتلاوة التي بمعنى الاتباع وتنفيذ التعاليم، فقال تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، يتلونه هنا بمعنى يتبعونه لا مجرد القراءة والترديد.

أما منهجية استخراج علم اليقين من الكون فقد لخصتها الآيات التالية والتي مثلها في القرآن كثير:

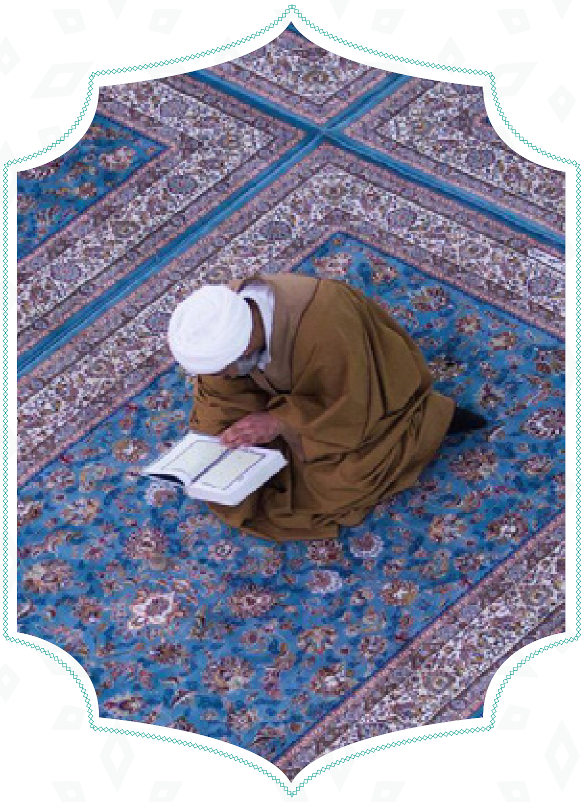
- **الملاحظة، أي الشعور بوجود أمر ينبغي البحث فيه**، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].



- **الشك، أو وضع الفرضيات**، وهو أهم جزء في البحث عن الحق أو ما نسميه حديثا بالبحث العلمي، ونجد ذلك في كتاب الله من مواقف ثلاثة من الأعلام، أولهم أبونا إبراهيم عليه السلام، الذي كان يبحث عن يقين المشاهدة (العلم الحسي) والذي دخل له من باب الشك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ

﴿تُحيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

ومثله سيدنا موسى عليه السلام، الذي قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].



ذلك اليقين هو ما وصل إليه عزير عليه السلام بعد أن تساءل عن قدرة الله فأراه الله تلك القدرة بدليل حسي منظور: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وعلى هذا المنهج أمر الله نبيه عند مناظرته للمشركين بأن لا يلج فيها وهو ينسب الحق المطلق إليه، بل يبقي نسبة من الشك في مسلماته، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وهذا هو المنهج الحق عند المناظرة، حيث الواجب على الطرفين طرح الأدلة ثم النقاش فيها للوصول إلى الحق، فإن رجحت حجة أحدهما فعلى الآخر القبول بها، أما أن يدخل الطرفان في المناظرة وكل واحد

منهما يعتبر رأيه الحق المطلق ورأي صاحبه الباطل المطلق، فهذا مراء لا مناظرة.



- التفكر والتحليل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

- البحث والتقصي: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

- التحقق بالتجريب: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤].

هذه المنهجية هي ذاتها منهجية البحث العلمي الحديث، فالقرآن الكريم سبق أرباب العلوم الحديثة في وضع المنهجية العلمية، وفي زمن لم يعرف الناس لهذه المنهجية عرفا، فالحقيقة المطلقة هي ما عند كهنتهم ورهبانهم وكبرائهم.

وفي ذلك الزمان منح الله سبحانه لقب (العلم) لكل من يطلبه من الكتابين (القرآن والكون) باتباع آليتهما، فقال عز وجل عن أهل العلم بالكتاب المقروء (القرءان):

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].



وقال عن أهل الكتاب المنظور (الكون): ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

إن الله يتحدث في هذه الآية عن الأمطار وأنواع الثمار والجبال والناس والأنعام، والعلماء بهذا كله هم المختصون بعلم الجيولوجيا (علم الأرض) والبيولوجيا (علم الأحياء) فعلى ذلك فهم أكثر الناس معرفة بالله من ناحية معرفتهم بالخلق، فلكما نظرت إلى الخلق وتفكرت فيه تعرفت على الخالق سبحانه، لذا فهم أشد الناس خشية له عز وجل بشرط كونهم مؤمنين به.

ويجب أن يخالط هذا البحث الإخلاص والاجتهاد والصبر على الابتلاءات وأن تكون غايته معرفة الله ومنفعة الخلق، ثم التمحيص الدائم للتأكد من البقاء على الغاية وثبات الإخلاص، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

العلم والوهم

إن الله سبحانه أمرنا أن لا نتبع إلا ما نعلمه ونذر ما نجهله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

بل طلب منا أن نحقق حتى من ألوهيته بالبحث والتقصي، فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فالعلم في الاصطلاح القرآني يساوي اليقين.. وعندما يطلب منا ذلك فهو يحثنا على أن نرحل إلى اليقين الذي مسلكه الشك، وراحلته العقل، وزاده التقوى، والتصور والتبصر والتفكر والتدبر لوحاته الإرشادية.

ثم أمرنا باجتناب الظن، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، والظن هو مقابل العلم.. إنه الوهم.



ثم صرح لنا بأن أكثر الناس يتبعون الوهم ويتركون العلم: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

وإن تساءلت: ما الذي يدفعهم لهذا الخطأ العظيم؟

الجواب: إنه منهج معوج اسمه (اتباع القطيع) فالإنسان يرتاح نفسياً أن يكون على خطأ مع الجماعة، على أن يكون على صواب منفرداً.

ولكن هذا المنهج -وإن كان من الخطأ تسميته بالمنهج- لا يقبله الله عزّ وجلّ وينهانا عنه في قوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فإن تتبعت مفردة (أكثر الناس) أو (أكثرهم) في القرآن لوجدتها تتعلق بوصف مذموم، مثل: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢] لتستنتج أن الحقيقة في الغالب ليست مع الكثرة.

فمثلاً لو سألت أغلبية الناس عن سبب وقوع الكوارث الطبيعية كالزلازل والبراكين؛ لقالوا: إن سببها كثرة المعاصي وانتشار الفواحش، بينما لو سألت أهل التخصص أي علماء الجيولوجيا؛ لأجابونا بشرح ظاهرة احتكاك صفائح الأرض ببعضها المسببة لهذه الزلازل، وكذا عن الضغط المهول الموجود في باطن الأرض الذي يكون متنفسه في البراكين، وأن هذه الزلازل والبراكين أمر طبيعي من ضمن قوانين الكون المحكمة الممكن التنبؤ بها وقياسها وتحديد مكانها وزمانها.

فإجابة الناس وهم.. لأنها تدخل في إرادة الله وتعليل لفعله بغير دليل ولا برهان، أما الإجابة الثانية فهي العلم لأنها شرح لقوانين الله الدقيقة التي وضعها سبحانه في الكون.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

وكان الناس قديماً يعتقدون أن وحشاً يبتلع القمر والشمس في ظاهرتي الخسوف والكسوف، حتى صحابة نبينا صلوات الله عليه ورضوان الله عنهم قالوا بأن الشمس كسفت لموت إبراهيم ابن نبينا ﷺ، لما وافق كسوفها يوم موته عليه السلام.

ولكن رسول الله ﷺ انبرى ليبين أنه ما قالوه مجرد وهم، صادحًا بالحقيقة: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس، فإذا رأيتم منها شيئاً فصلّوا وادعوا الله حتى يكشف ما بكم»[1].

مع أنه كان قادراً على استثمار هذ الموقف لتعزيز سلطته الروحية، كما يفعل الكثير من الكذابين والمخادعين اللاعبين بعقول سذج الناس، ولكنه ﷺ نبي الحق والحقيقة لا الباطل والأوهام.

إذن.. فالعلم هو ما يكون نتاج الأدلة الحسية القابلة للقياس والفحص والتجريب وإعمال العقل والفكر فيها.



أما الوهم.. فهو ما لا يبنى على دليل، إنه الظنون والآراء الفارغة والتفسيرات الجوفاء وأحاديث النفس وخيالات اللاوعي.

فإذا كان العلم هو مراد الله فينا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

فالوهم هو مراد الشيطان بلا شك: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

١ مسلم، ٢١٥٣.

المقاطعة «٣/٣»

تكييفات شرعية وتطبيقات نبوية وواقعية



د. عبد السلام البسيوني
عضو الأمانة العامة بالهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

لماذا المقاطعة؟

دوليًّا، ورد في المادة ٤١ بالفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة: عما يتخذ من الأعمال في حالات تهديد السلم والإخلال به ووقوع العدوان:



لمجلس الأمن أن يقرر ما يجب اتخاذه من التدابير، التي لا تتطلب استخدام القوات المسلحة لتنفيذ قراراته، وله أن يطلب إلى أعضاء «الأمم المتحدة» تطبيق هذه التدابير، ويجوز أن يكون من بينها وقف الصلات الاقتصادية والمواصلات الحديدية والبحرية والجوية والبريدية والبرقية واللاسلكية وغيرها من وسائل المواصلات، وقفاً جزئيًّا أو كليًّا، وقطع العلاقات الدبلوماسية.



وفي المادة: المادة ٤٢: إذا رأى مجلس الأمن أن التدابير المنصوص عليها في المادة ٤١ لا تفي بالغرض، أو ثبت أنها لم تفِ به، جاز له أن يتخذ بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدولي أو لإعادته إلى نصابه. ويجوز أن تتناول هذه الأعمال: المظاهرات، والحصار، والعمليات الأخرى، بطريق القوات الجوية أو البحرية أو البرية التابعة لأعضاء الأمم المتحدة!

وقد اتفق جُل الفقهاء المعتبرين من المعاصرين على وجوب الأخذ بسلاح المقاطعة؛ باعتبارها وسيلة من وسائل الجهاد والمقاومة، وأكتفي هنا برأي العلامة القرضاوي رائد التأصيل لهذا المجال في مقاله (مقاطعة البضائع الإسرائيلية والأمريكية):

مما ثبت بالكتاب والسُنة وإجماع الأمة، أن الجهاد لتحرير أرض الإسلام ممن يغزوها ويحتلها من أعداء الإسلام واجب محتم وفريضة مقدسة على أهل البلاد المغزوة أولًا، ثم على المسلمين من حولهم؛ إذا عجزوا عن مقاومتهم، حتى يشمل المسلمين كافة!



فكيف إذا كانت هذه الأرض الإسلامية المغزوة هي القبلة الأولى للمسلمين، وأرض الإسراء والمعراج، وبلد المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله؟

وكيف إذا كان غزاتها هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا؟

وكيف إذا كانت تساندها أقوى دول الأرض اليوم، وهي الولايات المتحدة الأمريكية، كما يساندها اليهود في أنحاء العالم؟

إن الجهاد اليوم لهؤلاء الذين اغتصبوا أرضنا المقدسة، وشردوا أهلها من ديارهم، وسفكوا الدماء، وانتهكوا الحرمات، ودمروا البيوت، وأحرقوا المزارع، وعاثوا في الأرض فسادًا، هذا الجهاد هو فريضة الفرائض، وأول الواجبات على الأمة المسلمة في المشرق والمغرب. فالمسلمون يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وهم أمة واحدة، جمعتهم وحدة العقيدة، ووحدة الشريعة، ووحدة القبلة، ووحدة الآلام والآمال. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٩٢]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وفي الحديث الشريف: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله»[1].

---

١ رواه مسلم.

وها نحن نرى اليوم إخواننا وأبناءنا في القدس الشريف، وفي أرض فلسطين المباركة، يبذلون الدماء بسخاء، ويقدمون الأرواح بأنفُس طيبة، ولا يبالون بما أصابهم في سبيل الله. فعلينا، نحن المسلمين في كل مكان، أن نعاونهم بما نستطيع من قوة ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال ٧٢]، ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

ومن وسائل هذه المعاونة، مقاطعة بضائع العدو مقاطعة تامة، فإن كل ريال أو درهم أو قرش أو فلس، نشتري به سلعهم يتحول في النهاية إلى رصاصة تطلق في صدور إخواننا وأبنائنا في فلسطين.

لهذا واجب علينا ألا نعينهم على إخواننا بشراء بضائعهم، لأنها إعانة على الإثم والعدوان. فالشراء منهم يقويهم، وواجبنا أن نعمل على إضعافهم ما استطعنا، كما علينا أن نقوي إخواننا المرابطين في الأرض المقدسة ما استطعنا، فإن لم نستطع أن نقويهم، فالواجب علينا إضعاف عدوهم. فإذا كان إضعافهم لا يتم إلا بالمقاطعة، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

آن الأوان لأمتنا الإسلامية أن تقول «لا لأمريكا"!



والبضائع الأمريكية مثل البضائع الإسرائيلية، في حرمة شرائها والترويج لها. فأميركا اليوم هي إسرائيل الثانية، ولولا التأييد المطلق، والانحياز الكامل للكيان الصهيوني الغاصب ما استمرت إسرائيل تمارس عدوانها على أهل المنطقة، ولكنها تصول وتعربد ما شاءت بالمال الأميركي، والسلام الأميركي، والفيتو الأميركي.

وأميركا تفعل ذلك منذ عقود من السنين، ولم ترَ أي أثر لموقفها هذا، ولا أي عقوبة من العالم الإسلامي احتجاجًا على مواقفها المتحيزة الجائرة. وقد آن الأوان لأمتنا الإسلامية أن تقول «لا لأمريكا» ولشركاتها ولبضائعها التي غزت أسواقنا، حتى أصبحنا نأكل ونشرب ونلبس ونركب ما تصنع أميركا.



ولقد قال علي رضي الله عنه «ثلاثة عدوك: عدوك، وصديق عدوك، وعدو صديقك».

وأميركا اليوم أكثر من صديق لعدونا، إنها وصلت مرحلة الفناء في إسرائيل.

إن الأمة الإسلامية تبلغ اليوم مليارًا وثلث المليار من المسلمين في أنحاء العالم، يستطيعون أن يوجعوا أميركا وشركاتها بمقاطعتها. وهذا ما يفرضه عليهم دينهم وشرع ربهم. فكل مسلم اشترى من البضائع الإسرائيلية والأميركية ما يجد بديلًا له من دول أخرى، فقد ارتكب حرامًا، واقترف إثمًا مبينًا، وباء بالوزر عند الله، والخزي عند الناس.

وأما الإخوة المسلمون الذين يعيشون داخل إسرائيل، أو داخل أميركا، فهم مضطرون للتعامل معهم، وشراء سلعهم ومنتجاتهم، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. والضرورات لها أحكامها. ولكنها تقدر بقدرها، وقد قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]. وقال رسوله الكريم ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر، فأْتوا منه ما استطعتم»[٢].

---

٢ متفق عليه.

وعلى المسلمين في داخل الولايات المتحدة أن يتعاملوا مع الشركات الأقل عداء للمسلمين، والأقل تعصباً وممالأة للصهيونية، وأن يقاطعوا ما أمكنهم الشركات المتحيزة للصهيونية. كما يجب على العرب والمسلمين حيثما كانوا أن يقاطعوا كل الشركات المنحازة للصهاينة والمسانِدة لإسرائيل، من أي بلد كانت، مثل (ماركس آند سبنسر)، ومن كان على شاكلته في تأييد الصهيونية، ومؤازرة دولتها (إسرائيل)!

إن المقاطعة سلاح فعال من أسلحة الحرب قديمًا وحديثًا، وقد استخدمه المشركون في العهد المكي في محاربة النبي ﷺ وأصحابه، فآذاهم إيذاء بليغًا، حتى أكلوا أوراق الشجر. كما استخدمه بعض الصحابة في محاربة المشركين في العهد المدني، كما روت كتب السيرة. لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي رضي الله عنه، ثم خرج معتمراً، فلما قدم مكة، قالوا: أصبوت يا ثمامة؟ فقال: لا، ولكني اتبعت خير الدين، دين محمد، ولا والله لا تصل إليكم حبة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. ثم خرج إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئًا. فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا، وقد قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع. فكتب رسول الله ﷺ إليه أن يخلي بينهم وبين الحمل.

وفي العصر الحديث رأينا الشعوب تستخدم سلاح المقاطعة في معاركها للتحرر من الاستعمار. ولعل أبرز من فعل ذلك (المهاتما غاندي) في دعوته الشعب الهندي الكبير لمقاطعة بضائع الإنجليز، وقد كان لذلك أثره البليغ في حرب التحرير.

والمقاطعة سلاح في أيدي الشعوب والجماهير وحدها، ولا تستطيع الحكومات أن تفرض على الناس أن يشتروا بضاعة من مصدر معين. فلنستخدم هذا السلاح لمقاومة أعداء ديننا وأمتنا، حتى يشعروا بأننا أحياء، وبأن هذه الأمة لم تـمُت ولن تموت بإذن الله.

على أن في المقاطعة معاني أخرى غير المعنى الاقتصادي:



- إنها تربية للأمة من جديد على التحرر من العبودية لأذواق الآخرين الذين علموها إدمان أشياء لا تنفعها، بل كثيرًا ما تضرها!
- وهي إعلان عن أخوّة الإسلام، ووحدة أمته، وأننا لن نخون إخواننا الذين يقدمون الضحايا كل يوم، بالإسهام في إرباح أعدائهم!
- وهي لون من المقاومة السلبية، يضاف إلى رصيد المقاومة الإيجابية، التي يقوم بها الإخوة في أرض النبوات، أرض الرباط والجهاد.

وإذا كان كل يهودي في العالم يعتبر نفسه مجندًا لنصرة إسرائيل بكل ما يقدر عليه، فإن كل مسلم في أنحاء الأرض مجند لتحرير الأقصى، ومساعدة أهله بكل ما يمكنه من نفس ومال. وأدناه مقاطعة بضائع الأعداء. وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال:٧٣].

وإذا كان شراء المستهلك البضائع اليهودية والأميركية حرامًا وإثمًا، فإن شراء التجار لها ليربحوا من ورائها، وأخذهم توكيلات شركاتها أشد حرمة وأعظم إثمًا، وإن تخفّت تحت أسماء يعلمون أنها مزورة، وأنها إسرائيلية الصنع يقينًا.

إن الأمة الإسلامية في أنحاء الأرض مطالبة بأن تثبت وجودها، وغيرتها على مقدساتها، وبأن تعرف ما لها وما عليها، من صديقها ومن عدوها، ولا يجوز لها أن تستسلم للوهن واليأس، وتقبل السلام الجائر الذي تفرضه عليها الصهيونية المغتصبة. يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٥].



وعلى أخواتنا وبناتنا من ربات البيوت دور كبير في هذه القضية لعله أهم من دور الرجل، لأن المرأة هي التي تشرف على طلبات البيت، وشراء ما يلزم له من السلع والأدوات، وهي الألصق بتوجيه البنين والبنات من الأطفال، وإشرابهم الروح الجهادية، وتوعيتهم بما يجب عليهم نحو أمتهم وقضاياها

وما يلزمهم نحو أعدائها، وخصوصًا في مجال المقاطعة! وإذا وعى الأطفال ذلك التزموه بحماسة وقوة، وأصبحوا هم بعد ذلك الذين يوجهون الآباء والأمهات.

وإني أدعو هنا كل المؤمنين بالله تعالى من المسيحيين ومن غيرهم، وكل المؤمنين بالقيم الأخلاقية، وكل الأحرار والشرفاء في العالم إلى أن يقفوا بجانبنا، وأن يساندوا الحق ضد الباطل، والعدل ضد الظلم، وأن ينتصروا للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يسقط منهم كل يوم قتلى وجرحى في سبيل الله والدفاع عن حرماتهم ومقدساتهم.

كما أهيب بالعمال في بلاد العرب والمسلمين وفي أنحاء الأرض، أن يناصروا الفلسطينيين في قضيتهم العادلة، ويغضبوا لهم، ويحتجوا على أصحاب القوة الغاشمة بما يقدرون عليه من تعطيل مصالحهم.

وأخيرًا أدعو الحكماء والعقلاء وأهل الخبرة في كل بلد، أن يكوّنوا اللجان التي تنظم المقاطعة، وتهيئ البدائل، وتتفادى السلبيات، وتستمر في توعية الجماهير، حتى تعلو كلمة الحق، ويزهق الباطل ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١]. ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

من تطبيقات المقاطعة في تاريخنا الحديث

لا شك أن العلامة القرضاوي رحمه الله هو الذي حمل راية المقاطعة لأمريكا، وإسرائيل، والدنمارك، عبر الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين؛ حتى اشتعلت في العالم كله! ثم لم يُخلِ الله تعالى مكانه، فحمل الشيخ الدكتور محمد الصغير راية المقاطعة ضد فرنسا والسويد وغيرهما، عبر مؤسسته الناهضة الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ، وآتت دعوته ثمرتها، وستؤتي بإذن الله تعالى أكثر وأكثر!

ومن المقاطعات التي تمت في القرن الفائت، والحالي:

- عام ١٩٢٢ قاطع الفلسطينيون السلع الإسرائيلية وذلك ردًّا على مقاطعة للسلع العربية.
- وقاطع غاندي ضد الاستعمار البريطاني؛ حين حضّ المواطنين الهنود على صنع ملابسهم بأنفسهم

بالاستعانة بالمغزل اليدوي! وكان يقول: كلوا مما تنتجون، والبسوا مما تصنعون، وقاطعوا بضائع العدو!

- وقاطع اليابانيون الولايات المتحدة، حين خرجت اليابان من الحرب العالمية الثانية مدمرة بالكامل، فرفضت في ذلك الوقت شراء سلع الدولة المنتصرة في الحرب، وتم تحجيم الاستيراد من الخارج وتشجيع الاستثمار والإنتاج والزراعة اليابانية. ووصلت حدود هذه المقاطعة إلى مستوى جعل المنتج الياباني يفرض نفسه عالميًّا، حتى في الأسواق الأمريكية نفسها، وإلى تحقيق فائض في الميزان التجاري الياباني مع الولايات المتحدة لحد إثارة القلق والنزاعات التجارية الشديدة بين البلدين.

- عام ١٩٤٥ بدأ تاريخ المقاطعة العربية لإسرائيل رسمياً عندما اتخذت جامعة الدول العربية قرارات وتوصيات بضرورة المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل، واعتبرته عملًا دفاعيًّا مشروعًا!

- عام ١٩٥١ أنشأت جامعة الدول العربية جهاز المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل، ثم شكلت لجنة دائمة للمقاطعة لمتابعة تنفيذ قرارات المقاطعة وما تزال تعمل حتى الآن.

- قاطع الملك فيصل الغرب اقتصادياً، في أعقاب حرب ١٩٧٣م، إذ تزعم حركة الحظر البترولي الذي شمل دول الخليج، فكان لهذا الحظر أثره في توجيه المعركة.

- قاطعت الشعوب العربية المنتجات الأمريكية والإسرائيلية تضامناً مع فلسطين والعراق.

- قاطعت الدول الإسلامية الدنمارك بعد الرسوم المسيئة للنبي محمد ﷺ!

- أصدرت الولايات المتحدة قرارات تمنع فيها الشركات والمؤسسات الأمريكية، من التعامل مع مجموعة من الدول التي تعدها مارقة أو دولاً تدعم أو ترعى الإرهاب.

- منذ أكثر من أربعين عامًا ترفض (كوبا) إقامة علاقات مع الولايات المتحدة، وكذلك تُمنع الشركات الأمريكية من التعامل معها.

- حاصرت أمريكا دولًا كثيرة، مثل نيجيريا، والعراق، وإيران، وروسيا، وفرض عليها عقوبات اقتصادية متفاوتة[٣]!



أهمية وأهداف المقاطعة

تحت عنوان: ما معنى مقاطعة؟ كتبت (صفاء حسن) أن من أهداف المقاطعة:

- إلحاق الضرر الاقتصادي بالمنظمة أو الدولة التي انتهكت القيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية، مثل الأفعال العنصرية ضد السود والمسلمين، ما يجبرها على تغيير سلوكها!

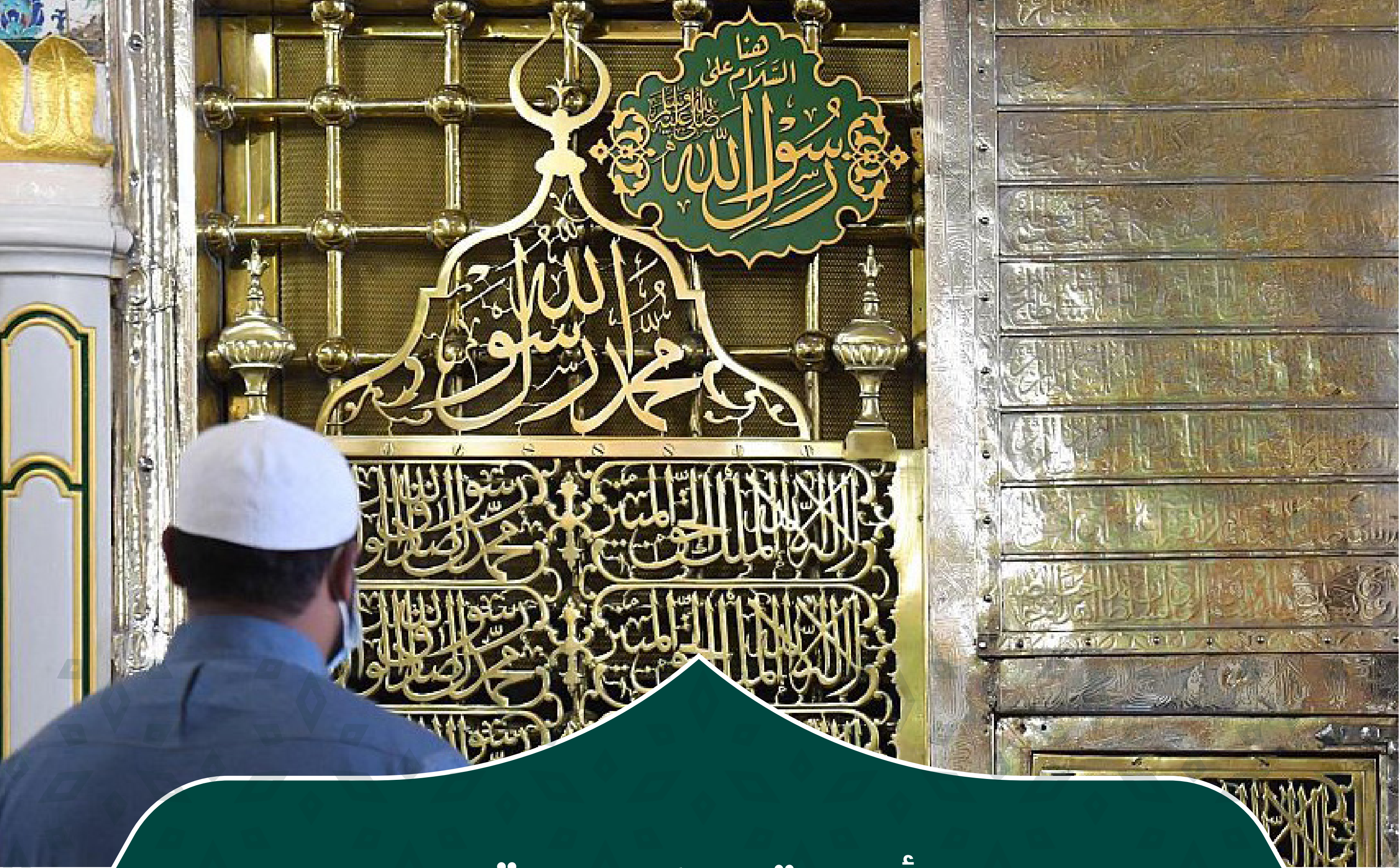
- إحراج الدول القائمة على النظم الديكتاتورية، من خلال مقاطعة الانتخابات، أو العصيان المدني؛ لإجبارها على القيام ببعض التعديلات السياسية!

- إجبار المؤسسات الإعلامية والمنظمات الفاسدة على تصحيح وجهتها، وتقديم الحقائق لجماهير المتابعين، ما يصب في مصلحة الشعوب لا الحكومات!

- منع دول الاحتلال من التمادي في القيام بالأعمال التخريبية، وإنشاء دول على أراضٍ محتلة ليست من حقها، مثل الاحتلال الصهيوني في أرض العرب فلسطين!

---

٣ منقولة.



الأسرة الكتانية وخدمتها للسُّنة ٨



د. الحسن بن علي الكتاني

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

١٥. علي بن المنتصر الكتاني

ومن أجلّ العاملين للإسلام، وبه نختم هذه المقالات ليكون مسك الختام: أبو الحسن علي بن محمد المنتصر بن محمد الزمزمي الكتاني.

وُلد رحمه الله بمدينة فاس في ٦ رمضان ١٣٦٠ هـ. وأمه هي السيدة الفاضلة أم هانئ بنت عبدالسلام بن عبدالله بن علال بن عبدالله بن عبدالرحمن المجذوب الفاسي الفهري، رحمها الله.

بدأ دراسته بالكتّاب القرآني، على العادة المتبعة في ذلك الزمان، وانتقل مع أسرته من فاس لسلا، ثم لطنجة، فالرباط. ودرس في المدارس المغربية، في فترة الحماية الفرنسية. فلما بلغ الـ ١٦ من عمره، هاجر والده لدمشق الشام، فتكفل بنقل أسرته من المغرب للشام، وهناك اجتاز امتحان الثانوية العامة الفرنسية والعربية في وقت واحد، فنالهما بتفوق عام ١٣٧٩هـ.

ثم قرر دراسة الهندسة الكهربائية في (لوزان) بسويسرا، فودعه والده وقال له: «يا بني، قد ربيتك تحت عيني، والآن ستذهب لبلاد الكفار وتكون وحيداً، وإني لأفضل أن أذبحك بيدي على أن أراك متزوجاً من امرأة كافرة». ثم غلبته عيناه وبكى، وحكى لي أبي هذه القصة ثم غلبته عيناه كذلك.



وقد تحصل أبي، رحمه الله، على دبلوم الهندسة الكهربائية من معهد البولي تكنيك بجامعة لوزان- سويسرا أوائل عام ١٣٨٣، ثم تابع دراسته في لوزان في الطاقة النووية لمدة ستة شهور، ودرّس فترة في المدرسة المحمدية للمهندسين بالرباط - المغرب.

ثم تحصل على شهادة الدكتوراه متخصصاً في الطاقة من جامعة كارنيجي بمدينة بيتسبرغ - ولاية بنسلفانيا - الولايات المتحدة الأميركية عام ١٣٨٥ وهو لما يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، وذلك في مدة وجيزة لا تزيد عن السنة والنصف، في موضوع: الذبذبات في مادة البلازما.



ثم التحق مدرساً في عدة جامعات أمريكية وعربية؛ كجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية، ومعهد ماساشيوستس للتكنولوجيا M.I.T، بالولايات المتحدة الأميركية. عندئذ أرسل له والده رسالة يأمره بالرجوع لبلاد المسلمين لخدمة أمته، وقال له: «إنك إن بقيت بين ظهرانيهم تنفعهم فستبقى عبداً لهم وإن جعلوك رئيساً عليهم». فقدم استقالته ورجع، فتعجب مديره وقال له: هل وجدت عملاً أفضل؟ فقال: لا. فقال له: عندك عطلة مفتوحة لمدة عام، وقتما رجعت تجد عملك.

لكنه بفضل الله ثم مساعدة والده وجد عملاً في جامعة الرياض، وجامعة البترول والمعادن بالظهران والتي كان أحد مؤسسيها، كلاهما بالمملكة العربية السعودية، وتحصل على رتبة أستاذ ذي كرسي عام ١٣٩٢ وهو لما يتجاوز ٣١ عاماً.

مكث الدكتور علي، رحمه الله، يدرس في الظهران إلى سنة ١٤٠١ هـ. وخلال ذلك كانت له أنشطة إسلامية هامة جداً، ففي نطاق عمله ربط علاقات مع جميع العجم من أصول إسلامية أو ممن دخل في الإسلام فكانت لهم جلسات يتدارسون القرآن، ويجتمعون على الدعوة إلى الله، والتناصح فيما بينهم.

أما خارج البلاد فكانت له جهود عظيمة في تنظيم الجماعات الإسلامية في أستراليا وأوروبا وأمريكا. بل إنه لم يترك جزيرة ولا منطقة فيها عمل إسلامي إلا وقصدها وساعد مسلميها على التنظيم وحل مشاكلهم.

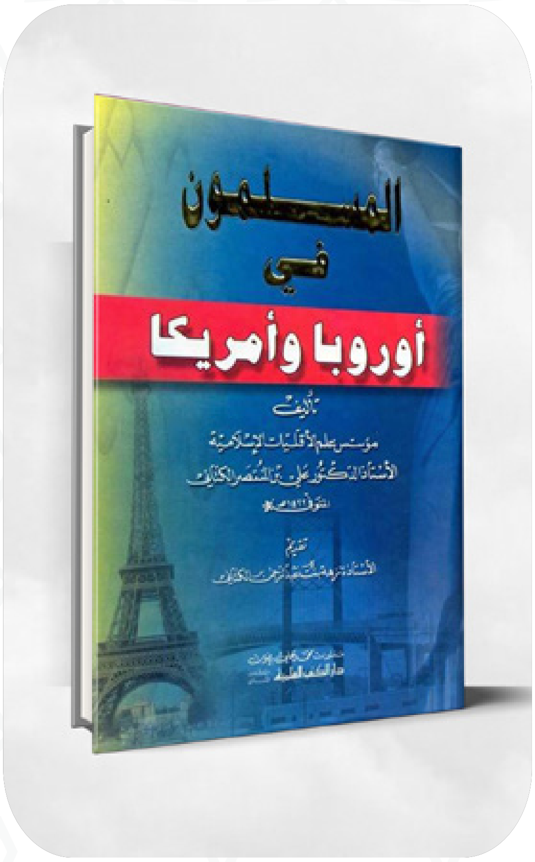
أما مجاله العلمي فقد عمل أستاذاً زائراً في مختلف جامعات العالم في مجال الطاقة والعلوم والتقنية، وكان له الفضل في تأسيس علم هندسة البلازما وألف في مجاله عدة كتب؛ خاصة كتابه بنفس الاسم والذي يعد مرجعاً علمياً ودراسياً في مختلف جامعات أميركا وأوروبا، وألف كتاب: التحويل المباشر للطاقة Direct Energy Conversion والذي بدوره يُدرس في عدة جامعات عالمية بأمريكا وأوروبا.

واستطاع بفضل هذين الكتابين وعشرات الدراسات العلمية الأكاديمية أن يؤسس لعلم الطاقة الشمسية، ويفلسف لعلم الطاقات المتجددة؛ من طاقة مياه وطاقة رياح، ليصبح والد هذا المجال عالمياً، وتصبح دراساته اتجاهاً علمياً رائداً في مختلف معاهد العالم بخصوص الطاقات المتجددة؛ خاصة الطاقة الشمسية، وتعتمد في مختلف مجالات البحث العلمي، حيث مقصده منها: إيجاد بديل للطاقات الملوثة للبيئة مثل البترول والغاز الطبيعي.

وأنجز في هذا المجال عدة إنجازات هامة، منها مؤتمر الطاقة الشمسية المنعقد في الظهران عام ١٣٩٥ والذي يعتبر أكبر مؤتمر للطاقة الشمسية يقام في العالم الثالث، حضره أكثر من ٣٠٠ عالم وباحث عالميين، قدموا مئات البحوث الهامة في مجال الطاقة الشمسية، وعُين والدي الدكتور علي الكتاني رئيساً لهذا المؤتمر، والذي ألف حوله كتاب: الطاقة الشمسية والتطور Heliotechnique and Development باللغة الإنجليزية، بالاشتراك مع الدكتور يوسف سوسو، في مجلدين ضخمين، ١٨٠٠ صفحة.


الاثنين ٧ ذو القعدة
... مؤتمر الكومبلس والاستاذ بجامعة البترول
مؤتمر لاستغلال الطاقة الشمسية
... الطاقة الشمسية برئاسة استاذ سعودي
من وحي المدينة ـ بقية

ثم إنه اختير للعمل مع منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، فأصبح سنة ١٤٠١ رئيساً للمؤسسة الإسلامية للعلوم والتقنية والتنمية، وعمل من خلالها على تطوير البحث العلمي في بلدان المسلمين، فربط علاقات وطيدة بالرؤساء المتحمسين لهذه الأفكار لضياء الحق الباكستاني وطرغد أوزال التركي وداتو باتينجي عبد الطيب محمود رئيس إقليم سرواك بماليزيا، وكان له علاقات مميزة برئيس وزراء ماليزيا محاضر محمد وولي عهد الأردن أنذاك الأمير الحسن بن طلال، وغيرهم.



وفي جدة أصبح قريباً من والده الذي كان مستقراً في مكة. فكان بينهما جلسات ومشاورات. وقد كان أبي، رحمه الله، دائم المصاحبة لوالده منذ طفولته، إلى آخر عمره.

وكان والدي يرافق والده عندما يزور الملك فيصل بن عبد العزيز بن سعود، رحمه الله، وهو الذي اقترح عليه فكرة مساعدة الأقليات الإسلامية في العالم، فاختاره الملك ليقوم بتلك المهمة، ونتج عنها كتابه الشهير (المسلمون في أوروبا وأمريكا) في مجلدين.

وقد ركز والدي في الأخير اهتمامه على الأندلس، وفي بداية عمله هناك كان يصحبه والده والتقيا بعمدة قرطبة الشهير خوليو انقيطة، الشهير بالأمير الأحمر. وكاد يسلمهم الجامع الكبير بقرطبة، ومسجد القاضي أبي عثمان، الذي صلوا فيه صلاة جمعة، لكن الكنيسة ضغطت بقوة ضد ذلك.

وأسس والدي الأكاديمية الإسلامية للعلوم بعمان الأردن، قصد بها جمع علماء المسلمين والتعاون بينهم في العلوم التجريبية.


علي الكتاني برفقة بيجوفيتش

لم يكن نشاط والدي، رحمه الله، يروق لأعداء المسلمين، الذين يريدون للأمة أن تبقى تابعة لهم، متخلفة عن ركب الحضارة، وعندئذ ضيقوا عليه، حتى قرر الرجوع للمغرب، فكان ذلك سنة ١٤٠٨هـ.

وفي المغرب لم يجد ما كان يؤمله، فقرر تأسيس جامعة في قرطبة سماها جامعة ابن رشد الإسلامية، تولى رئاستها بنفسه، وقصد منها أن تكون منارة للعلوم في الأندلس، التي أسس فيها (الجماعة الإسلامية بالأندلس) وأرخ لها بكتابه النفيس (انبعاث الإسلام في الأندلس) في مجلد أرخ للإسلام في الأندلس بعد سقوط غرناطة إلى اليوم.

وكان يراوح بين البقاء في الأندلس والرجوع للمغرب، حيث بنى بيتاً بالرباط واستقر هو وأسرته فيها.

ولم يمنعه الاهتمام بالأندلس من الاهتمام ببقية قضايا المسلمين كالقضية الأفغانية والبوسنة والهرسك وقصوة (كسوفو) والجزائر. وغيرها. وكان يتعاون مع الحركات الإسلامية جميعها، ولا يفرق بينها. كما أنه كان يتعاون مع جميع العاملين للإسلام. وعلى رأسهم عم والده الدكتور مولاي إدريس الكتاني، وحركة التوحيد والإصلاح المغربية، وجماعة العدل والإحسان، وفي خارج المغرب كان له علاقات بجميع التيارات الإسلامية.

وفي آخر عمره اهتم بالعمل الإسلامي في المناطق الموريسكية بالأندلس، واهتم بالكتابات الشهيرة باللغة العجمية (ألخاميادو) وهي اللغة الإسبانية بالحروف العربية، التي كان يكتب بها الموريسكيون بعد سقوط الأندلس.

وهنا واجه والدي، رحمه الله، صعوبات جمة في عمله الإسلامي بالأندلس عموماً، وفي بناء الجامعة بصفة خاصة، خاصة من اليمين الإسباني المتطرف، ومن الكنيسة، بل ومن بعض الدول العربية، وجاءته رسائل تهدده بالقتل إن لم يتوقف عن عمله.



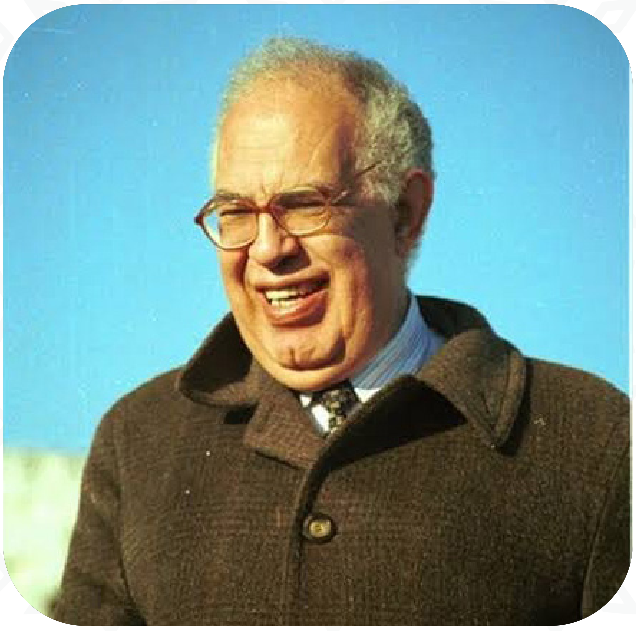
كانت ميزة الوالد رحمه الله أنه يحب أن يبقى دائماً خلف الستار بعيداً عن الواجهة، ولا يبرز أمام مسرح الأحداث، ولو قرأتم كتابه «انبعاث الإسلام في الأندلس» لوجدتم أنه لا ذكر لاسمه، مع أنه كان رحمه الله وراء كل تلك الأحداث التي حكى عنها منذ عشرين سنة في الأندلس، ولقد دخل الوالد الأندلس ولا وجود للمسلمين الأسبان بها، واليوم صاروا بالآلاف.

وقد تربى سيدي الوالد رحمه الله على حب الإسلام -وكفى- من غير أي عناوين أخرى، فلم يكن يعرف للمذهبية معنى ولا للحزبية، يتعاون مع الجميع ويؤيد الفكرة الإسلامية أنّى كانت.. كان الوالد يربينا على حب الإسلام والمسلمين وترك التعصب للمذاهب، وكان يردد دائماً مقولة الإمام مالك رحمه الله: «أهل السنة من لا اسم لهم سوى السُنة».

ولذلك كانت علاقته مع جميع الجماعات الإسلامية طيبة، ولم يكن يجد غضاضة أو حرجاً في التعامل مع أي منها.. وكان الوالد شديد الانفتاح وكان يترك الحرية لأبنائه في أن يفعلوا ما يشاءون في إطار الآداب الإسلامية والشرع، ولكنه كان يراقب أصدقاءنا، وكان ينصحنا بقوله: «يا بني من ليس له نفع ديني ولا دنيوي فلا تصحبه».

وكان الوالد يخشى علينا من الغلو في الدين، وينقل لنا بعض أقوال السلف في نبذ الغلو، مثل قول الإمام مالك رحمه الله: «من تصوف قبل أن يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق».

والكلام عن سيدي الوالد طويل الذيل، وقد جمع أخي الدكتور حمزة، حفظه الله، كتابين في سيرته (الدكتور علي الكتاني، أمة في رجل) و(لن ننساك). وكذلك اجتهدت أختي الدكتورة حسناء وفقها الله في جمع تراثه، ونشرت العديد من المقالات عنه.



توفي رحمه الله تعالى بقرطبة بالأندلس، فجأة وفي ظروف غامضة وهو مستعد للرجوع لبلاده المغرب، سحر ليلة الثلاثاء ١٥ محرم الحرام عام ١٤٢٢ ونقل جثمانه الطاهر للمغرب، حيث دفن في مقبرة الشهداء بالرباط، وتوليت الصلاة عليه، وكانت له جنازة مهيبة، ولم يبق أحد إلا وحضر جنازته أو تقدم للعزاء فيه.

وقد كان والدي غيوراً على دينه، يسترخص ماله ونفسه في نصرته، شديد التواضع والحب للفقراء والمساكين ومجالستهم، أبياً أنفاً إن أحسن من أحد المتكبرين ترفعاً عليه. ولعلي خلال هذه المذكرات أذكر الكثير عنه إن شاء الله.

ترك حوالي مائتي مصنف، منها المؤلف الكبير، ومنها البحث الذي نشر في مختلف المجلات المحكمة في العالم، سواء في علوم التكنولوجيا والتنمية، سواء في علوم الطاقة، أهمها كتابPIasma Engineering، سواء في علم الأقليات الإسلامية، سواء في علم التاريخ، سواء في علم الأنساب، سواء في فن الشعر؛ فله ديوان شعر باللغة الفرنسية، وباللغة الإنجليزية. وله كذلك بعض الأشعار كتبها في طفولته باللغة العربية.

كذلك ألّف في التاريخ مؤلفات عديدة؛ من أهمها كتاب: «انبعاث الإسلام في الأندلس»، هذا الكتاب الذي تطرق فيه وتوسع في تاريخ الإسلام في الأندلس منذ سقوط غرناطة إلى الآن، وتاريخ الإسلام في الأندلس وجذوره، وهذا الموضوع لم يصنف قبله فيه، واعتمد في هذا الكتاب ألف مرجع.

وفي الأنساب جمع نسب وشجرة العائلة الكتانية، ولم يكد يترك فيها شاذة ولا فاذة سوى القليل مما حصره في كناش الشجرة الكتانية.

وكان يتقن العربية والإنجليزية والفرنسية والأسبانية بطلاقة، ودرس البربرية بلسان تشلحيت والألمانية والبرتغالية والإيطالية.

وبهذا ننتهي من هذه الجولة التي طلبها مني أخ حبيب، لم يسعني إلا تلبية طلبه، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

كتبه الحسن بن علي بن محمد المنتصر الكتاني، بالهرهورة قرب رباط الفتح، في ١٢ صفر ١٤٤٥هـ.

أكاديمية أنصار النبي صلى الله عليه وسلم
SUPPORTERS OF THE PROPHET ACADEMY



دورة بيوت النبي

دورة علمية يقدمها الدكتور/ **حاتم عبدالعظيم**، تتناول الحديث عن زوجات النبي ﷺ، ونسبهن وإسلامهن، وقصة زواج النبي بكل واحدة منهن، وكذلك الحديث عن التعاملات الأسرية في بيوت النبي ﷺ، والقواعد النبوية لبناء البيت المسلم، كما تستهدف رد الشبهات حول تعدد زوجات النبي ﷺ، وبيان الغاية والحكمة من ذلك.

أهداف الدورة

- التعريف بزوجات النبي ﷺ، ونسبهن.
- التعريف بقصة زواج النبي ﷺ بكل زوجة من زوجاته.
- بيان أهم المواقف في حياة كل زوجة من زوجات النبي ﷺ.
- بيان كيف تعامل النبي ﷺ مع زوجاته.
- بيان كيف تعاملت زوجات النبي ﷺ معه كزوج.
- بيان كيف تعاملت زوجات النبي ﷺ فيما بينهن.
- دفع الشبهات حول تعدد زوجات النبي ﷺ.

يمكنك الاشتراك في هذه الدورة من هنا

بيوت النبي

16 محاضرة

8 ساعات

كيف عاملهم

دورة علمية قدمها ثلة من العلماء المعتبرين تتناول الحديث عن أخلاق النبي ﷺ ومعاملاته مع كافة شرائح الناس، مثل تعامله مع أهل بيته، وأصحابه وأتباعه، وكذلك مع الشرائح الدعوية المختلفة، وكيف كانت أخلاقه مع مختلف أصناف البشر، وحتى مع غير البشر، من الجن والدواب وحتى الجمادات.

أهداف الدورة

- تكوين صورة متكاملة لأخلاق النبي ﷺ، ولكيفية تعامله مع الناس جميعًا.
- بيان كيف تعامل النبي ﷺ مع أهله وأقاربه.
- بيان كيف تعامل النبي ﷺ مع الشرائح الاجتماعية المختلفة.
- بيان كيف تعامل النبي ﷺ مع الشرائح الدعوية المختلفة.
- بيان كيف تعامل النبي ﷺ مع عموم النساء وكبار السن والصغار.
- بيان كيف تعامل النبي ﷺ مع غير البشر.
- بيان مركزية الأخلاق في الإسلام.
- تعميق محبة النبي ﷺ في قلوب المسلمين.
- تعظيم قيمة الاقتداء بالنبي ﷺ في قلوب المسلمين.
- بيان الأسس النبوية لبناء البيت المسلم.



يمكنك الاشتراك في هذه الدورة من هنا

كيف عاملهم

22 محاضرة

10 ساعات

الدورات العلمية القادمة







السيرة النبوية — غزوات النبي ﷺ — فقه الزكاة

لمتابعة كل جديد يرجى الاشتراك في صفحات التواصل الاجتماعي

@ansaracademy_

مناشط الأكاديمية في شهر رمضان



أكاديمية أنصار النبي صلى الله عليه وسلم

SUPPORTERS OF THE PROPHET ACADEMY

- ندوة هدي النبي في شعبان.
- برنامج هدي رسول الله في رمضان.
- دورة فقه الصيام.
- ندوة الاستثمار الأمثل لرمضان.
- ندوة هدي النبي في العشر الأواخر من رمضان.
- ندوة زكاة الفطر؛ الحِكَم والأحكام.

مساحة إعلانية



سلسلة السيرة النبوية

الشيخ د. محمد الصغير

رئيس الهيئة العالمية

لنصرة نبي الإسلام ﷺ

استعراض لوقائع السيرة النبوية
التي نحتاجها في واقعنا المعاصر

- من نبعته إلى بعثته ﷺ
- من بعثته إلى هجرته ﷺ
- من هجرته إلى وفاته ﷺ
- الغزوات النبوية



سلسلة السيرة النبوية الفرنسية

محمد إلهامي

عضو الأمانة العامة

للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

استعراض لسيرة النبي ﷺ من خلال دراسات
ومؤلفات المستشرقين والمؤرخين الفرنسيين،
تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾

- السيرة النبوية الفرنسية

مساحة إعلانية



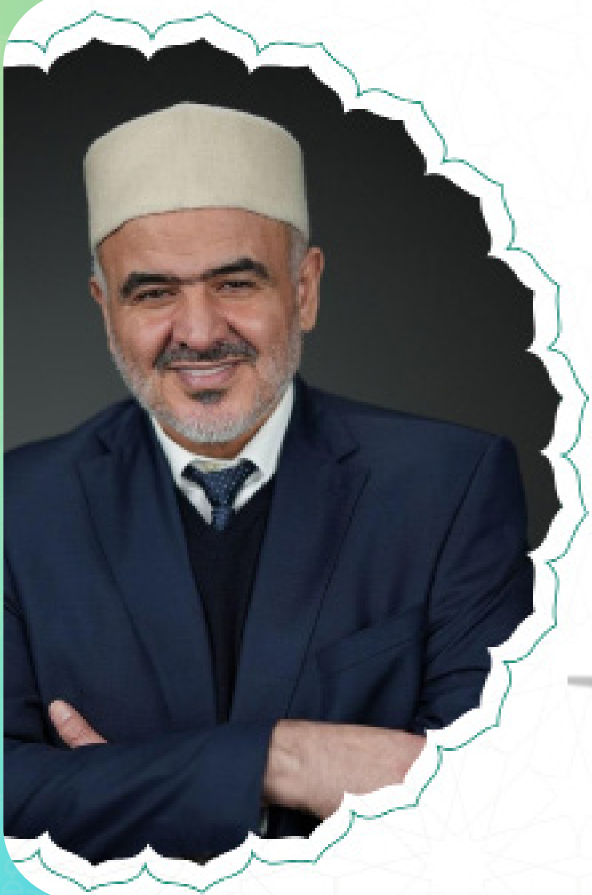
سلسلة شرح كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى

الشيخ د. عبد الحي يوسف

عضو مجلس أمناء
الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

وقفات مع الكتاب الأفخر الأشهر للقاضي عياض، للتعريف بحقوق النبي ﷺ والواجب على أمته نحوه.

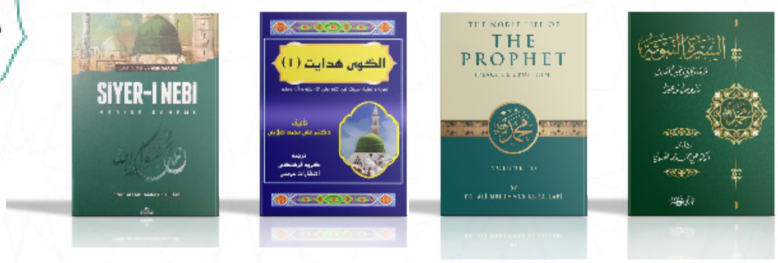
سلسلة شرح كتاب الشفا



كتاب السيرة النبوية بعدة لغات

الشيخ د. علي محمد الصلابي

المؤرخ الإسلامي



١ ٢ | ١ ٢ ٣ | ١ ٢ | ١ ٢



الأرجوزة الميئية في ذكر حال أشرف البرية

التعليق على الأرجوزة الميئية في ذكر حال
أشرف البرية لابن أبي العز الحنفي

تعليق الشيخ: مختار بن العربي مؤمن الجزائري الشنقيطي

عضو مجلس الأمناء
للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

الأرجوزة الميئية في ذكر حال أشرف البرية



كتاب رياض الصالحين
للإمام النووي (صوتيا)

زبدة أحاديث السنة النبوية كما جمعها
الإمام الكبير محيي الدين شرف النووي

بصوت الدكتور: بسام صهيوني

عضو مجلس الأمناء
للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

رابط الكتاب المسموع

يمكنك تحميله كتطبيق على الهاتف من هنا

أئمة الهدى

﴿قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾

•• من تراث علمائنا الراحلين ••





خطوط عريضة في
التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية



الأستاذ محمد قطب

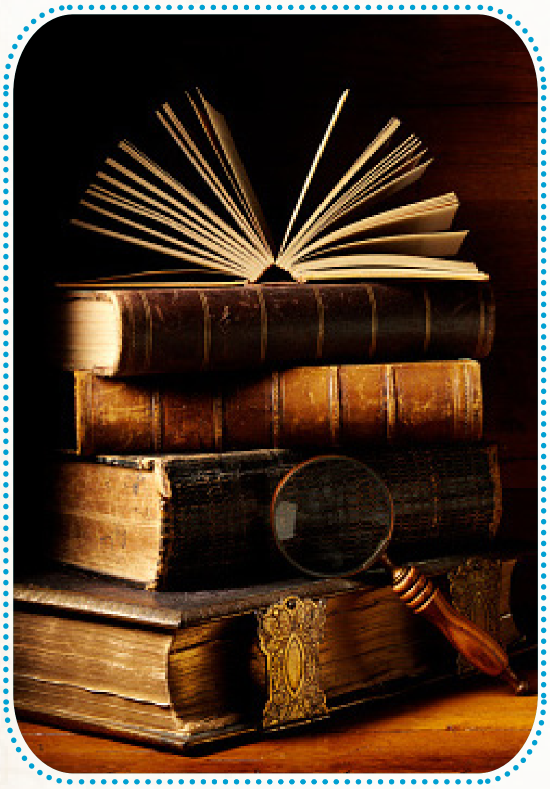
رحمه الله*

إن الاستمداد من التصور الإسلامي للإنسان، سيصل بنا في العلوم الاجتماعية إلى نتائج تختلف في المنطلق وفي الغاية عن النتائج التي يتوصل إليها «العلماء» في الغرب، وإن التقت معهم في بعض التفصيلات أو في كثير من التفصيلات.

* محمد قطب، التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨م) ص٨٥ وما بعدها.

ونقول هنا إنه على الرغم من أن هذا الاختلاف سيقع تلقائياً، نتيجة اختلاف التعامل مع الحيوان المتأله الذى يعيش لدنياه وحدها منقطعة عن الآخرة، عن التعامل مع الإنسان العابد لله، الذي يعلم أنه عبد لله ولكنه مكرم بعبوديته لأن الخالق الكريم كرمه، والذى يعيش لدنياه وآخرته في آن واحد. على الرغم من ذلك فإن الكاتب المسلم الذي يتصدى للكتابة في العلوم الاجتماعية من منطلق إسلامي، يجب أن يوجه باله إلى عدة أمور تعاونه في البحث، وتجنبه منزلقات كثيرة يقع فيها «علماء» الغرب.

الأمر الأول



أن من بدهيات البحث العلمى أن تكون «العينة» التي يُجرَى عليها البحث، ممثلة تمثيلاً صادقاً للنوع أو الشيء المراد دراسته وتقنينه ومعرفة خواصه وترتيب النتائج عليه.

فإذا أردنا -مثلاً- أن نختبر خواص الحديد، فلا يكفي -للاطمئنان إلى النتائج اطمئنانا علمياً- أن نأخذ عينة من مكان معين ونجرى عليها ما نشاء من التجارب، ثم نقول: ثبت لدينا أن خواص الحديد هي كذا وكذا.

ولكن لابد من أخذ عينات من أماكن شتى وإجراء التجارب على كل منها، فإذا ظهر لنا بعد تكرار التجربة على العينات المختلفة أنها كلها تعطي نتيجة واحدة، أو نتائج متشابهة بحيث لا يؤبه للخلاف الطفيف فيها قلنا مطمئنين: إن خواص الحديد هي كذا وكذا، وأشرنا إلى الفروق الطفيفة إن وُجدت مثل هذه الفروق.



هذا مع العلم بأن التعامل مع المادة أكثر ضماناً في الحصول على نتائج قطعية ونهائية، لأن المادة -في الغالب- تعطي نتائج متماثلة في الظروف المتماثلة. وإن كان العلم الحديث -المتقدم- قد نفى الحتمية القطعية حتى في عالم المادة، واستبدل بها نظرية الاحتمالات التي تقول إنه لا شيء قطعي في الكون المادي، إنما هي احتمالات، الاحتمال «أ» أكبر من الاحتمال «ب»، والاحتمال «ب» أكبر من الاحتمال «جـ»!

فكيف مع الإنسان.. وكيف مع النفس البشرية؟!

إننا نتعرض لخطأ علمي فادح حين نأخذ العينة البشرية التي ندرسها من جيل معين من أجيال البشرية، ثم نستخرج منها نتائج عامة، ولو أجرينا التجارب على كل أفراد ذلك الجيل، وهذا مستحيل بالطبع! لأن الجيل الذي نختاره للدراسة قد لا يكون ممثلاً للنوع البشري في جميع أحواله، وقد تكون هناك أجيال أخرى منه ذات خصائص مختلفة.

فكيف إذا كانت دراستنا لا تشمل كل أفراد الجيل، وكان الجيل لا يشمل بالضرورة كل خصائص النوع البشري.. كم تكون دراستنا بعيدة عن الواقع، وبعيدة عن «الأصول العلمية» التي يجب توافرها في البحث؟

وقد يبدو ما قلناه بديهية مسلّمة لا يغفل عنها «عالم»! ولكن انظر إلى دور كايم -مثلاً- وهو في حس كثير من دارسي علم الاجتماع عمدة لا يراجع ولا يناقش فيما يقول! انظر إليه يأخذ العينة التي يبني عليها

استنتاجاته من جيله المنحرف -الذي عملت عوامل كثيرة على إشاعة الانحراف في كيانه- فيقول إن الدين والزواج والأسرة ليست من الفطرة! فعلى أي شيء بنى تلك النتيجة التي أعطاها صفة القطع؟!

لقد بناها على جيل معين من أجيال البشرية فرّط في دينه، ولم يعد يلتزم بالزواج إطاراً للعلاقة بين الجنسين، ولم يعد يهتم بالأسرة كياناً يجمع الأم والأب والأولاد.. فهل يمكن أن توصف هذه الاستنتاجات بأنها «علمية» وأنها سليمة؟ وهل يلغي جيل دلالة أجيال لا يحصيها إلا الله وحده، ولكن لدينا من الآثار المكتوبة والمنقوشة ما يغطي منها سبعة آلاف من السنين أو خمسة آلاف في أقل تقدير؟!

ولا ندخل الآن في نية الكاتب من إصدار هذه «الفتوى» العلمية المزيفة، وماذا كان يريد من وراء نفي الثبات عن الدين والزواج والأسرة، واعتبارها أشياء ليست من الفطرة (أي: قابلة للإلغاء في أي وقت) إنما نسأل من الوجهة العلمية البحتة، هل هذا المنهج: وهو أخذ العينة من جيل معين من أجيال البشرية ثم تعميم النتائج المستمدة منها على النوع البشري كله.. هل هو منهج «علمي» سليم؟!



وهل معنى هذا -من جهة أخرى- أن نلغي دلالة هذا الجيل الذي وقع فيه التفريط في الدين، وعدم التزام الزواج إطاراً للعلاقة بين الجنسين، وعدم التزام الأسرة كياناً يجمع الآباء والأبناء؟ إننا

إذا أغفلنا هذا الجيل، وألغينا دلالته، لا نكون واقعيين من ناحية، ولا تكون النتائج التي نصل إليها صحيحة من الوجهة العلمية، ولا متصفة بالعموم والشمول الذي ندعيه في البحث العلمي.

إنما يكون المسلك العلمي الصحيح أن نرصد الظاهرة خلال الأجيال، في آلاف السنين التي نملك عنها بياناً نطمئن إلى صحته، ثم نقرر شذوذ هذا الجيل عن سلسلة الأجيال قبله، ثم نحاول أن نرصد أسباب هذا الشذوذ في واقعنا المعاصر، لنعلم إن كان شيئاً عارضاً قابلًا للزوال، أم إنه تحول في الفطرة البشرية ذاتها خرج بها عن خطها إلى خط جديد.



وإذا فعلنا ذلك فسيتضح لنا أن «الفتوى» التي أصدرها دور كايم، ونفي فيها أن يكون الدين والزواج والأسرة أشياء من الفطرة، هي -على أقل تقدير- فتوى ينقصها الدليل العلمي!

المزلق الثاني

الذي يقع فيه بعض المؤلفين في العلوم الاجتماعية -والذى يجب أن يتجنبه الكاتب المسلم- هو الدعوى التي تقول إن البحث العلمي يجب أن يكون «واقعياً» لا يتعلق «بالمثاليات»، أي أنه يجب أن يتعامل مع ما هو كائن لا مع ما ينبغي أن يكون!

إن هذا المنطق يصح في حالة واحدة هي أن يكون «ما يجب أن يكون» غير قابل -في ذاته- للتطبيق لمخالفته للفطرة البشرية، أو لكونه خارج حدود قدرة الإنسان. فأما إن كان مما يقدر الناس عليه، ومما طبق

بالفعل في فترة معقولة من الزمن، فلا تقبل دعوى «الواقعية» في عدم التعامل معه، ولو انحرف الناس عنه، بل ولو كان أكثر الناس منحرفين عنه. فالقضية هنا لا تتعلق بالواقعية أو عدمها إنما تتعلق بالمرجعية: هل هي للإنسان أم هي لخالق الإنسان!

وهذا المزلق بالذات هو من أشد المزالق التي يقع فيها الغرب في دراساته الاجتماعية، منذ خروجه من «الربانية» الكنسية إلى «الإنسانية» المتمردة على سلطان الله. فإذ اعتبر الإنسان هو المرجع أصبح الهبوط والانحراف أصلاً لأنه هو الغالب على الناس في جاهليتهم، وأصبح التسامي والارتفاع شذوذاً لا يؤبه به لقلته وقلة تأثيره في المجموع.

ولكن المسلم مرجعيته هي ما جاء من عند الله، وليس «واقع» الناس. وحين يضع الله حداً من الحدود ويجعله ملزماً للناس، فهو بالنسبة للمسلم ملزم ولو عصاه الناس أجمعون! ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤]. وهو ملزم باعتبارين اثنين في آن واحد:

- **الاعتبار الأول: أنه منزل من عند الله الخالق، الذي له الأمر بمقتضى كونه هو الخالق** سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٤٥].

- **والاعتبار الثاني: أنه منزل من عند الله العليم الحكيم، الذي يعلم حقيقة**



الإنسان الذي خلقه، وحقيقة قدراته فيكلفه ما يعلم سبحانه أن فيه صلاحه، وما يعلم أنه في مقدوره: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ* يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ومن ثم فكل التكاليف التي كلف الله بها الإنسان ملزمة له بهذه الاعتبارات، وهي الأصل الذي يجب أن يكون عليه الإنسان. وحين ينحرف عنه يكون انحرافه في خانة «الخطأ» لا في خانة «الواقع»، ولو وقع في الخطأ كل الناس! فإن كثرة الخطأ وعمومه لا تنفي عنه صفته، ولا تعطيه شرعية الوجود.

ولكن حين يكون هذا الواجب الملزم قد طبق بالفعل لا في أفراد متناثرين بل في أجيال، ولقرون عدة متوالية -كما وقع التطبيق على يد الأمة الإسلامية في واقعها التاريخي على الرغم من كل انحرافاتها - فإن الواجب عندئذ يكون أشد إلزاماً، وأوجب في التنفيذ، وأوجب في اعتباره هو الأصل، وإن عصاه من عصاه!

يقول تعالى في كتابه المنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

فالإيمان بالله واجب ملزم في ذاته -بحجيته الخاصة- ولكن استجابة المستجيبين له تجعله أشد إلزاماً، وتجعل المخالفين أعظم جرماً عند ربهم، وأشد استحقاقاً للغضب وللعذاب الشديد.



كذلك فإن استجابة أجيال من الأمة الإسلامية لما «يجب أن يكون»، على درجات مختلفة، يجعله أشد إلزاماً للبشرية كلها، ويجعل المخالفين، سواء من الأمة الإسلامية ذاتها أو من غيرها من الأمم، هم المخطئين، أياً كانت نسبتهم، وأياً كانت نسبة بعدهم عما يجب أن يكون.

والواقعية الإسلامية لن تزيف الواقع، ولن تعطيه وصفاً ليس له. ولكن الفرق بينها وبين واقعية الغرب أنها تتسع للواقع كله، بشقيه، الواقع الذي يجب أن يكون عليه الناس، والواقع الذى عليه الناس بالفعل في أي جيل من أجيالهم، مقيساً بما يجب أن يكون، أي موضوعة مخالفاته في خانة الخطأ والانحراف.

وقد يظن بعض الناس أن هذا افتعال وتمحل لا موجب له! فندلهم -من الواقع- على موجبه!

تناقش البرلمان البلجيكي -الموقر- ذات يوم في قضية الصور العارية التي تصور أوضاعاً مخلة بالأدب والحياء. فقال أعضاء -محترمون- فلنكن واقعيين! إن هذه الصور موجودة بالفعل، وتملأ السوق، وإن كانت تتداول خلسة. فما قيمة إصرارنا على منعها، وتجاهل الأمر الواقع؟!

وأخذ المجلس الموقر بوجهة نظر النواب المحترمين، فأصدر قراراً بإباحة تداول الصور التي كانت ممنوعة بحكم القانون. وفي اليوم التالي -كما قالت الصحف البلجيكية ذاتها، والصحف العالمية كذلك- انتقلت الصور من خفايا الأزقة كما كانت من قبل إلى صدر المحلات الواقعة في الشوارع الرئيسية.. فزاد الإقبال عليها وزادت نسبة انتشارها أضعافاً مضاعفة.

ومرة أخرى وقع ذلك المجلس الموقر نفسه في تلك الواقعية الحمقاء، فقال قائل فيه: فلنكن واقعيين! إن المخدرات ممنوعة بموجب القانون، ولكنها موجودة ومتداولة رغم قرار المنع، فما قيمة القرار؟! وتداول المجلس الموقر في الأمر فقرر رفع الحظر عن تعاطي المخدرات! ثم قالت الصحف إن الأطفال في الحافلات العامة صاروا يحقن بعضهم بعضاً وهم راكبون في الحافلة! فأي حماقة ترتكبها تلك الواقعية الحمقاء؟!



إن قرار المنع هو لون من النهي عن المنكر، ومهما يكن ضعفه، وضعف فاعليته، فهو على أية حال قيد على الانحراف، فإذا رفعت القيد -بحجة الواقعية- فإن الأمر لا يقف عن الحد الذي كان عليه حين رفعت القيد، وإنما تجربة الواقع التاريخي كله تقول إنه يزداد سوءاً وضراوة بحكم ثقلة الشهوات في النفوس، وجذبها الدائم للناس إلى أسفل. ولذلك أعطى الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اعتباراً عظيماً حتى جعل خيرية هذه الأمة متعلقة به (مع الإيمان بالله)، وجعل اللعنة على الأمة التي كفت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ * كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].



وحين يؤلف مؤلف كتاباً أو يحث بحثاً ويسعى إلى نشره فإنه يقصد من وراء ذلك إلى قصد معين، ودع عنك أكذوبة «الفن للفن» و«العلم للعلم» فهي لا تصدق بالنسبة لعملية النشر! فإنما ينشر المؤلف كتابه لينشر فكره بين الناس. أي أنه داعية يدعو إلى فكر معين.. فما موقف المسلم من هذه القضية؟! إلى أي شيء يدعو الناس؟!

حين يُعطَى الواقع المنحرف شرعية الوجود بحجة أنه واقع بالفعل، فإنه في واقع الأمر يدعو إلى مزيد من الانحراف، ويؤدي إلى مزيد من الانحراف! وعلى العكس من ذلك فإنه حين يجعل المرجعية لما أنزل الله، ويزن الأمور بميزان الله، فيضع الانحراف في خانة الانحراف، ويبين الأصل الذي يجب أن يكون، فهو داعية يدعو إلى الصعود، ولن تضيع الدعوة في الأمة ما دام فيها دعاة مخلصون، يبتغون بدعوتهم وجه الله. ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النَّعم. فكيف وأنت تدعو أمة بأكملها في مدارسها ومعاهدها وجامعاتها؟!

وليس مقتضى ذلك -قط- أن تتحول الدراسات الاجتماعية إلى مواعظ! ولا يتصور الأمر على هذه الصورة إلا جاهل أو معاند. إنما هي الدراسة «العلمية» بكل موضوعية العلم «الواقعية» بكل صرامة الواقع، ولكنها الواقعية الكبيرة التي تتسع لواقع التاريخ، وواقع الأجيال، وتركز على كل صعود تصعده البشرية، ولا تركز فقط على لحظات الهبوط ولحظات الانحراف!



فتوى

في تحريم التعليم المختلط



العلامة الكبير محمد الأمين الشنقيطي

رحمه الله*

حضرة الأخ المكرم رئيس جمعية الإصلاح الاجتماعي بالكويت -حفظه الله ووفقه-

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد؛ فقد وصلنا خطابكم رقم ٣٥ في ٢٧ محرم ١٣٨٩هـ تسألون فيه عن حكم الشرع في اختلاط الجنسين في الدراسة الجامعية وما يترتب على ذلك من المفاسد.

---

* محمد الأمين الشنقيطي، المحاضرات، ضمن: آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي، ١١/ ١٥٣ وما بعدها.

والجواب عما سألتم عنه وفقنا الله وإياكم: أن من الغريب أن يوجد في أمة مسلمة عربية اختلاط الجنسين في الجامعات والمدارس، مع أن دين الإسلام الذي شرعه خالق السموات والأرض على لسان سيد الخلق ﷺ يمنع ذلك منعًا باتًّا، والشهامة العربية والغيرة الطبيعية العربية المملوءة بالأَنَفَة تقتضي التباعد عن ذلك وتجنبه بتاتًا، وتجنب جميع الوسائل المفضية إليه.



وسنذكر لكم في جواب سؤالكم وفقنا الله وإياكم طرفًا من الأدلة القرآنية والسنة النبوية، ثم نشير إلى شهامة الجنس العربي، وابتعاده عن التلبس بما لا يليق، ولو لم يكونوا مسلمين.

أما القرآن العظيم، فمن أدلته العظيمة التي لا ينبغي العدول عنها بحال من الأحوال أن الله أنزل فيه أدبًا سماويًّا أدَّب به خير نساء الدنيا، وهن نساء سيد الخلق محمد ﷺ، فأمر فيه جميع الرجال أن لا يسألوهن متاعًا إلا من وراء حجاب، ثم بين أن الحكمة في ذلك أن تكون قلوب كل من الجنسين في غاية الطهارة من أدناس الريبة بين الجنسين، وقد تقرر في علم الأصول أن العلة تعمم معلولها وتخصصه، والعلة في هذه الآية المتضمنة هذا الأدب السماوي الكريم الكفيل بالصيانة والعفاف وحفظ الكرامة والشرف مُعَمِّمَة لحكم الآية الكريمة في جميع نساء المسلمين إلى يوم القيامة، وإن كان لفظها خاصًّا بأزواج النبي ﷺ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].



ثم بين حِكْمة هذا الأدب السماوي وعلته ونتيجته بقوله جل وعلا: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] فدل ذلك بمسلك الإيماء والتنبيه من مسالك العلة أن علة السؤال من وراء حجاب هي: المحافظة على طهارة قلوب كل من الجنسين غاية الطهارة، حيث عبَّر تعالى بصيغة التفضيل في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ودل هذا التعليل بأطهرية قلوب الجنسين أن حكم الآية عام للنساء المسلمات إلى يوم القيامة، لأن أطهرية قلوبهن وقلوب الرجال من الريبة منهن مطلوبة إجماعًا فلا يصح لقائل أن يقول: المطلوب طهارة قلوب أزواج النبي ﷺ فقط، وطهارة قلوب الرجال من الريبة معهن فقط، بل ذلك مطلوب في جميع النساء إلى يوم القيامة كما لا يخفى، فدل ذلك على أن العلة المشار إليها بقوله ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ مقتضية تعميم هذا الحكم السماوي النازل بهذا الأدب الكريم المقتضي كمال الصيانة والعفاف والمحافظة على الأخلاق الكريمة والتباعد من التدنس بالريبة، فسبحان من أنزله ما أعلمه بمصالح خلقه وتعليمهم مكارم الأخلاق!

ولو سلمنا تسليمًا جدليًّا أن آية ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ خاصة بأزواج النبي ﷺ كما يقوله بعض أهل العلم وجميع دعاة السفور -فإن أزواج ﷺ خير أُسوة وأفضل من يقتدي بهن نساء المسلمين، ولا سيما في أدب سماوي تُصان به الكرامة والشرف والعفاف، فالاقتداء بهن في ذلك أولى من الاقتداء بإناث الإفرنج في الإباحية البهيمية القاضية على الأخلاق والشرف قضاءً لا يترك

للفضيلة والحفاظ أثرًا، ولا يصح لعاقل منصف أن ينازع في أن الاقتداء بأزواج النبي ﷺ في تعليمٍ بوحي سماوي يحقق الحفاظ على الشرف والصيانة والكرم والعفاف والنزاهة والبعد من تقزز القلوب بأدناس الريبة.. خير وأولى من تقليد إناث الإفرنج الكافرات في كل ما يدنس العرض ويقضي على الكرامة والفضيلة، فمن حاول منع بنات المسلمين من الاقتداء بأزواج النبي ﷺ في ذلك الأدب السماوي الكريم، فهو مريض القلب غاشٌّ لأمته أشد الغش، و«من غشنا فليس منا».

ويفهم من مفهوم المخالفة -المعروف في الأصول بدليل الخطاب- في الآية أن الاختلاط وعدم الاحتجاب أنجس وأقذر لقلوبكم وقلوبهن، لأن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. يدل بمفهوم مخالفته أنكم إن سألتموهن متاعًا مباشرة لا من وراء حجاب أن ذلكم ليس أطهر لقلوبكم وقلوبهن بل هو أنجس لقلوبكم وقلوبهن.



ومن الأدلة القرآنية على ذلك: أن الله تعالى أمر كل واحد من الجنسين بغض البصر عن الآخر، وبين أن ذلك الأدب السماوي أزكى لهم، أي أطهر من الريبة، وهدَّد من لم يمتثل للأمر من الجنسين بأنه خبير بما يصنع لا يخفى عليه منه شيء، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠] فانظر قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾ تجده يتضمن أدبًا سماويًّا فيه غاية المحافظة على الفضيلة من أقذار الريبة.

وانظر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ فإنه تهديد عظيم لمن لم يغض طرفه بل تركه يتمتع بما حرمه الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ [النور: ٣١] إلى آخر الآيات، وفيها تصريح الله جل وعلا بأمره كلاً من الجنسين بغض الطرف عما لا يحل له من الآخر،وأتبع قوله: ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ بقوله: ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ فبدأ بالأمر بغض البصر قبل الأمر بحفظ الفرج؛ لأن النظر بالبصر هو السبب في الزنا بالفرج، لأن النظر بريد الزنا فقد يُمتّع الرجلُ عينه بالنظر إلى امرأة جميلة، فيستولي حبها على قلبه فيدغدغهما ذلك إلى الفاحشة، ولا سيما في هذا الزمان الذي نُزِعَت فيه خشية الله من القلوب وانتشر فيه الفساد والإباحية، فلا تكاد ترى من يغض بصره حياءً من الله وخوفاً منه إلا من شاء الله من القليل النادر، نعوذ بالله من الخذلان وطمس البصيرة.

وقد بين مسلم بن الوليد الأنصاري في شعره سوء عاقبة النظر المحرم بقوله:

كسبت لقلبي نظرة لتسره •• عيني فكانت شقوة ووبالاً

ما مرَّ بي شيء أشد من الهوى •• سبحان من خلق الهوى وتعالى

وإذا تأملت هذه الآداب السماوية المذكورة في هذه الآية علمت أن دعاة السفور إلى الاختلاط يعارضونها بفلسفة شيطانية يكمن من ورائها ضياع الشرف والعفاف، ويتحصل بسببها تدنيس الأعراض وتقذير الفرش وعدم سلامة الأنساب وعدم صفائها من أقذار الاختلاط.

وإيضاحه: أن من يدعو إلى اجتماع الطالبات في عنفوان شبابهن ونضارة حسنهن، حال كونهن في أزياء إفرنجية مغرية مثيرة للغريزة الطبيعية؛ لانكشاف الرؤوس والوجوه والأعناق وغير ذلك من أبدانهن، مع كونهن في غاية التصنُّع والتجمُّل، مع الشباب الذين تشتعل فيهم نار الغريزة الطبيعية والشهوة بمقتضى شبابهم وميلهم الطبيعي الجبلِّي إلى التمتع بالنساء، والحالُ أنه لا وازع من دين ولا مروءة يَزَع الذكور عن الإناث ولا الإناث عن الذكور حسب التقاليد المتَّبعة، والجميع مجتمعون في محلٍّ واحد ينظر كل فريق منهم إلى ما يدعو إلى الفتنة من جمال الآخر. فكأنه يقول لهم: إني مهدت لكم وسهلت لكم كل طريق إلى ارتكاب ما لا ينبغي، وإشباع الغرائز بطريق غير مشروعة، مدنسة للأعراض والفرش والأنساب. وكأَن الشيطان يقول لأولئكم: قولوا للمؤمنين لا يغضوا أبصارهم ولا يحفظوا فروجهم وقولوا للمؤمنات كذلك.

وهذا وإن لم يصرحوا به فهو معنى ما فعلوا من الأسباب المفضية له كما لا يخفى على كل منصف.



أيها الأب الكريم المؤمن العربي الشهم بأيِّ مسوِّغ من عقل أو دين أو مروءة أو إنسانية تترك فلذة كبدك التي هي ابنتك مائدة سبيلًا تمتع بجمالها كلُّ عينٍ فاجرة غدرًا وخيانة ومكرًا وظلمًا لذلك الجمال الذي يُستغلّ مجانًا في إرضاء الشيطان وتقليد كفرة الإفرنج تقليدًا أعمى مع إضاعة الشرف والفضيلة والعفاف!؟. والفاجر قد يتمتع بالنظر إلى جمال المرأة وربما بلغت به لذة النظر إلى حد بعيد.

ألا ترون قول بعضهم في محبة النظر الحرام:

قلت اسمحوا لي أن أفوز بنظرة •• ودعوا القيامة بعد ذاك تقوم



مع أن فلذة كبدك التي هي ابنتك لو ربيتها تربية إسلامية في حنان وصيانة ومحافظة على الشرف والفضيلة لكانت هي جوهرة الدنيا وأنفس شيء موجود فيها، وقد قال ﷺ: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة». ولا تكون صالحة إلا بالتربية الدينية.

ولا يصح لعاقل أن يشك في أن اختلاط الجنسين في غاية الشباب ونضارته وحسنه أنه أكبر وسيلة وأنجح طريق إلى انتشار الفاحشة وفشو الرذيلة بين الجنسين.

ولا شك أنهما بحكم كونه زميلها وهي زميلته في الدراسة أنهما يخلوان كما يخلو الزميل بزميله في منتزهات ومواضع السباحة في الماء ومواضع مراجعة الدروس، وخلوه بها طريق إلى ارتكاب ما لا ينبغي لا ينكرها إلا مكابر، والسبيل الموصلة إلى ذلك سبيل سيئة كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] فصرح بأنه فاحشة وأن سبيله سيئة. والفاحشةُ هي: الخصلة التي بلغت غاية القبح والسوء، وكل شيء بلغ النهاية في شيء فهو فاحش فيه، ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته:

أرى الموت يَعتام الكرامَ ويصطفي •• عقيلةَ مال الفاحش المتشدِّد

فقوله «الفاحش» أي البالغ غاية البخل.

وتأملوا لم قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ ولم يقل: ولا تزنوا؛ لأن النهي عن القرب منه يستلزم التباعد من جميع الوسائل التي توصل إليه، ولأن من قرب من الشيء كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه. فما أجمل تعاليم القرآن وآدابه السماوية، وما أحسن ما تدعو إليه من النزاهة والفضيلة والتباعد عن الرذائل.

وأما أدلة السنة: فقد ثبت عن النبي ﷺ من حديث عقبة بن عامر الجهني - رضي الله عنه - قال: «إياكم والدخول على النساء» فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال: «الحمو الموت» انتهى، أخرج هذا الحديث الشيخان وغيرهما.

أما البخاري فقد أخرجه في كتاب النكاح في باب لا يخلو رجل بامرأة إلا ذو محرم إلخ. وأما مسلم فقد أخرجه في كتاب السلام في باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها.

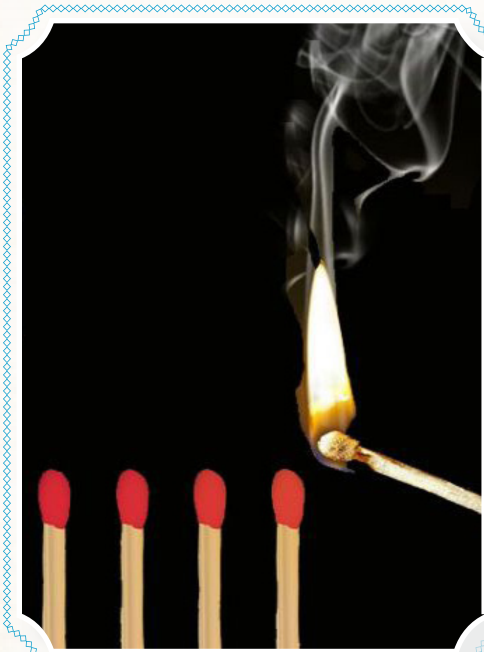
والمراد بالحمو فيه قريب الزوج الذي ليس بمحرم لها كأخيه وابن أخيه وعمه ونحو ذلك، فقد صدَّر النبي ﷺ كلامه في هذا الحديث بصيغة التحذير التي هي: «إياكم والدخول على النساء» وهو تحذير شديد نبوي من الاختلاط بهن، ثم لما سأله الأنصاري عن قريب زوجها يدخل عليها؟ عبَّر ﷺ عن دخوله عليها بالموت، والموت هو أفظع حادث يقع في الإنسان بالدنيا كما قال الشاعر:



والموت أعظم حادث •• مما يمر على الجبِلَّة

والجبلَّة: الخلق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤].

فتأملوا قوله ﷺ في دخول قريب الزوج على زوجته: «الحمو الموت» لتدركوا أن اختلاط الرجال الأجانب بالنساء الأجنبيات أنه هو الموت. والظاهر أنه ﷺ إنما سماه موتًا لأنه يؤدي إلى فاحشة الزنا وهي إماتة للفضيلة والشرف والدين، فهو موت أدبي ديني أعظم من الموت الحسي بمفارقة الروح للبدن؛ لأن ذلك إن وقع للمطيع انتقل إلى أحسن حال وأتم نعمة.



وبما ذكرنا يتضح أن الدعوة إلى الاختلاط والسفور دعوة إلى الموت، ولم يسمه النبيُّ ﷺ موتًا إلا لشدة ضرره وعظم خطره كما لا يخفى.

وساق مسلم بن الحجاج -رحمه الله- في «صحيحه» بعد أن ساق الحديث المذكور بسنده عن الليث بن سعد أنه قال: الحمو أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج كابن العم ونحوه.

قال النووي في شرحه لمسلم في الحديث المذكور: «وأما قوله ﷺ «الحمو الموت» فمعناه أن الخوف منه أكثر من غيره والشر يتوقع منه والفتنة أكثر؛ لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه، بخلاف الأجنبي» انتهى محل الغرض منه.

وهذه الصفة التي في الحمو الذي هو قريب الزوج هي موجودة بعينها في الزمالة في الدراسة، فالزميلة تتباحث مع زميلها فتذاكره ويذاكرها، ويخلو بها من غير إلفاتِ نظرٍ؛ لأنه زميلها وشريكها في دروسها، فهو موت كما ترى.

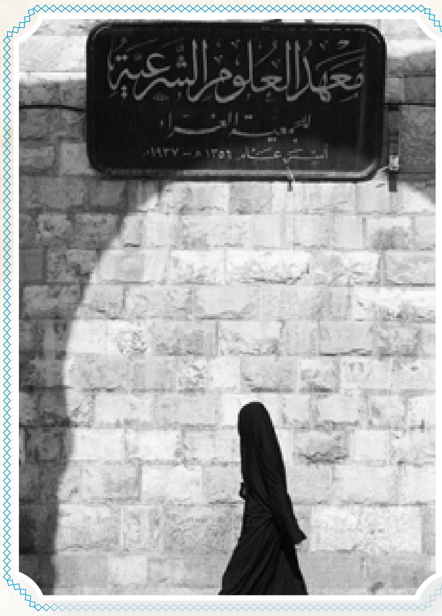
وقال ابن حجر في «فتح الباري» في شرح الحديث المذكور: «قوله: «إياكم والدخولَ» بالنصب على التحذير، وهو تنبيه المخاطب على محذور ليتحرَّز عنه كما قيل إياك والأسد. وقوله: «إياكم» مفعول لفعل مضمر تقديره: اتقوا، وتقدير الكلام: اتقوا أنفسكم أن تدخلوا على النساء والنساء أن يدخلن عليكم. ووقع في رواية ابن وهب بلفظ: «لا تدخلوا على النساء». وتضمن منع الدخول منع الخلوة بها بطريق الأولى».

ثم فسر قوله ﷺ: «الحمو الموت» بالتفسيرات المعروفة عند علماء الحديث، وكذلك النووي والذي ذكرنا هو أظهرها.



فهذا الحديث الصحيح الذي اتفق عليه الشيخان عن النبي ﷺ صريح في التحذير البالغ من مخالطة الرجال والنساء، وأن الاختلاط إذا كانت طريقه سهلة كأقارب الزوج أنه الموت. فلا يحسن بكم أيها المسلمون أن تضربوا الحائط بتحذير سيد الخلق ﷺ لكم من مخالطة إناثكم وذكوركم، وأن تتجاهلوا أنه هو الموت كما صرح به الصادق المصدوق ﷺ. ولا يخفى أن اجتماع الجنسين في مقرٍّ واحد بعضهم جنب بعض أنه مخالف لتحذير النبي ﷺ، ومن أشنع الأشياء التلاعب بتحذير أبي القاسم ﷺ لأجل طاعة الشيطان وتقليد كافرات الإفرنج تقليدًا أعمى.

واعلموا أن اسم الزنا قد يُطلق على الجميع في الجملة أمام المدرس وقت الاجتماع، إلا أنه زنًا دون زنا، فقد روى مسلم في «صحيحه» بإسناده الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما ما نصه:



عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قاله أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة؛ فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق، والنفس تمنَّى وتشتهي والفرج يصدِّق ذلك أو يكذبه».

وفي لفظ في «صحيح مسلم» قال: «كُتِبَ على ابن آدم نصيبه من الزنا مدركٌ ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجْل زناها الخُطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويُصَدِّق ذلك الفرج أو يكذِّبه» هذا لفظ مسلم في «صحيحه».

وهذا الحديث المذكور رواه البخاري أيضًا وفيه التَّصريح بزنا العينين والأُذنين واللسان والرجل واليد، ولا يخفى أن الطلبة والطالبات في وقت الاجتماع للدروس وفي الفسح التي بين الدروس، وفي المنتزهات ومواضع السباحة في الماء، ومواضع المذاكرة تزني عيونهم وألسنهم وأيديهم، وأن فروجهم وقت إمكان الفرصة لا تُكَذِّب ذلك وإنما تصدِّقه؛ لعدم الوازع الديني وعدم العقوبة الرادعة عن ذلك. والإفرنج الذين يقلدونهم في جميع ذلك معلوم علمًا ضروريًّا أن فروجهم لا تكذِّب ما تتمناه قلوبهم من ذلك بل تصدِّقه، وذلك أمر معلوم مفروغ منه.

والأحاديث بمثل ما ذكرنا كثيرة، ولنكتفِ منها هنا بما ذكرنا لأن فيه الكفاية لمن أراد الحق.



النبي المُعلِّم



علامة الهند الكبير: شبلي النعماني

رحمه الله*

كان تنسيق الشئون الدينية للمسلمين أمراً ذا حتمية قصوى بين كل المهام الإدارية التي كانت ممارستها ضرورية لتوطيد استتباب الأمن في البلاد.

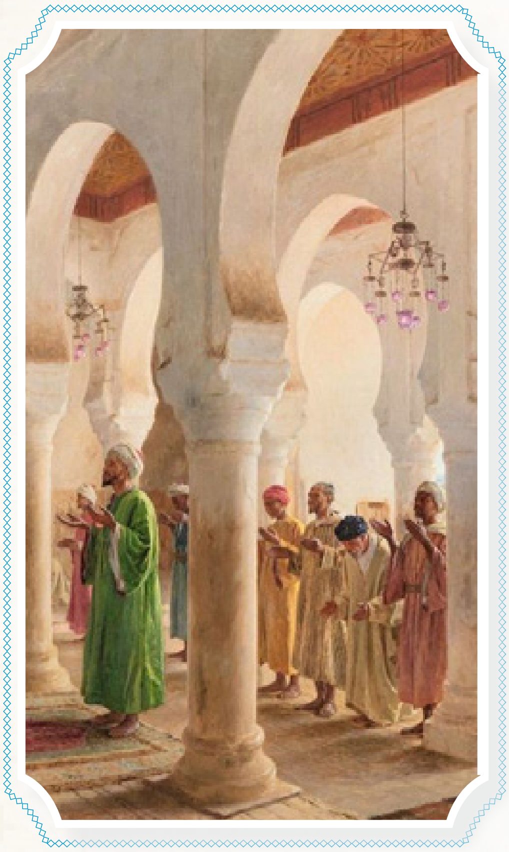
كان لدى اليهود عشيرة معينة للقيام بمهامهم الدينية، بحيث لم يكن لأية جهة أخرى الحق في القيام بها. أما النصارى فلم تكن لديهم عشيرة محددة لذلك، بيد أنه قد انبثقت من بينهم طبقة خاصة أقرت المهام الدينية حقاً لها.

---

* العلامة شبلي النعماني، دائرة معارف في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم-، ترجمة: د. يوسف عامر، طبع على نفقة: د. حسن عباس زكي، ٢/ ٧٠ وما بعدها.

أما الهندوس، فكل الطبقات لديهم ليست جديرة بالمناصب والمهام الدينية عدا البراهمة، ولكن الشريعة التي أرسى محمد رسول الله ﷺ دعائمها في العالمين، لم تكن بحاجة إلى تحديد طبقة أو أفراد عشيرة بعينها للقيام بهذه الخدمات الدينية، بل لكل امرئ نطق شهادة الإسلام الحق الكامل في ذلك.

دعاة الإسلام



كتب مؤرخ غربي مشهور أن الإسلام حين جاء المدينة، ترك منصب ومقام النبوة واتجه إلى الملوكية والسلطنة، وأصبح يعني وقتئذ، التسليم والإقرار بحكومة محمد ﷺ [1] بدلاً من الإيمان بالله تعالى. كان هدف الإسلام هو الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة:

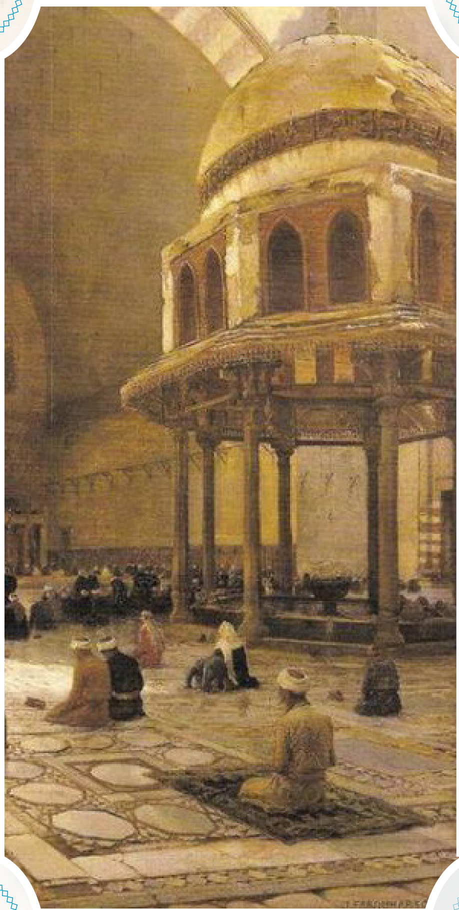
﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وعليه، كان كل مسلم واعظاً ومحتسباً، داعية للدين وعالماً بأمور الشريعة، وبعد أن بلغ الجهل بين العرب قبل الإسلام إلى اعتبار القراءة والكتابة مثلبة عند أغلب الأشراف، سار كل بيت مدرسة للفقه والحديث والتفسير. مع ذلك، ولأنه لم يتوفر الوقت الكافي للتفقه والتدريس لدى كل فرد، تقرر أن يكون بين كل جماعة وقبيلة مجموعة من الناس كي تقوم بمهمة الدعوة والتعليم. ومن ثم جاء في القرآن الكريم:

---

١ انظر مقالة السيد فلهاوزن عن الإسلام (دائرة المعارف).

﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]



تعاليمه وتربيته ﷺ

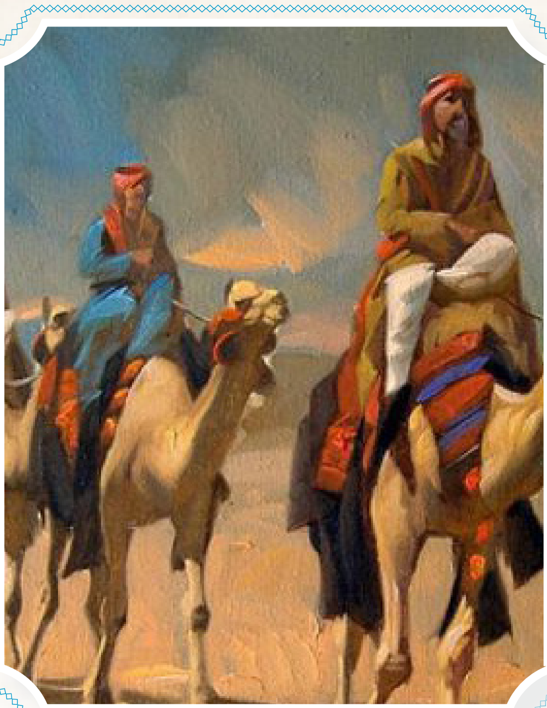
ولأن الغاية المنشودة كانت هي إعداد جماعة لا تكتفي بمعرفتها لأوامر ونواهي الشريعة فقط بل يغلب عليها الطابع الإسلامي بفضل ملازمتها الدائمة للرسول ﷺ، ولأنها تتحلى بكامل الصفات النبوية من قول وعمل وطريقة الحديث، والسلوك والخلق، وآداب المجلس؛ حتى يمكنها أن تمثل أسوة حسنة ونموذجاً حياً للأمة بأسرها. لذا كانت تأتي جماعة بذاتها من كل قبيلة عربية إلى رسول الله ﷺ، لتنعم بتعاليمه النورانية.

كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهوا في دينهم[٢].

كان الرسول ﷺ يرشد دعاة الإسلام -الذين كان يُرسلهم إلى سائر العرب- إلى أن يُحفزوا الناس على التخلي عن أوطانهم والسفر إلى المدينة للإقامة بها، وذلك ما سمي بالهجرة. ومن ثم كانت البيعة

---

٢ تفسير الخازن، سورة التوبة، «وما كان المؤمنون لِيَنْفِروا كافّة.... الآية».



نوعين: بيعة الأعراب، وبيعة الهجرة. فكانت بيعة الأعراب للبدو الذين كانوا يقيمون في المدينة عدة أيام فقط لتلقي العلم. وقد ورد في مختصر مشكل الآثار: أنه حين أسلم عقبة الجهني سأله الرسول ﷺ أيبايع بيعة الأعراب أم بيعة الهجرة؟

ثم كتب المؤلف يقول: إن البيعة من المهاجر توجب الإقامة عنده، ليصرف فيما يصرف فيه من أمور الإسلام، وبخلاف البيعة الأعرابية.

وعليه كانت عشائر عربية كثيرة تهاجر من أوطانها إلى المدينة. فلما قدم أبو موسى الأشعري رضي الله عنه كان في صحبته ثمانون رجلاً، استوطنوا جميعاً المدينة. هذا ويتبين من خلاصة الوفاء أنه كان يوجد بالمدينة مساجد خاصة بقبيلة جهينة وغيرها من القبائل التي كانت قد هاجرت إلى المدينة، وشيدت لنفسها مساجد مستقلة بعد أن كان المسجد النبوي لم يعد يسع الجميع.

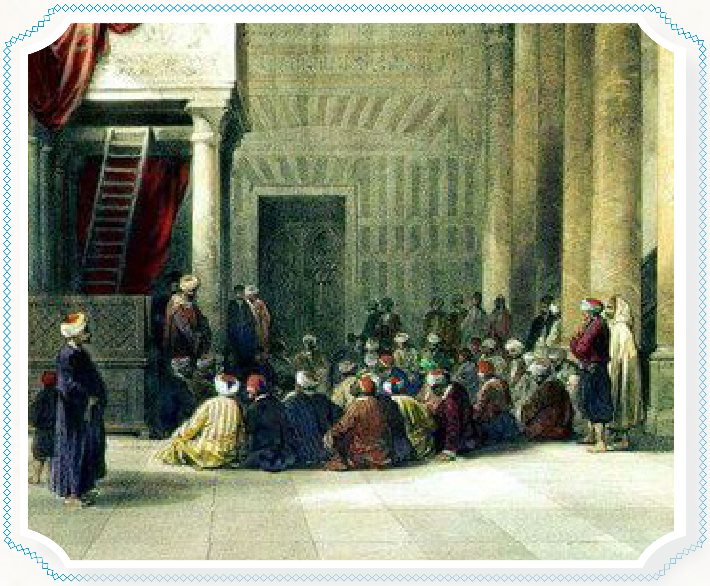
وكانت هناك طرقاً عديدة للتعليم والإرشاد.

- **إحداها:** أنهم كانوا يتعلمون المسائل الضرورية في الفقه والعقائد في غضون عشرة أو عشرين يوماً أو شهراً أو شهرين، ثم يعودون إلى قبائلهم ليعلموهم. ومن ذلك أن مالك بن الحويرث قدم في رفقة وفد فأقاموا عشرين يوماً، تلقوا خلالها التعاليم الضرورية، ولما هموا بالرحيل قال لهم الرسول ﷺ: ارجعوا إلى أهليكم، فعلّموهم ومُروهم وصلّوا كما رأيتموني أُصلي[٣].

---

٣ البخاري، باب رحمة البهائم.

● **والطريقة الثانية:** كانت خاصة بالتدريس؛ وهي أن أناساً كانوا يقيمون بالمدينة بصفة دائمة يتلقون قواعد الشريعة ومكارم الأخلاق. فكانت لهم صفة خاصة يدرسون فيها، وكان أكثر هؤلاء من الذين تحرروا من أسر كل ما يربطهم بالحياة الدنيوية الزائفة، ووهبوا أغلب أوقاتهم للزهد والعبادة وخدمة العلم.



ورد في (المشكاة) كتاب العلم، أن الرسول ﷺ دخل المسجد ذات مرة وكان به حلقتان، حلقة ذكر وحلقة درس، فذهب ﷺ وجلس في حلقة الدرس.

كان يطلق على طلاب العلم في اصطلاح ذلك الزمان «القراء». ومن ثم يرد هذا الاسم في مواضع عديدة بـ(البخاري).

وكان الرجال الذين ذهبوا إلى عرينة للتعليم والإرشاد واستشهدوا[٤] غدراً على أيدي المشركين، ممن تلقوا العلم في تلك الحلقات التعليمية. واقترن ذكرهم في كتب الحديث بلقب (القراء) هذا.

كتب أرباب السيرة: أن الرجل الذي يتزوج من بين هؤلاء الناس، كان يخرج منها، وينضم إليها آخرون بدلاً منه.

على الرغم من أهل الصُفة كانوا معدمين لدرجة أنه لم يكن لدى أحدهم أكثر من ثوب واحد، كانوا يربطونه من العنق ويسدلونه إلى الركبتين، بحيث يصلح رداءً وإزاراً في آن واحد، ومع ذلك لم يكن هؤلاء

٤ صحيح البخاري، غزوة بئر معونة. الحديث (٣٩٩٩).

الرجال يألون جهداً، بل كانوا يجمعون الحطب من الغابات ويبيعونه، فيتصدقون بنصف ثمنه، فيما يُوزع النصف الآخر فيما بينهم. ومن ثم كان الليل وقتاً للدرس وتحصيل العلم.



يتضح من بعض الروايات أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، كان من بين معلمي هذه الفصول الدراسية، إذ كان يُعرف بعلمه، وهو من أرسله عمر رضي الله عنه إبان خلافته إلى فلسطين من أجل تعليم الناس هناك الفقه والقرآن الكريم. رُوي عن عبادة بن الصامت في (أبي داود): «علّمتُ أناساً من أهل الصفة القرآن والكتاب، فأهدى إليّ رجل منهم قوساً».

وفي رواية أخرى أن الرسول ﷺ لم يأذن لعبادةَ بقبول هذه الهدية. ويتبين أيضاً من بعض الروايات أنه فضلاً عن حلقات أصحاب الصُّفة العلمية، كان ثَم مكان آخر يأوي إليه أصحاب الصفة ليتعلموا فيه ليلاً، فقد ورد في (مسند الإمام ابن حنبل) عن أنس، كانوا سبعين فكانوا إذا جهم الليل انطلقوا إلى معلّم لهم بالمدينة فيدرسون الليل حتى يصبحوا».

ندر شيوع القراءة والكتابة عند العرب، ولكن حين ظهر الإسلام بدأ مقترناً بفن الكتابة، فكان تدوين القرآن الكريم من أجلّ الضروريات شأناً. وعليه اهتم الرسول ﷺ منذ البداية بتوسيع نطاق الكتابة... ومن لم يستطع دفع الفدية من الأسرى، أطلق سراحه على أن يمكث في المدينة فترة يُعلم خلالها

عدداً من المسلمين الكتابة. ويُؤكد حديث أبي داود المذكور آنفاً أن الكتابة كانت ضمن ما كان يتعلمه أصحاب الصُّفة، إذ أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه كان يُعلّم الكتابة بجانب القرآن الكريم.

بناء المساجد

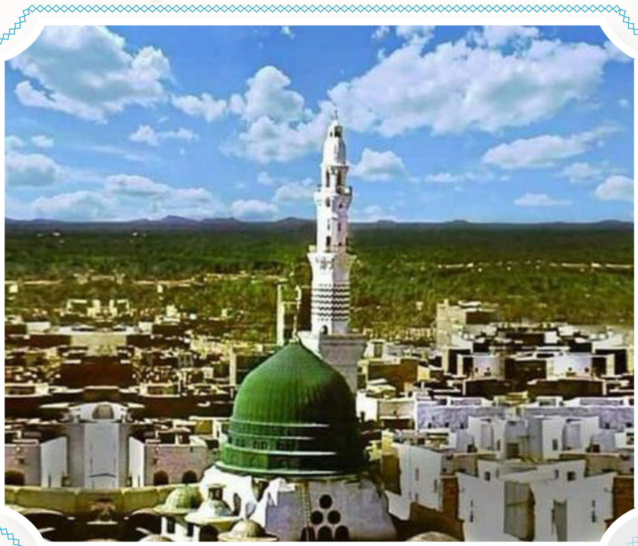


كان الرسول ﷺ ينفر بطبعه من الجاه والخيلاء، ولذا لم يكن يحبذ إنفاق المال على الطين والحجارة، ولكن لأن ذكر الله والتسبيح بحمده كان الغاية المنشودة لكل الأمور الإسلامية.

لذا كان المسجد أول ما تُعنى به القبائل بمجرد إسلامها، علاوة على أنه لم يكن مقراً لإقامة الصلاة فحسب، بل كان في الحقيقة أيضاً أداةً تُسهم بصورة فعّالة في تأصيل أواصر الوحدة والعلاقات الاجتماعية بين أفراد القرية أو الحي من المسلمين، إذ كانوا يلتقون فيه خمس مرات يومياً، ومن ثم كان الرسول ﷺ يؤكد بشدة على صلاة الجماعة وكان في المدينة ذاتها قبائل كثيرة، وكان لكل منها حيها الخاص بها وبه مسجدها.

كتب أبو داود في كتاب (المراسيل) بسنده أن المدينة وحدها كانت تعمر في عهد رسول الله ﷺ بتسعة مساجد، يتصدر كل مسجد منها حياً من الأحياء. وأسماؤها كالتالي: مسجد بني عمر، مسجد بني ساعدة، مسجد بني عبيد، مسجد بني سلمة، مسجد بني رايح، مسجد بني زريق، مسجد غفار، مسجد أسلم، مسجد جهينة.

وبالإضافة إلى ذلك ورد في روايات متفرقة أسماء مساجد لقبائل عديدة من بينها: مسجد بني خدارة، مسجد بني أمية (قبيلة أنصارية)، مسجد بني بياضة، مسجد بني الحبلي، مسجد بني عصية، مسجد أبي فيصلي، مسجد بني دينار، مسجد أبي بن كعب،مسجد النابغة، مسجد ابن عدي، مسجد بلحارث بن خزرج، مسجد بني حطمة، مسجد الفصيح، مسجد بني الحارثة، مسجد بني ظفر، مسجد بني عبد الأشهل، مسجد واقم ، مسجد بني معاوية، مسجد بني قريطة، مسجد بني وائل، مسجد الشجرة[٥].



يثبت من الروايات أيضاً أن بناء المساجد خارج نطاق المدينة المنورة قد اقترن بنشر الإسلام، ومن ثم عمرت ربوع العرب ببيوت الله التي يُرفع فيها اسمه خمس مرات في اليوم والليلة. لذلك اعتاد الرسول ﷺ في غزواته أن ينتظر طوال الليل فإذا ما سمع أذان الفجر، يشن الهجوم.

ومن هذا أنه في غزوة، تناهى إلى سمعه الكريم ﷺ نداء «الله أكبر» فقال: «عَلَى الْفِطْرَةِ»، ولما سمع بعدها أشهد أن لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، قال: «خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ» فَنَظَرُوا فَإِذَا هُوَ رَاعِي مِعْزًى[٦]. وهذا أيضاً ما أُمر به كل مجاهدي الإسلام، ففي ذات مرة أرسل النبي ﷺ إحدى السرايا موصياً إياها بـ: «إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم صوتاً فلا تقتلوا أحداً»[٧].

---

٥ اقتبست كل هذه التفاصيل نصياً من شرح البخاري، ج ٢، ص٤٢٨.

٦ صحيح مسلم، الجزء الأول كتاب الأذان، باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سُمع فيهم الآذان.

٧ أبو داود، كتاب: الجهاد في دعاء المشركين.

نستنتج من هذه الروايات أمرين:



أحدهما: بمدى اتساع رقعة الإسلام في عهد النبوة.

والثاني: أن القبائل التي كانت تدخل الإسلام، كانت تبني مساجد خاصة بها، وكان يُرفع فيها الأذان خمس مرات في اليوم والليلة.

على الرغم من أن المساجد التي بُنيت في ذلك الحين لم تصمد طويلاً أمام عوامل التعرية، نظراً لما شاع وقتئذ من شظف العيش الذي ترتب عليه بالطبع بساطة بناء هذه المساجد. وبذا اندثر جزء كبير من هذه الباقيات الصالحات، ودفن معها اسمها وتاريخ بناءها. إلا أن تواريخ إنشاء المساجد التي صمدت لفترة طويلة تبين أن سائر أنحاء العرب لم تكن تخلو من هذه الآثار الدينية[٨].

حين أسلمت قبيلة عبد القيس البحرينية، بنت مسجدها الذي شهد أول صلاة للجمعة بعد مسجد رسول الله ﷺ. فورد في كتاب الجمعة بـ(البخاري): عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: إن أول جمعة جُمّعت بعد جمعةٍ في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبدالقيس بجُواثَى من البحرين.

ولما أسلم أهل الطائف، أشار عليهم الرسول ﷺ أن يقيموا مسجدهم في الموضع الذي كان فيه إلههم[٩]. روي عن ناطق بن علي أنه قال: حين امتثل قومي بين يدي رسول الله ﷺ وقلنا إن بِأَرْضِنَا بِيَعَةً

---

٨ النسائي، كتاب: المساجد، ج١ ص١١٨.

٩ زاد المعاد، ج١ ص٤٨٥.

لنا، أعطانا ﷺ ماء وضوئه، وقال: «اخرجوا فَإِذَا أَتَيْتُمْ أَرْضَكُمْ فَاكْسِرُوا بِيعَتَكُمْ وَانْضَحُوا مَكَانَهَا بِهٰذا الْمَاءِ وَاتَّخِذُوهَا مَسْجِدًا».

فعاد هؤلاء القوم إلى بلدهم، وبنوا مسجداً وفق ما أرشدهم إليه الرسول ﷺ[١٠].

رغم أن بلاد العرب جميعاً كانت تعمر بالكثير من مثل هذه المساجد، إلا أننا لا نستبين أية معلومات من كتب الحديث إلا عن المساجد التي بُنيت في المدينة وما حولها. ورد في (صحيح مسلم) أن قرية الأنصار التي كانت تتاخم المدينة، قد أُرسل إليها منادٍ من قِبل رسول الله ﷺ، في إحدى أيام عاشوراء، فنادى فيهم: «مَن كان صائماً فليُتم صومه، ومَن أفطر فليصُم بقية يومه».

بعد ذلك طبّق الصحابة الكرام الأمر الذي ورد في هذا الإعلان بجزم تام، فصاموا وأمروا أولادهم بالصيام، حتى أنهم كانوا يصطحبوهم إلى المساجد، فإذا ما بكوا من الجوع حاولوا إرضاءهم بالحلوى[١١].

أفرد الإمام البخاري في (صحيحه) باباً كاملاً عن نسبة المساجد إلى الأفراد، وذُكر صراحةً في الأحاديث التي أوردها في هذا الباب مسجد بني الزريق. كان أنس بن مالك رضي الله عنه، يصلي العصر مع رسول الله ﷺ ثم يذهب إلى قريته فيجد الناس ينتظرونه في مسجدهم. فيقول لهم: لقد قُضيت الصلاة في المسجد النبوي. عندئذ كانوا يقيمون الصلاة[١٢].

---

١٠ سنن النسائي، كتاب المساجد ص١١٨.

١١ صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب من أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه.

١٢ مسند ابن حنبل، ج٣ ص٢٣٢.



يتضح جلياً من هذه الروايات أن مساجد هذه القبائل كانت مستقلة بذاتها. كما يثبت أيضاً من روايات كتب الصحاح أن بعض الناس كانوا يصلون في جماعة رسول الله ﷺ ثم يذهبون إلى مساجد أحيائهم فيؤمّون قومهم فيها. وهذا ما كان يفعله معاذ بن جبل. فضلاً عن القبائل التي كانت تستوطن المدينة، كانت قبائل المهاجرين تبني مساجد لها أيضاً. ورد في طبقات ابن سعد هذا القول: ولجهينة مسجد بالمدينة[١٣].

فضلاً عن استيفاء الاحتياجات الدينية لدى القبائل، كان السبب الرئيسي الآخر وراء بناء المساجد هو أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتبركون ببناءها في المواضع التي صلى فيها رسول الله ﷺ. وقد أفرد الإمام البخاري في صحيحه باباً مستقلاً بعنوان «باب المساجد التي على طريق المدينة والمواضع التي صلى فيها النبي ﷺ»، وأدرج فيها أسماء المساجد العديدة التي بُنيت بصدد ذلك، وعدّدها الحافظ ابن حجر كالتالي:

مسجد قباء، مسجد الفصيح، مسجد بني قريظة، مشربة أم إبراهيم، مسجد بني ظفر أو مسجد بغلة، مسجد بني معاوية، مسجد فتح، مسجد القِبلتين.

كما كتب الحافظ ابن حجر[١٤] أيضاً أن المساجد المبنية بأحجار منقوشة سواء كانت في المدينة أو ما جاورها، قد شرفت جميعاً بصلاة رسول الله ﷺ فيها، إذ أن عمر بن عبدالعزيز قد تحقق من هذا الأمر من أهل المدينة أنفسهم وقتما كان يجدد هذه المساجد[١٥].

---

١٣ طبقات ابن سعد، ج ٤ ص١٧.

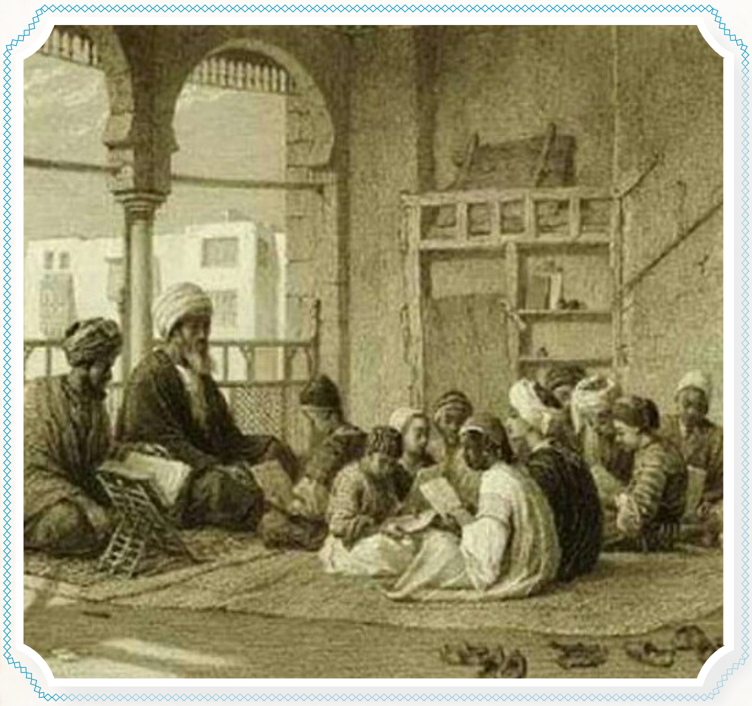
١٤ فتح الباري، ج١ ص٤٧١.

١٥ المرجع السابق.

تعيين أئمة الصلاة

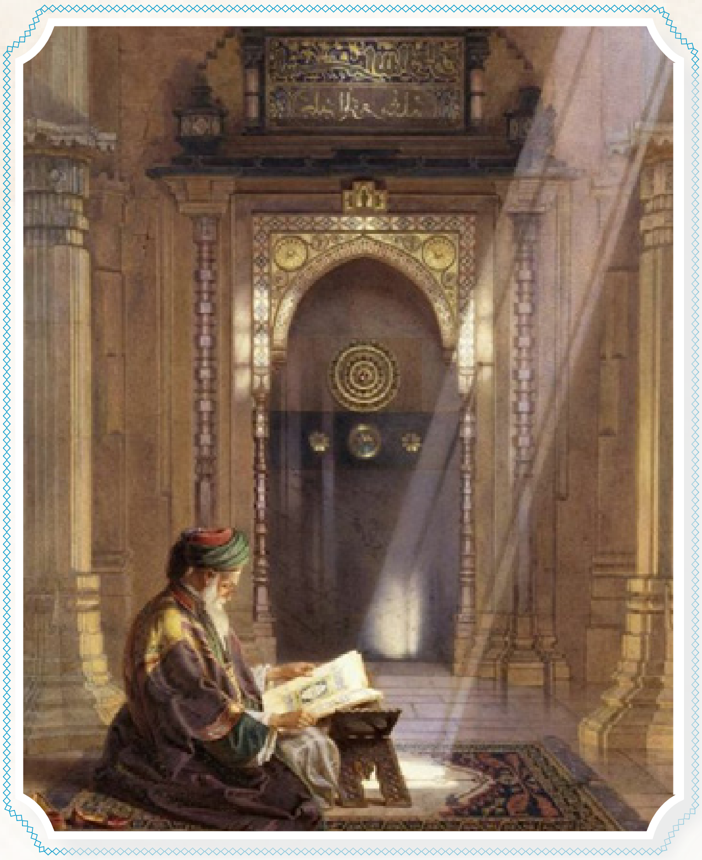
كان من الطبيعي أيضاً أن يقترن بناء المساجد بتعيين أئمة يختص كل منهم بإحدى القبائل، وبصفة عامة فقد جرت عادته ﷺ أن يقوم بتعيين الإمام من بين القبيلة التي كانت تدخل الإسلام ذاتها، على أن يكون أكثرهم حفظاً للقرآن الكريم، ويتساوى جميعهم في نيل هذا الشرف صغيراً كان أو كبيراً، عبداً أو سيداً. وقبل أن يهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة كان إمام المهاجرين فيها سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه.

ولما أسلمت قبيلة جرم كان عمرو بن سلمة الجرمي صبياً صغيراً لا يتعدى السبع أو الثمان سنوات من عمره، ولكنه كان أكثر أهل قبيلته حفظاً للقرآن الكريم، ومن ثم عُين إماماً.



وضع الرسول ﷺ عدة أصول وضوابط لاختيار الإمام منها ما جاء في هذه الرواية:

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤمّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء، فأعلمهم بالسُّنة، فإن كانوا في السنة سواء، فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سِناً». (مسلم).



كان رسول ﷺ يسأل أية قبيلة تمثل بين يديه عن أكثرهم حفظاً للقرآن الكريم، فإن كان بينهم مَن ينعم بهذه الصفة كانوا يذكرون اسمه، فيوليه الرسول ﷺ شرف هذا المنصب، فهكذا تعين عثمان بن أبي العاص إماماً على أهل الطائف. أما إذا تساوَى الجميع في المنزلة الدينية، كان ﷺ يأمرهم بأن يأتموا بأكبرهم سِناً، فهذا ما أمر به محمد ﷺ مالك بن الحويرث حين قُدم إلى المسجد النبوي من قِبل قومه.

يبدو أنه تم تعيين أئمة في كل المساجد التي بُنيت، سواء كانت في المدينة أو على حدودها، أو في أي من الأقاليم العربية. أما القبائل التي كان يتعين فيها عمالاً فأئمتها هم عمالها أنفسهم[١٦] باستثناء المناطق الكبيرة، إذ كان كل منصب منهما مستقلاً بذاته، فكان عمرو بن العاص عاملاً على عُمان، فيما كان أبو زيد الأنصاري إماماً عليها، ولكن من المؤسف أن أسماءهم لم ترد تفصيلياً في كُتب الحديث والسيَر.

---

١٦ مسند ابن حنبل، ج٤، ص٢١٨.



التوحيد

جوهر الحضارة الإسلامية



د. إسماعيل راجي الفاروقي

رحمه الله*

لا شك أن جوهر الحضارة الإسلامية هو الإسلام، وأن جوهر الإسلام هو التوحيد، أي التوكيد أن الله هو الخالق الواحد المطلق المتعال، ورب الكائنات جميعاً وسيدها. هذان المبدآن الأساسيان باديا الوضوح ولم يتطرق الشك بهما قط إلى من كان ينتمي إلى هذه الحضارة أو ساهم فيها، ولم يتعرضا للشك إلا عند المنصرين أو المستشرقين وغيرهم ممن فسّر الإسلام في الماضي القريب.

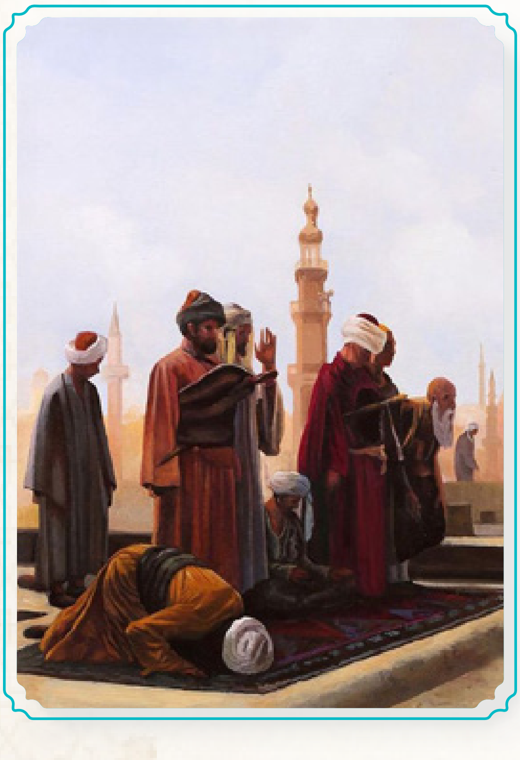
---

* د. إسماعيل راجي الفاروقي ود. لوس لمياء الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة: د. عبد الواحد لؤلؤة، ط1 (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٨م)، ص١٣١ وما بعدها.

والمسلمون، مهما يكن مستوى ثقافتهم، هم على ثقة مطلقة بأن الحضارة الإسلامية تنطوي على جوهر، وأن هذا الجوهر قابل للمعرفة والتحليل والوصف، وذلك هو التوحيد، وتحليل التوحيد بوصفه جوهراً ومبدءاً رئيساً في الحضارة الإسلامية هو موضوعنا.

والتوحيد هو ذلك المبدأ الذي يمنح الحضارة الإسلامية هويتها، ويربط جميع مكوناتها معاً ليجعل منها كياناً عضوياً متكاملاً نُسمّيه حضارة. وفي ربط العناصر المتفرقة معاً، يقوم جوهر الحضارة -وهو التوحيد في هذه الحال- بطبع تلك العناصر بطابعه الخاص، ثم يعيد تكوينها بشكل يتناسق مع العناصر الأخرى ويدعمها. ولا يقوم الجوهر ضرورة بتغيير طبيعة تلك العناصر، بل يحولها ليصنع منها حضارة ويعطيها صفاتها الجديدة التي تكون تلك الحضارة، ويختلف مدى التحول بين ضئيل وجذري، اعتماداً على مدى علاقة الجوهر بالعناصر المختلفة ووظائفها.

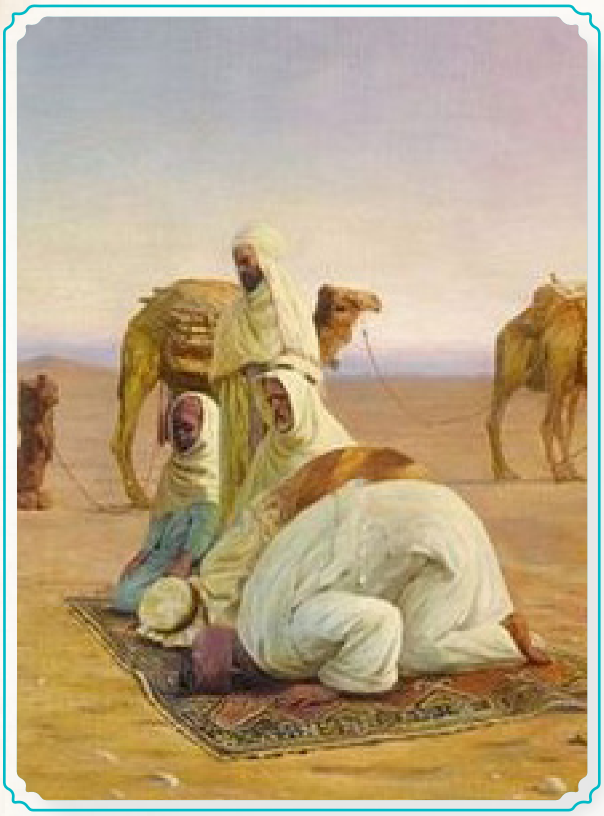
وقد برزت هذه العلاقة في أذهان المسلمين الذين كانوا يتابعون ظواهر الحضارة. لذلك اتخذوا التوحيد عنواناً لأهم أبحاثهم، وأدخلوا جميع الموضوعات الأخرى تحت لوائه، وقد عدوا التوحيد أهم المبادئ الأساس التي تضم أو تحكم جميع المبادئ الأخرى؛ كما وجدوا فيه المنبع الرئيس والمصدر البدئي الذي يحكم جميع الظواهر في الحضارة الإسلامية.



والتوحيد بالعبارة البسيطة المتوارثة هو الاعتقاد والشهادة أن «لا إله إلا الله»، وهذا القول بصيغة النفي، الموجز أشد

الإيجاز، يحمل أعظم المعاني وأغناها في الإسلام قاطبة. وقد تتكثف في جملة واحدة ثقافة كاملة أو حضارة كاملة أو تاريخ بأجمعه. وهذا بالتأكيد هو ما نجده في «الكلمة» أو «الشهادة» في الإسلام.

فكل ما في الإسلام من تنوع وغِنى وتاريخ وثقافة ومعرفة وحكمة وحضارة يجتمع في هذه الجملة البالغة القصر: «لا إله إلا الله».



التوحيد بوصفه نظرة تفسر العالم

التوحيد نظرة عامة إلى الواقع والحقيقة والعالم والزمان والمكان والتاريخ البشري. وبهذا المعنى فهو يشمل المبادئ الآتية:

الغائية

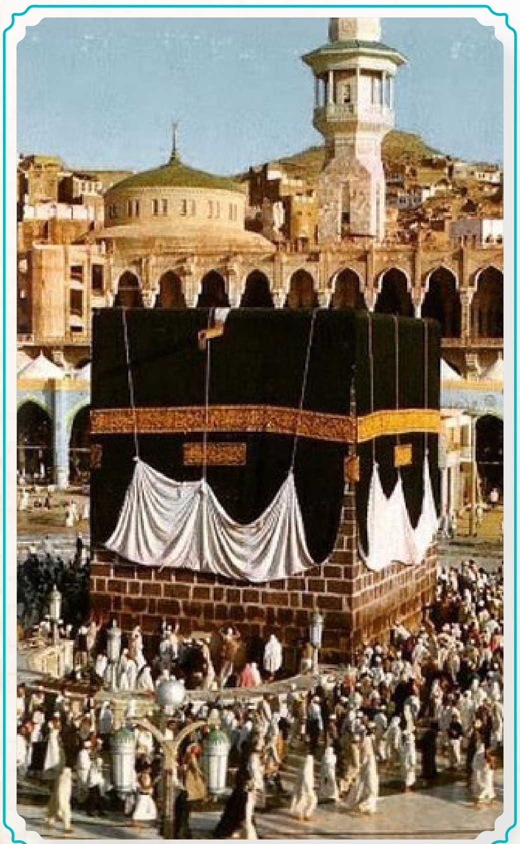
طبيعة الكون غائيّة، أي أنها ذات غاية تخدم غاية لخالقها، وتقوم بذلك عن قصد؛ فلم يُخلق العالم عبثاً ولا لَعِباً، وهو ليس عمل صدفة عارضة، فقد خُلق العالم في أكمل صورة... هو موجود يوجد بقدر يناسبه ويؤدي غاية كونية معينة.

والعالم في الحقيقة «كون» أي خليقة منتظمة، لا «فوضى»، وفيه تحقق إرادة الخالق دوماً، كما تطبق أنساقه ضرورة القانون الطبيعي، لأن هذه الأنساق موجودة في المنطوى من طبيعة الأشياء ذاتها...

والوظائف الجسدية والنفسية عند الإنسان مكملة بهذا المعنى تخضع لما يحكمها من قوانين بالضرورة نفسها التي تخضع بها جميع المخلوقات الأخرى؛ لكن الوظائف الروحية، مثل الفهم والعمل الأخلاقي، تقع خارج حدود الطبيعة تعتمد على صاحبها وتتبع قراره.

وتحقيق إرادة الله في الجوانب الروحية له قيمة نوعية مختلفة عن تحققها بالضرورة عند المخلوقات الأخرى. والتحقق الضروري ينطبق على قيم العناصر المادية أو القيم النفعية وحسب؛ لكن الأداء الحر ينطبق على القيم الأخلاقية. ومع ذلك فإن غايات الله الأخلاقية وأوامره للإنسان تمتلك أساساً في العالم المحسوس، لذا فإن لها جانباً نفعياً. لكن هذا الجانب لا يعطيها صفتها المتميزة، أي كونها خُلقية. إن الأوامر في جانبها القابل للتنفيذ بحرية، أي بوجود إمكان الخروج عليها، هو بالضبط ما يوفّر المهابة التي نسبغها على الأشياء «الأخلاقية».

قدرة الانسان وطواعية الطبيعة



بما أن كل شيء قد خُلق لغاية -بما في ذلك كلية الوجود- فإن تحقيق تلك الغاية يجب أن يكون ممكناً في المكان والزمان وبغير ذلك لا مفر من التشكيك، كما ستغدو الخليقة نفسها، ومسارا المكان والزمان فاقدة ما لها من معنى ومغزى. وبغير هذا الإمكان ينهار «التكليف» أو الالتزام الأخلاقي؛ وتحطم بهذا الانهيار غائية الله أو قدرته. وتحقيق المطلق، أي السبب الإلهي للخلق، يجب أن يكون ممكناً في مجال التاريخ، أي في حدود مسار الزمن بين الخليقة ويوم الحساب.

والإنسان، بوصفه صاحب الفعل الأخلاقي، يجب أن يكون قادراً على تغيير نفسه وأمثاله من البشر، أي: المجتمع، والطبيعة، أي: محيطه، لكي يحقق النسق أو الأمر الإلهي في نفسه كما في تلك جميعاً.

والإنسان بوصفه هدف الفعل الأخلاقي، يجب أن يكون هو وأقرانه ومحيطه قادرين على تلقي الفعل المؤثر للإنسان بوصفه فاعلاً، وهذه القدرة هي عكس قدرة الإنسان الأخلاقية على الفعل، حيث يكون الإنسان فاعلاً. وبغير ذلك تصبح قدرة الإنسان على الفعل الأخلاقي مستحيلة، وتنهار الطبيعة الغائية في الكون. ومرة ثانية، لن يكون ثمة مهرب من التشكيك. ولكي يكون للخليقة غاية -وهذا افتراض ضروري لدى القول إن الله هو الله، وإن عمله ليس عبثاً- يجب أن تكون الخليقة مطواعة، قابلة للتحوّل وقادرة على تغيير جوهرها وبنيتها وأحوالها وعلاقاتها؛ لكي تجسد النسق أو الهدف الانساني أو تجعله ملموساً.

ويصدق هذا على الخليقة بأسرها بما في ذلك طبيعة الإنسان الجسدية والنفسية والروحية. وجميع المخلوقات قادرة على تحقيق ما يجب أن يكون، أي إرادة الله أو نسقه الكامل فيهذا المكان وهذا الزمان.



المسؤولية والحساب

إذا كان الانسان ملزماً بتغيير نفسه ومجتمعه ومحيطه لكي تماشى كلها مع النسق الإلهي، وكان قادراً على فعل ذلك، وإذا كان كل هدف في فعله مطواعاً وقادراً على تلقي فعله وتجسيد غايته، ينتج ذلك بالضرورة أن يكون الانسان مسؤولاً.

والالتزام الأخلاقي مستحيل من دون مسؤولية أو حساب، فما لم يكن الانسان مسؤولاً، وما لم يكن محاسباً على أفعاله، يغدو التشكيك لا مهرب منه تارة أخرى. فالحساب أو تحقق المسؤولية، شرط لازم للالتزام الأخلاقي والإلزام الأخلاقي. وهو يصدر عن طبيعة «المعيارية» نفسها. وليس المهم أن يجري الحساب في المكان/الزمان، أو في نهاية أحدهما أو كليهما، ولكن لا بد له أن يجري.

وطاعة الله، أي القيام بما أمر وتحقيق نسقه، يعني بلوغ الفلاح والسعادة واليسر. وخلاف ذلك، أي معصيته، يستجلب العقاب والعناء والشقاء وآلام الخسران.

التوحيد بوصفه جوهر الحضارة

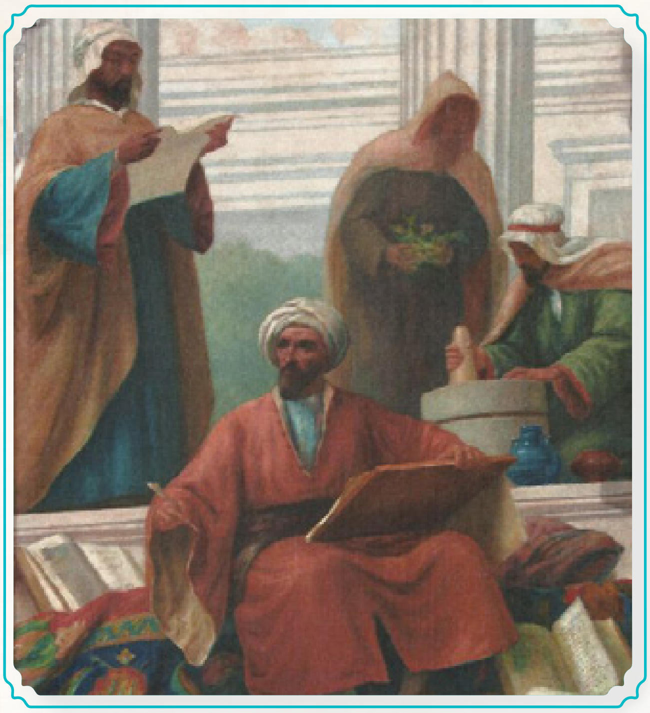
التوحيد بوصفه جوهر الحضارة الإسلامية، له جانبان أو بُعدان: المنهج والمحتوى. يحدد الجانب الأول أشكال تطبيق وتوظيف المبادئ الأولى في الحضارة؛ كما يحدد الجانب الثاني المبادئ الأولى نفسها.

جانب المنهج

يشمل هذا الجانب ثلاثة أسس، هي الوحدة والعقلانية والتسامح. وتحدد هذه الأسس شكل الحضارة الإسلامية، وهو ما يشيع في كل مفصل من مفاصلها.

- الوحدة: لا توجد حضارة بلا وحدة. فما لم تكن العناصر التي تشكل حضارة مـا متحدة متناسجة متناسقة مع بعضها، فإنها لا تشكل حضارة بل خليطاً متراكماً. فمن الضروري وجود مبدأ يوحد العناصر المختلفة ويكتنفها في إطاره. مثل هذا المبدأ يحوّل الخليط من علاقات العناصر مع بعضها إلى بنية منتظمة تميز فيها مراتب الأفضلية أو درجات الأهمية.

وحضارة الإسلام تضع العناصر في بنية منتظمة وتحدد وجودها وعلاقاتها حسب نسق موحد. وقد تكون هذه العناصر في حد ذاتها آتية من مصدر محلي أو أجنبي.



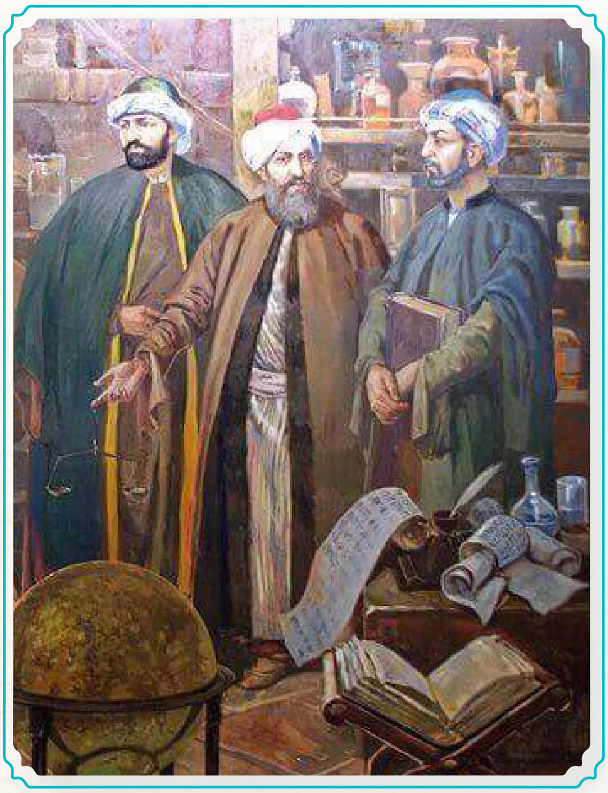
والواقع أن ليس من حضارة لم تقتبس بعض العناصر الغريبة عنها، ولكن المهم أن تقوم تلك الحضارة بهضم تلك العناصر، أي إعادة تكوين أشكالها وعلاقاتها حتى تمثلها في نظامها الخاص. و«إدخال» تلك العناصر في ذلك الشكل الخاص هو في الواقع تحويلها إلى واقع جديد حيث لا يعود وجودها وجوداً مستقلاً في حد ذاته أو في شكل تبعيتها السابقة، بل في شكل مكونات مندمجة في الحضارة الجديدة التي أدخلت عليها. وليس مما يعيب أية حضارة كونها تضم مثل تلك العناصر، ولكن مما يُشين أية حضارة أن تكون قد جمعت عناصر أجنبية، وحسب، وأن تكون قد فعلت ذلك بشكل متنافر، ومن دون إعادة تشكيل أو استيعاب أو تمثل. وفي هذه الحال، لا تزيد تلك العناصر عن أن تتواجد مع تلك الحضارة ولا تنتمي إليها عضوياً.

ولكن إذا نجحت الحضارة في تحويل تلك العناصر وتمثلها في نظامها، فإن عملية التمثل هذه تغدو دليلاً على حيويتها وحركيتها وإبداعها. ففي أية حضارة متكاملة، وفي الإسلام توكيداً، تكون جميع العناصر المكونة مادية كانت أم بنيوية أم علائقية منضوية تحت مبدأ أعلى واحد.

وفي الحضارة الإسلامية يكون التوحيد هو ذاك المبدأ الأعلى، وهو المقياس الأساس للمسلم ودليله ومعياره في مواجهة الديانات والحضارات الأخرى، وفي التعامل مع الحقائق والأوضاع الجديدة فما يتفق مع ذلك المبدأ يتم قبوله وتمثُّله، وما لا يتفق يتم رفضه وإدانته.

والتوحيد، أو مبدأ وحدانية الله المطلقة وترفعه وغائيته يعني أن الله هو وحده الجدير بالعبادة والطاعة. والإنسان المطيع يحيا حياته في ظل هذا المبدأ، ويسعى أن تكون جميع أفعاله متسقة معه، لتحقيق الغاية الإلهية. ويجب أن تكون حياته برهاناً على التوحد بين عقله وإرادته، وهو الهدف الفذ الذي يتوخاه في أعماله، وحياته لا تكون سلسلة من الأحداث المتجمعة كيفما اتفق، بل مرتبطةً بمبدأ واحد شامل يجمعها إطار واحد، في وحدة واحدة. وهكذا تكون حياته ذات أسلوب واحد وشكل متكامل.. هو الإسلام.

العقلانية



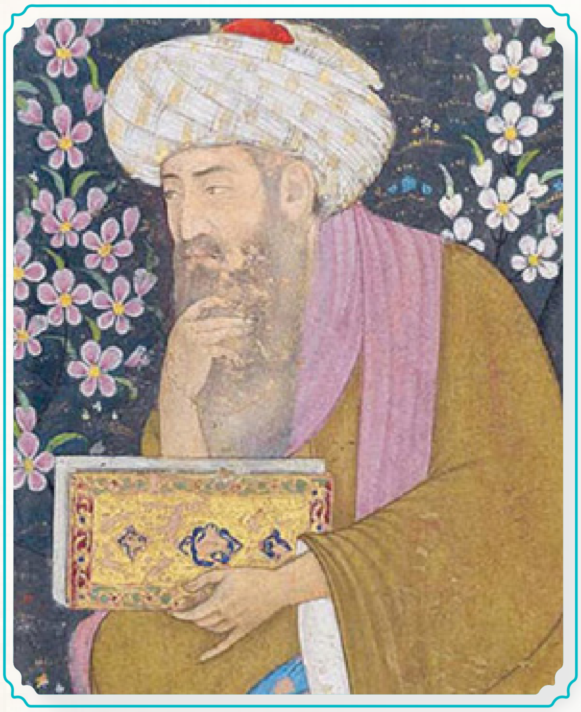
والعقلانية هي إحدى مكونات جوهر الحضارة الإسلامية، بوصفها مبدءاً منهجياً. وهي تقوم على ثلاثة أسس أو قوانين:

الأول: رفض جميع ما لا يتطابق مع الواقع.

والثاني: إنكار التناقضات المطلقة.

والثالث: الانفتاح على الأدلة الجديدة أو المناقضة.

● **فالقانون الأول يحمي المسلم من الظن،** أي من تكوين أي ادّعاء بالمعرفة لا يسنده دليل أو إثبات، والقرآن الكريم صريح في وصف المعرفة غير المؤكدة أنها مثال على «الظن» أو المعرفة المضللة التي يحظرها الله مهما كان هدفها ضئيلاً؛ لذا يوصف المسلم بأنه شخص لا يدعي بغير الحق.



● **والقانون الثاني يحمي المسلم من التناقض البسيط من جهة،** ومن التناقض الظاهر من جهة أخرى، والعقلانية لا تعني تقدم العقل على الوحي، بل رفض أي تناقض أساس بينهما.

وتنظر العقلانية في الفرضيات المتناقضة، وتعيد النظر فيها مراراً وتكراراً بحثاً عن وجه ربما يكون قد تخطاه النظر، والذي لو تم أخذه بعين الاعتبار، لكشف عن العلاقة المتناقضة. وكذلك فإن العقلانية تقود مفسر الوحي -لا الوحي نفسه- إلى تفسير آخر، خشية أن يكون قد فاته معنى غير ظاهر أو غير جلي، بحيث لو أعيد النظر فيه زال ما بدا له من غموض، ويؤدي مثل هذا اللجوء إلى العقل أو الإدراك إلى التنسيق، لا في هيئة الوحي نفسه -فالوحي فوق أي تلاعب من جانب الإنسان- بل في مستوى التفسير أو الفهم البشري له عند المسلم، وهو يجعل فهم الوحي عند المسلم متفقاً مع ما تجمع من أدلة كشف عنها العقل.

إن قبول المتناقض أو الموهم بالصحة كأنه الصحيح المطلق مسألة لا تستهوي سوى ضعاف العقول، والمسلم الذكي يهتدي بالعقل، إذ يصر على وحدة مصدرين للحقيقة: الوحي والعقل.



- **أما القانون الثالث، أي الانفتاح على الأدلة الجديدة أو المناقضة،** فإنه يحمي المسلم من الحَرفية والتعصب والنزعة المحافظة المؤدية إلى الركود، كما يميل به إلى التواضع الفكري؛ فيحمله إلى إلحاق عبارة «والله أعلم» بما يثبت أو ينكر من قول، والمسلم على قناعة بأن الحقيقة أكبر من أن يستطيع السيطرة عليها تماماً.

كما أن التوحيد هو توكيد وحدانية الله المطلقة، فهو كذلك توكيد وحدانية الحقيقة؛ فالله في الإسلام هو الحقيقة، ووحدانيته هي وحدانية مصادر الحقيقة، والله هو خالق الطبيعة التي يستقي الإنسان معرفته منها، وهدف المعرفة هو أنساق الطبيعة التي هي من صنع الله. ولا شك أن الله يعرف تلك الأنساق لأنه هو صانعها، ولا شك كذلك أنه هو مصدر الوحي؛ فالله يعطي الإنسان من علمه، وعلمه مطلق وشامل. والله ليس بمخاتل ولا وسيط حاقد غرضه أن يُضل عن سواء السبيل. كما أنه لا يُبدل حكمه كما يفعل البشر عندما يعدلون في علومهم، أو يصلحون من نواياهم أو قراراتهم، والله كامل وبكل شيء عليم، والله لا يخطئ، وإلا ما كان إله الإسلام العليّ.

قصتي مع العلم العجيب
الذي جاء به محمد ﷺ



د. موريس بوكاي
رحمه الله

لقد أدهشتني في البداية هذه الصورة العلمية الخاصة بالقرآن إلى حد بعيد، لأني لم أكن أظن أبداً أنه يمكن حتى هذا الزمن أن نكتشف في نص مكتوب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، عدداً من اليقينيات المتصلة بموضوعات شديدة التنوع ومتفقة تماماً مع المعارف العلمية الحديثة.



* موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة: الشيخ حسن خالد، ط٣ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٩٠م)، ص١٤٧ وما بعدها.

وقد بدأت هذا الاختبار للنصوص بموضوعية كاملة وبفكر متحرر من كل حكم مسبق. ولئن كان ثمة من تأثير يمكن أن يمارس عليّ، فهو تأثير التعليم الذي تلقيته في شبابي عندما لم يكن الناس من حولي يتكلمون عن المسلمين، بل عن المحمديين لصرف فكر السامع إلى أن الدين المتحدَّث عنه مؤسَّس من إنسان، ولا يمكن أن يكون له بالتالي أي قدر عند الله.



وككثيرين في الغرب، كان يمكنني الاحتفاظ بهذه الأفكار الخاطئة عن الإسلام والمنتشرة إلى حد بعيد في أيامنا، حتى أني كنت أدهش دوماً عندما أصادف فيما عدا الاختصاصيين محاورين مستنيرين في هذه النقاط. وأعترف بأني كنت شديد الجهالة قبل أن أكوّن صورة عن الإسلام مختلفة عن تلك المعطاة في الغرب.

ولئن كنت قد تأكدت من خطأ الأحكام العامة المحمولة في الغرب عن الإسلام، فإني مدين بذلك إلى ظروف استثنائية، فقد أعطيت عناصر التقدير في العربية السعودية بالذات التي كشفت لي ما عليه الناس في بلادنا من ضلال في الرأي تجاه الإسلام.

وسأبقى مديناً بالشكر العظيم للمأسوف عليه الملك فيصل الذي أحيي ذكراه باحترام، والذي كان لي شرف الاستماع إليه وهو يتكلم عن الإسلام، وأن أثير بحضوره بعض موضوعات في الترجمة القرآنية المتصلة

بالعلم الحديث. وسيبقى كل ذلك منقوشاً في ذاكرتي إلى الأبد لأن مجرد حصولي منه وممن يحيطون به على معلومات قيمة كان ذا اعتبار خاص.

أما وقد قدرت ما يفصل حقيقة الإسلام عن الصورة التي لدينا عنه في بلادنا الغربية، فقد أحسست بالحاجة الملحة لتعلم اللغة العربية التي لم أكن أعرفها، لأكون قادراً على التقدم في دراسة دين مجهول إلى حد بعيد. وقد كان غرضي الأول منصباً على قراءة القرآن وعلى اختبار نصه عبارةً عبارةً بمساعدة تفسيرات مختلفة لا يُستغنى عنها في دراسة نقدية.



وقد أعرت انتباهاً خاصاً جداً لما يعطيه من وصف لعدد من الظواهر الطبيعية. لقد أدهشتني دقة بعض تفاصيل الكتّاب المندرجة في النص الأصلي بسبب توافقها مع أحدث مفاهيمنا اليوم، ولكن التي لا يمكن لإنسان في عصر محمد أن تكون له عنها أية فكرة. ولقد قرأت بالتالي عدداً من المؤلفات الصادرة عن بعض الكتّاب المسلمين المخصصة لبعض الظواهر العلمية في نص القرآن فزودتني بعناصر نافعة جداً للتقييم. ولكني لم أعثر بعد على دراسة كاملة موضوعة في الغرب حول هذا الموضوع.

والذي يدهش فكر من يواجه مثل هذا النص للمرة الأولى، هو غزارة الموضوعات المطروحة، مثل الخلق، والفلَك، وعرض بعض الموضوعات الخاصة بالأرض وجنس الحيوان والنبات، وتكاثر الإنسان، تلك الأمور التي نجد عنها في التوراة دون نص القرآن أخطاء علمية كبيرة، تحملني على التساؤل:

إذا كان كاتب القرآن بشراً، فكيف أمكنه في القرن السابع الميلادي كتابة ما يثبت أنه اليوم متفق مع المعارف العلمية الحديثة؟

وليس ثمة أي شك في أن النص الذي بين أيدينا للقرآن هو نص ذلك العصر... فما هو التفسير الإنساني لهذه الملاحظة؟!



ليس لها في رأيي أي تفسير؛ إذ ليس من سبب خاص للتفكير بأن ساكناً لشبه الجزيرة العربية أمكن أن تكون له -في الوقت الذي كان يحكم في فرنسا الملك داجوبير- ثقافة علمية سابقة على قرننا الحاضر في بعض الموضوعات بعشرات القرون.

وأنه لمن الثابت أن معارف العصر العلمية زمن الوحي القرآني الذي يمتد على مرحلة قريبة من عشرين سنة قبل وبعد الهجرة (٦٢٢م)، كانت في حالة ركود منذ قرون، وأن الفترة النشيطة للمدنيّة الإسلامية مع النهضة العلمية التي واكبتها كانت لاحقة على نهاية الوحي القرآني.

وينبغي تجاهل المعطيات الدينية والدنيوية التي تثيرها الفكرة التالية التي سمعتها أحياناً وهي: أن الفضل في وجود يقينيات في القرآن ذات سمة علمية مدهشة، يعود إلى تقدم المعارف العربية إذ ذاك واستفادة محمد منها.

والذي يعرف شيئاً عن تاريخ الإسلام، ويعلم أن مرحلة النهضة الثقافية والعلمية في العالم العربي في القرون الوسطى متأخرة عن محمد، لا يسمح لنفسه بمثل هذه الترهات.

إن عدم صحة مثل هذه الأفكار بعيد عن هذا الحديث؛ إذ أن أكثرية الأعمال العلمية المشار إليها أو المصرح بها بشكل بارز في القرآن لم تثبت صحتها إلا في هذا العصر الحديث.

من هنا ندرك أن مفسري القرآن خلال القرون (بما فيهم مفسرو الفترة العظيمة للمدنيّة الإسلامية) قد ارتكبوا دونما ريب أخطاء في تفسير بعض الآيات التي لم يكونوا يدركون معانيها الدقيقة. وقد ظلوا كذلك حتى الفترة الأخيرة القريبة من هذا العصر، حيث تمكنوا من تفسيرها التفسير الصحيح.

وهذا يفيد بأنه لا يكفي لكي نفهم هذه الآيات القرآنية التبحر في المعارف اللغوية، بل لابد من تملُّك معارف علمية متنوعة جداً. ودراسة مثل هذه، هي جامعة للدساتير والمعارف وستتأكد مع اطراد طرح الأسئلة المتولدة من تنوع المعارف العلمية التي هي ضرورية لالتقاط معنى بعض آيات القرآن.

وليس القرآن كتاباً هدفه عرض بعض الأنظمة التي تحكم الكون؛ بل هو في الأساس كتاب ذو هدف ديني. وهذا واضح على الخصوص بمناسبة أوصاف القدرة الإلهية المطلقة التي تستنهض الناس للتفكير في أعمال الخلق، مقترنةً إما بإشارات إلى وقائع خاضعة للملاحظة الإنسانية، أو إلى قوانين حددها الله تحكم نظام الكون فيما يخص علوم الطبيعة، وفيما يخص الإنسان. وبعض هذه الأمور سهل الفهم أما البعض الآخر فلا يمكننا التقاط معناه إلا إذا كانت لدينا معارف علمية ضرورية لذلك.

وقصارى القول هنا إن إنسان القرون الماضية لم يكن قادراً على أن يكشف من ذلك إلا ظاهر المعنى، الذي قد يحمله في بعض الأحوال على الوصول إلى نتائج غير صحيحة نظراً لعدم اكتمال معرفته إذ ذاك.

وربما يبدو تصنيف الآيات القرآنية لدراسة صورها العلمية شديد الاقتضاب بالنسبة إلى بعض الكتاب المسلمين الذين لفتوا النظر قبلي إلى هذه الوقائع. وبالجملة فإنه يخيل إليّ أني استحصلت على عدد أقل من الآيات مما فعلوا. لقد حددت بعض الآيات التي لم يعيروها حتى الآن الأهمية التي تستحقها كما يبدو لي من وجهة النظر العلمية. فآمل ألا يقسوا علي إذا كنت قد ارتكبت أخطاء لعدم أخذي بالاعتبار في هذه الدراسة، آيات كانوا هم قد انتقوها، وقد عثرت أحياناً أيضاً في بعض الكتب على تفسيرات علمية لا يبدو لي أنها صحيحة، وقمت بانتقائها وتفسيرها تفسيراً شخصياً باستقلال فكري وبإخلاص تامّين.



لقد بحثت أيضاً فيما إذا كان في القرآن إشارات إلى ظواهر قريبة من الفهم الإنساني ولم تتأكد من جهة العلم الحديث، فبدا لي أني رأيت في القرآن إشارات إلى وجود كواكب شبيهة بالأرض. ويجب القول، بأن عدداً من العلماء يعتبرون هذا مقبولاً تماماً، ولو لم تكن المعطيات الحديثة قد توصلت حتى الآن إلى أقل تأكيد لها. فرأيت أن عليّ أن أعرضه مع كامل التحفظات.

وإذا كنت قد باشرت مثل هذه الدراسة منذ ثلاثين سنة تقريباً، فهناك شيء آخر قد أخبر عنه القرآن وكان ينبغي إضافته إلى ما سبق ذكره فيما يخص الفلك وهو: غزو الفضاء. لقد رأينا في ذلك الوقت تبعاً للتجارب الأولى لإطلاق الصواريخ بأنه سيكون لدى الإنسان يوماً ما قدرة النفوذ مادياً من المحيط الأرضي وأن يغزو الفضاء. وقد عرفنا أن في القرآن آيةً تتنبأ بذلك. وقد تحقق بالفعل.

إن هذه المواجهة بين الكتابات المقدسة والعلم تظهر بالنسبة إلى التوراة كما بالنسبة إلى القرآن مفاهيم لها صلة بالحقيقة العلمية. وينبغي لكي تكون المواجهة مقبولة وصحيحة أن يكون السند العلمي الذي نرتكز إليه كامل الثبوت ولا يحتمل أي شك. والذين يرفضون قبول مداخلة العلم في تقييم الكتابات، ينكرون أن يكون قادراً على تحقيق شكل صحيح لهذه المقارنة [سواء كان الكلام في صدد التوراة التي لا تتقبل المواجهة دونما خسارة – وقد رأينا لأي سبب ـ أو في صدد القرآن الذي ليس لديه ما يخشاه منها] لأن العلم متبدل مع الزمن، وقد يكون الحدث المقبول منه في زمن ما مرفوضاً منه في وقت متأخر.

هذه الملاحظة تجر إلى تسجيل النقطة التالية: أنه ينبغي تمييز النظرية العلمية عن الملاحظة الدقيقة. لأن غاية النظرية توضيح حدث أو مجموعة أحداث صعبة الفهم. فهي إذن متغيرة في عديد من الأحوال وقابلة للتحول أو لأن تستبدل بغيرها عندما يسمح التقدم العلمي بتحليل أفضل للوقائع أو بتصور تفسير أصح. وعلى العكس فإن فعل الملاحظة المحقق تجريبياً لا يكون قابلاً للتحول، فقد يمكن تحديد خصائصه بصورة أفضل. ولكنه يبقى



كما كان. وما كنا أثبتناه من أن الأرض تدور حول الشمس، وأن القمر يدور حول الأرض لن يكون موضوع إعادة نظر، وإن كنا نستطيع في المستقبل وبصورة أحسن تحديد مدارات الكواكب الفضائية.

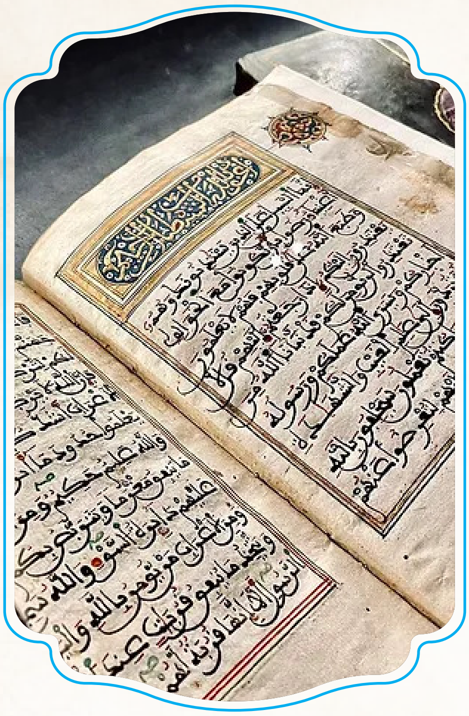


ولعل هذه النظرة للسمة المتبدلة للنظريات التي حدت بي إلى استبعاد آية قرآنية، فكّر عالمٌ بالطبيعة مسلمٌ بأنها تعلن مفهوم اللا مادة، وهي نظرية يدور حولها الجدل حالياً، وعلى العكس فإنه يمكن شرعاً لفت انتباهه إلى آية من القرآن تذكر أصل الحياة المائي، وهي ظاهرة لا يمكننا إثباتها مطلقاً، وإن كانت تلتقي عليها آراء كثيرة. أما بخصوص عوامل الملاحظة كتطور الجنين الإنساني فإنه يمكننا أن نواجه تماماً مختلف المراحل الموصوفة في القرآن بمعطيات علم الجنين الحديث، واكتشاف اتفاق العلم المطلق مع الآيات القرآنية المتعلقة به.

لقد أكملت المواجهة بين العلم والقرآن في مقارنتين: المواجهة مع المعارف الحديثة للمعطيات التوراتية المتعلقة بنفس الموضوعات من جهة، والمقارنة من نفس وجهة النظر العلمية لمعطيات القرآن كتاب الوحي المنزل من الله على النبي، ومعطيات الحديث، كتب الأخبار والإقرارات الصادرة عن محمد، التي هي ليست من الوحي المكتوب من جهة أخرى[1].

---

١ إن الذي عليه إجماع الصحابة وأهل العلم أن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى وهو ما أثبته القرآن في سورة النجم في قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣] وأن الحديث الثابت عن رسول الله ﷺ سواء كان قولاً أو تقريراً أو فعلاً متعلقاً بأمر من أمور الدين هو وحي من الله تبارك وتعالى قدمه الرسول ﷺ بعبارته (المترجم).



وفي ختام الجزء الثالث من الكتاب تفصيلات نتائج مقارنة الروايات التوراتية، والروايات القرآنية للحادث الواحد والتدقيق من خلال النقد العلمي لكل رواية.

وقد اختبرنا على سبيل المثال موضوع الخلق والطوفان. وأوضحنا في الأول كما في الثاني عدم مطابقة الرواية التوراتية للعلم واتفاق الروايات القرآنية التام بهذا الخصوص مع العلم الحديث. على أننا سنذكر الفروق التي تجعل على سبيل الدقة رواية ما مقبولة في العصر الحديث، في حين تكون الرواية الأخرى غير مقبولة.

هذه الملاحظة هي من الأهمية الأولى لأن اليهود والمسيحيين والملاحدة في البلدان الغربية يلتقون على رأي واحد [وبدون أي دليل] ليعلنوا أن محمداً ﷺ كتب أو استكتب القرآن مقلداً التوراة. وهذا الموقف هو بنفس خفة ذلك الذي يوصل إلى القول بأن عيسى عليه السلام خدع أيضاً معاصريه بسبب تأثره بالعهد القديم. وإنجيل متى بكامله -وقد رأينا ذلك- مبني على مبدأ إتمام السير في خط العهد القديم. فهل تجرأ مفسر ما لهذا السبب، على أن ينتزع عن عيسى عليه السلام الوصف بأنه رسول الله؟! ومع ذلك فإن الغربيين يحكمون في الغالب على محمد ﷺ بأنه لم يكن منه إلا أنه قد نسخ التوراة[٢]، وهو حكم مطلق مجرد من أي مستند، خصوصاً وأننا نرى للقرآن والتوراة في الحادث الواحد آيات مختلفات. هذا وإننا نفضل أن نسكت عن موضوع اختلاف الروايات. إنهم يعلنونها واحدة وأنه ليس للمعارف العلمية التدخل فيها، وسنتوسع في هذه النقاط بمناسبة الحديث عن روايات الخلق والطوفان.

---

٢ طبعاً هذا مرفوض شكلاً وموضوعاً لاعتبارات كثيرة تتعلق بمواد القرآن والدعوة الإسلامية تبدو للناظر لأول إمعان. ولكن على فرض الصحة، فلم ينكرون رسالته ﷺ ويكذبونه ويرفضون ما جاء به؟! (المترجم).

إن مجموعات الحديث هي بالنسبة إلى محمد كالأناجيل بالنسبة إلى عيسى عليه السلام. روايات عن أفعال وأقوال النبي ﷺ ليس كتابها شهود عيان[٣] [على الأقل مجموعات الأحاديث المشهورة والأكثر أصالة هي متأخرة عن عصر النبي] إنها لا تؤلف في أي نوع منها كتباً حاوية الوحي المكتوب. إنها ليست كلمات الله، بل تنقل أقوال الرسول[٤]. إننا نرى في هذه الكتب المنتشرة يقينيات تحوي أخطاء من وجهة النظر العلمية، وبخاصة الوصفات الطبية. ولكن من يستطيع الجزم بأصالة هذه الأخبار المنسوبة إلى الرسول؟

إننا بالطبع نضع جانباً كل ما يتعلق بمسائل النظام الديني التي هي ليست موضع المقابلة هنا بمناسبة الأحاديث. إن كثيراً من الأحاديث مشكوك في أصالتها بل ومطعون فيها من علماء المسلمين أنفسهم. ولئن

كنا قد أثرنا في هذا الكتاب السمة العلمية لبعضها، فلنوضح أساساً ما يميزها من وجهة النظر هذه عن القرآن الذي لا يحوي أية يقينية علمية غير مقبولة. والفرق كما سنراه عظيم.

إن هذه الملاحظة الأخيرة تجعل افتراض من يرون محمداً ﷺ كاتباً للقرآن مرفوضاً، إذ كيف يتيسر لرجل حُرم العلم في نشأته أن يصبح -على الأقل من وجهة نظر القيمة الأدبية- الكاتب الأول في الأدب العربي كله، يخبر عن حقائق في النظام العلمي تجاوز وسع أي كائن إنساني في هذا الزمن، ودون أن يكون منه أي خطأ مع ذلك.

إن الاعتبارات التي نتوسع فيها في هذه الدراسة، ستوصلنا من وجهة النظر العلمية فقط، إلى الحكم بأن من المستحيل تصور رجل عاش في القرن السابع الميلادي، واستطاع أن يورد في القرآن أفكاراً في موضوعات متنوعة جداً، ليست أفكار عصره تلتقي مع ما سيكتشفه الناس منها بعد قرون متأخرة عنه. أما بالنسبة إليّ فليس للقرآن أي تفسير بشري.

---

٣ لقد ثبت أن بعض الصحابة كتب بعض الحديث عن رسول الله ﷺ وهو عبدالله بن عمرو بن العاص. (المترجم).

٤ على أنها في حال صحتها وثبوتها وحي من الله (المترجم).

الصادعون بالحق

﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾

من إنتاج علمائنا الأسرى





الفِتية وطلب العلم



الشيخ خالد الراشد

فك الله أسره*

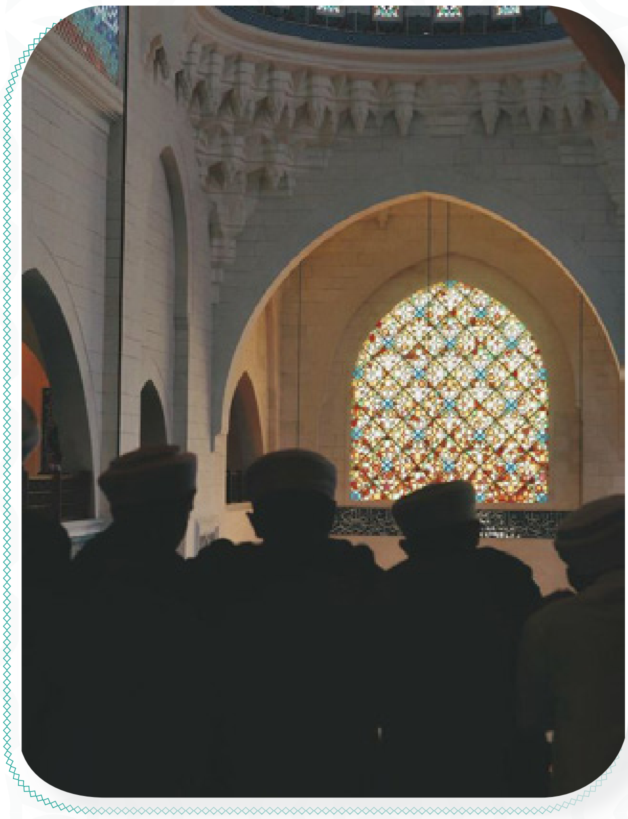
قال تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى * وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٣-١٤].

---

* المقال مقتبس من محاضرة: إنهم فتية آمنوا بربهم، ضمن كتاب: دروس الشيخ خالد الراشد، دروس صوتية فرّغها موقع الشبكة الإسلامية.

من هؤلاء الفتية؟ وما شأنهم؟ ولماذا اعتزلوا قومهم، وهجروا ديارهم، وفارقوا أهلهم؟ لماذا تجردوا من زينة الأرض ومتاع الحياة؟ ما هي القضية التي تشغلهم؟

إنهم أشداء في أجسامهم، أشداء في إيمانهم، أشداء في استنكار ما كان عليه القوم، كانوا بين خيارين: إما أن يرضوا بمتاع الحياة الدنيا وزخرفها، أو يفروا بدينهم وعقيدتهم، فاختاروا ما جعل لهم قيمة وشأناً، إنه الإيمان، قال عنهم سبحانه: «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ».



إن الإيمان يصنع حياة بعد موت، قال الله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ويصنع عزاً بعد ذل، قال الله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، ويصنع شجاعة وإقداماً بعد خوف وإحجام، قال الله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

إن الإيمان يجعل للحياة طعماً، وللدنيا لوناً، وللقلب ثباتاً، وللصدر انشراحاً، وللطاعة حلاوة، وللمعصية نكارة، والإيمان اطمئنان وإيثار، ولجوء إلى الله، واعتماد عليه، وأنس وسعادة به، وخلوة معه، ورحمة منه. تأمل وانظر كيف انقلب الكهف إلى مأوى؟ قال الله: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف:١٦].

إن من آثار الإيمان وثمراته، تثبيت الله لأهله، قال الله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف:١٤].

إن الاعتراف بالعبودية عزة يعتز بها أصحاب الكهف كما قال الله عنهم: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الكهف:١٤]، وأيّ عزة أعظم من أن تكون عبداً لله؟

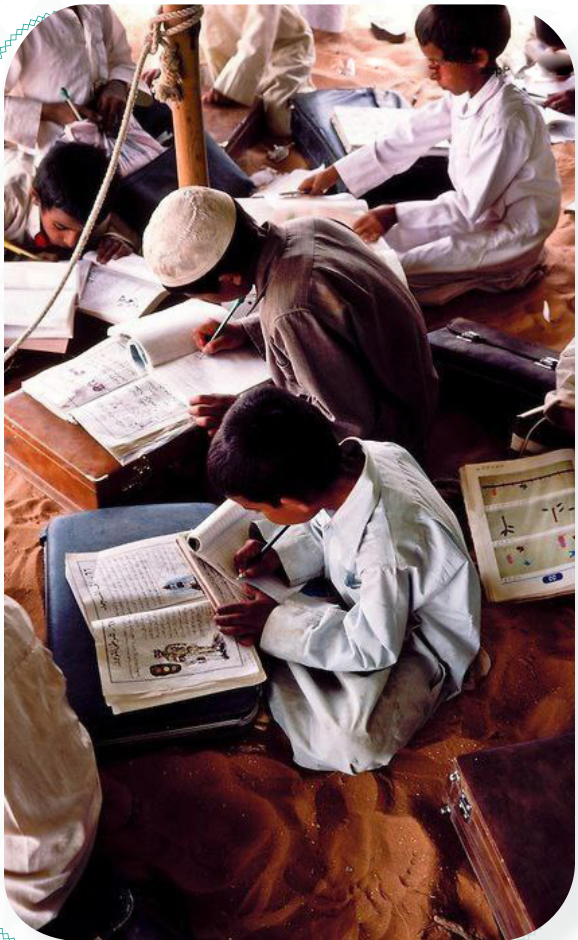
ومما زادني شرفاً وتيهاً .. كدتُّ بأَخْمَصِي أطأُ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي .. وأنْ صيرّتَ أحمد لي نبياً

لقد أنكر أهل الإيمان هؤلاء الباطل، فقال الله تعالى على لسانهم: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ [الكهف:١٥] أي باطل أعظم من الشرك بالله؟ إن القلوب المؤمنة تعلم أن ما على الأرض إنما جُعل للابتلاء والامتحان، وأن نهاية هذا الكون إلى الفناء والزوال، قال الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف:٧ - ٨].

ذكر أكثر من واحد من السلف والخلف: أن فتية الكهف كانوا أبناء ملوك، لكن الإيمان الراسخ أمام الفتن والشهوات يجعل أهل الإيمان في حرص على دينهم وعقيدتهم؛ لأن الدين غالٍ، ولا مجال لتعريضه للخطر، فأعز ما يملك المؤمن هو دينه وإيمانه، تأمل في دعائه ﷺ: «اللهم احفظني في ديني ودنياي»، وفي قوله: «اللهم أصلح لي ديني»، وقوله: «ولا تجعل مصيبتي في ديني»، وليس التشريف في الآية لفتية الكهف فقط، بل لكل من سار على دربهم وطريقهم.

إن فتية اليوم في أمس الحاجة لسماع أخبار فتية الأمس، ونحن نستمد من الماضي قوة؛ لأن الماضي متصل بالحاضر، وإن كان فتية الأمس قد استطاعوا فإن فتية اليوم أيضاً عندهم القدرة والاستطاعة، على أن يفعلوا كما فعل فتيان الأمس، كيف لا والمصدر واحد والمنبع واحد، قال الله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢].

والشباب أقبل للحق، وأهدى للسبيل، ولقد كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ هم الشباب، فكتّاب الوحي هم الشباب، وحفظة السُّنة هم الشباب، وسفراء الرسول ﷺ هم الشباب، وشعراؤه ﷺ هم الشباب، وقادة الجيوش يَمنةً ويسرةً هم الشباب، فعلى أكتافهم تقوم الحضارات، وتنهض الأمم.



طلب العلم

من صفات الفتية: أنهم طلاب علم، فبالعلم يُعبَد الله ويُوحَّد، وبالعلم يُقدَّس الله ويُمجَّد، وقد رفع الله أهل الإيمان والعلم على غيرهم درجة، كيف لا والعلم طريق من طرق الجنة، وطلاب العلم أخشى الناس لله من غيرهم، فهم ورثة الأنبياء، والله يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] .

جاء في (فضل العلم وأهله) عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن يُرِد الله به خيراً يُفقهْه في الدين».

وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن سلك طريقاً يلتمس به علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له مَن في السموات ومَن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً، إنما ورثوا العلم، فمَن أخذه أخذ بحظ وافر»، والأحاديث في فضل العلم وأهله كثيرة.



وروى الوليد بن مسلم قال: شيّعنا الأوزاعي وقت انصرافنا من عنده، فأبعد في تشييعنا، فمشى معنا فرسخين أو ثلاثة، فقلنا له: أيها الشيخ! يصعب عليك المشي على كبر السن قال: «امشوا واسكتوا، لو علمت أن لله قوماً يباهي بهم أفضل منكم لمشيت معهم وشيعتهم، ولكنكم أفضل الناس».

وسُئل ابن المبارك: لو أن الله أوحى إليك أنك سوف تموت العشية، فماذا تصنع اليوم؟ قال: «أقوم وأطلب العلم».

وقال ﷺ من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما عابد والآخر عالم، فقال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم». ثم قال ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، لَيُصلّون على مُعلم الناس الخير» .

صفات طالب العلم



حتى تكون من طلاب العلم وفتيانه، لابد من صفات وخصائص ومميزات تتحلى بها:

أولها: فتية العلم أصحاب هِمم عالية!

كان أسد بن الفرات قد خرج من القيروان إلى الشرق سنة مائة واثنين وسبعين؛ فسمع الموطأ من مالك في المدينة، ثم رحل إلى العراق فسمع من أصحاب أبي حنيفة وتفقه عليهم، وقد حضر مجلس محمد بن الحسن الشيباني وقال له: إني غريب قليل النفقة، والسماع منك شرف ولكن الطلبة من حولك كثير، فما حيلتي؟ فقال له محمد بن الحسن: «استمع مع العراقيين بالنهار، وقد جعلت لك الليل وحدك، فتبيت عندي وتقرأ عليّ وأسمعك»، قال أسد: «فكنت أبيت عنده، وينزل إليّ، ويجعل بين يديه قدحاً فيه ماء، ثم يأخذ في القراءة؛ فإن أطال الليل ونعستُ ملأ يده ونضح وجهي بالماء فأنتبه، فكان ذلك دأبه طوال الليل، ودأبي معه حتى أتيت على ما أريد من السماع منه».

صدقوا حين قالوا: من طلب العُلا سهر الليالي.

قال ابن القيم رحمه الله: «فإذا نام المسافر واستطال الطريق، فمتى يصل إلى المقصود»؟! وقال ابن أبي حاتم: «كنا بمصر سبعة أشهر في طلب العلم لم نحصل فيه على مرقد. نهارنا ندور على الشيوخ، وفي الليل ننسخ

ونقابل، فأتينا يوماً أنا ورفيق لي شيخاً، فقالوا: هو عليل، فرأيت سمكة أعجبتنا فاشتريناها، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ، فمضينا، فلم تزل السمكة ثلاثة أيام، وكادت تنتن، فأكلناها نيئة ولم نتفرغ لنشويها، ثم قال: لا يستطاع العلم براحة الجسد».



ثانيها: إن أردت أن تكون من طلاب العلم وفتيته فلابد أن تحرص على الوقت

ولا تنشغل بتوافه الأمور، قال الله عنهم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان:٦٣] ، هذا نهارهم.

أما ليلهم: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:٦٤- ٦٥] ، وقال عنهم: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان:٧٢] وكل باطل زور، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢] ، فلا ترى فتى العلم إلا في فرض يؤديه، أو خير يعمله.

رُوي أنه أُحضر فيل في المدينة المنورة، وكان مالك بن أنس يدرّس في المسجد، فقال قائل: حضر الفيل، فقام تلاميذ مالك ينظرون إلى الفيل وتركوا الشيخ، إلا يحي بن يحي الليثي الأندلسي، فقال له مالك: لَم لَمْ تخرج لترى هذا الخلق العجيب وليس في بلادك مثله؟ قال: إنما أتيت لآخذ علمك ولم آتِ لأنظر إلى الفيل.

ففتى العلم حريص على وقته، مترفع عن توافه الأمور، والعمر لا يقاس بالسنين ولكن بالإنجازات التي تنجز فيه.



ثالثها: العمل بالعلم

فمن أراد أن يكون من فتية العلم وطلابه، فلا بد من أن يعمل بالعلم الذي تعلمه، كتب الإمام الغزالي رحمه الله إلى أحد تلامذته حين طلب منه أن يقدم له نصيحة، فقال: «يا ولدي! النصيحة سهلة، ولكن الصعب قبولها؛ لأنها في فم مَن لم يتعودها مُرة المذاق، وإنّ مَن يحصل العلم ولا يعمل به تكون الحُجة عليه أعظم، كما قال ﷺ: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه»».

وقالوا: العلم يهتف بالعمل، فإن أجاب حل، وإلا ارتحل، ولابد مع العمل من صدق وإخلاص.



جريمة طالب



الشيخ أشرف عبد المنعم
فك الله أسره*

للجريمة أنواع.. إن الذي يمد يده ليسرق مالك من جيبك قد ارتكب جريمة لأخذه مالك بغير حق ولا رضا، لكن للجريمة في الأموال صور أخرى، فالذي يوقفك بقوته ويسلبك مالك تحت التهديد قد ارتكب الجريمة بصورة أخرى، بل والذي يحتال عليك بأشكال الخداع المتعددة حتى تُخرج أنت مالك من جيبك، وتلح عليه حتى يأخذه منك وأنت له شاكر ثم تكتشف بعد ذلك أنه قد سرق مالك ولم يعطك إلّا أوهامًا كاذبة في مقابله، قد ارتكب هو أيضًا الجريمة بصورة أخرى.

---

* مقال: جريمة طالب، للشيخ أشرف عبد المنعم، منشور على موقع (الجبهة السلفية) الإلكتروني، بتاريخ: أكتوبر ٢٠٢١م.

وهكذا تتنوع صور الجرائم ولو تعلقت كلها بالمال، وقل مثل ذلك في الجرائم التي تتعلق بالنفس، بل تتنوع الجرائم حتى تكون أمام بعض الصور التي لم نكن نتخيل أنها تدخلنا إلى عالم الجريمة الفسيح.

هل يكون طالب الطب مجرمًا؟



إن الطالب المتفوق في دراسته الثانوية هو الذي يتأهل لدراسة الطب البشري في جامعاتنا اليوم، فهل يمكن أن يتحول طالب الطب إلى مجرم؟ بل ومجرم لا يمارس الجريمة إلا في تخصصه الدراسي؟

لو صدّر هذا الطالب نفسه للناس يشخص أمراضهم ويصف لهم أنواع العلاج، يحكم على تشخيصات ووصفات الأخصائيين والاستشاريين، فيصوِّب ويخطِّئ، ويعدِّل ويتصدى لأنواع العمليات الجراحية للمرضى، فأفلا يكون هذا الطالب مجرمًا بتصدره لما لم يتأهّل له بعد، وإن حصَّل فيه مبادئ متفاوتة؟ أفلا يكون مجرمًا حين يعرِّض أرواح الناس وأبدانهم وصحتهم للخطر والخطأ، مع أنهم ليسوا مضطرين لذلك في وجود متخصصين مؤهَّلين؟

إن المخاطرة في أبدان الناس أعظم من المخاطرة في أموالهم، وإن الضرر الذي يلحقهم في حياتهم أو صحتهم لهو أسوأ من الضرر الذي يلحقهم في أموالهم، لذلك قرر فقهاء الشريعة أن من تطبب وليس بطبيب فإنّه يضمن في الجناية التي تقع منه على أبدان الناس لتصدره لما لم يتأهّل له.

هل يكون طالب الشريعة مجرمًا؟



إن مصطلح طالب علوم الشريعة اليوم ليس قاصرًا على أصحاب هذه الدراسات، سواء أكانوا في المعاهد الإعدادية أو الثانوية وما شابههما، أم في كليات الدراسات الشرعية المتنوعة، بل إنه صار يشمل الدراسة في أنواع المعاهد المبثوثة لتعليم من لم يكن لهم سابق دراسات في الشريعة، بل وصار يشمل أعدادًا من أصحاب الاجتهاد الشخصي في التحصيل غير النظامي، لا الرسمي، ولا الأهلي، فكلٌّ من هؤلاء ربما سمَّى نفسه أو سمَّاه من حوله بطالب علم شرعي.

فلو صدَّر طالب من هؤلاء نفسه للناس، فأفتى لهم وأجاب عن أسئلتهم وقضى بينهم في مختلف منازعاتهم، ونصَّب نفسه حكمًا على العلماء المتخصصين قدامى ومعاصرين فيصوِّب ويخطِّئ، ويتصدَّى لأنواع النوازل المعاصرة، أفلا يكون هذا الطالب مجرمًا لتصدره لما لم يتأهل له بعد وإن حصَّل فيه مبادئ متفاوتة؟ أفلا يكون مجرمًا حين يعرّض دين الناس ودنياهم لفهمه القاصر فيخاطر باستباحة الدماء والفروج والأموال، ويخاطر بتضييق الحلال على عباد الله، مع أنهم ليسوا مضطرين لذلك في وجود متخصصين مؤهلين؟

إن المخاطرة في دين الناس الذي يعاملون به رب العالمين، والذي يحكم على دنياهم أعظم من مجرد المخاطرة في أبدان الناس أو في أموالهم، وتحريم الفتوى والقضاء من غير المتأهل من تحريم القول على الله

بغير علم؛ لذلك حكم رسول الله ﷺ على القاضي بغير علم بأنّه «في النّار»[١]، وحكم الفقهاء على مثل هذا بالضمان في الجنايات التي تقع بأحكامه على الناس لتصدّره لما لم يتأهَّل له.

أليس دين الله أغلى؟



لقد سمَّى الإمام ابن القيم رحمه الله المتكلمين في دين الله بـ "الموقعين عن رب العالمين"[٢]، وقرر أن القول على الله بغير علم هو أكبر الكبائر؛ لأن الله ذكر المحرّمات مرتبةً إلى الأغلظ فختمها بقوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٦٩]، ومن قبل ابن القيم حكم الإمام الشافعي رحمه الله على أن من تكلّم فيما ليس مؤهَّلًا له فأصاب بأنه غير مأجور، وإن أخطأ بأنه غير معذور؛ لأنّه تعدى رتبته في العلم.

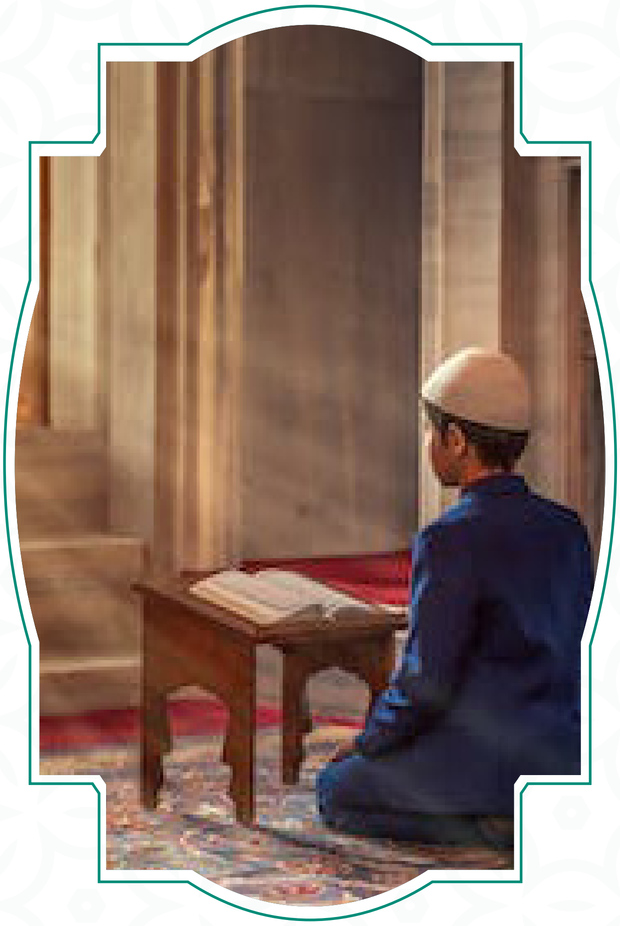
لقد نقل الإمام الشاطبي رحمه الله عن أصل كل دين بأنه «علوم دينهم أعظم العلوم»[٣]، وقرر في كتاب (الاعتصام) أن طالب العلم قد لا يعتبر ترجيحه فيلحق بالعوام الذين فرضهم التقليد، وقد يعتبر ترجيحه فيلحقه بالعلماء من وجه دون وجه، وإنّما يحكم عليه العلماء بموافقته لمسالكهم[٤]، وقرر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن من عرف قول عالم واحد بدليله، فإنه لم يترقَّ بعد عن رتبة التقليد، وأكد على أن

---

١ شرح مشكل الآثار ٩/٢٠٩.
٢ كتاب إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم.
٣ كتاب الاعتصام، للإمام الشاطبي.
٤ كتاب الاعتصام، للإمام الشاطبي.

المقلد يلزم أحكام رتبته فلا يصوِّب ولا يخطِّئ، بل إن العلماء قد تكلموا في المقلد، وهل يجوز له أن ينقل ما أُفتِي له به لغيره، أم أنه لا يجوز له ذلك؟ وكل ذلك وأكثر منه، إنما تكلم العلماء، نظراً إلى رتبة المتكلم في الدين ومستوى تأهله في العلم الشرعي كما لا يخفى.

إن ما لا ينقضي منه العجب أن الواحد من هؤلاء إذا احتاج إلى عملية جراحية لم يرضَ بأن يجريها له أي طبيب، فضلًا عن دارس الطب الذي لم يتخرج بعد، بل يتحرى أكابر المتخصصين من المتأهلين لمثل هذه العملية الجراحية، هذا إن لم يذهب إلى أكثر من واحد من هؤلاء ليتأكَّد من صواب التشخيص، ومن دقة العلاج الموصوف بهذه العملية الجراحية، ثم إن هذا الواحد نفسه إذا احتاج إلى فتوى في دينه اكتفى بأي كسير أو ضعيف، ولم يتحر عن التخصص والتأهل ورضي بالهواة والحواة، بل إنه ربما افتخر بأنه رجع إلى طالب علم، وهو الذي لا يسلم نفسه لطالب طب، فهل يدل ذلك السلوك منه على أن دين الله أغلى عنده حقًّا؟!



تفسير التناقض

ذلكم التناقض في تعامل الشخص الواحد مع كل من الفتوى الشرعية والفتوى الطبية يدل

على خلل في الفهم، فيحتاج إلى استدراك وتنبيه، ويدل على نقص في الورع فيحتاج إلى وعظ وتحذير، ولا يصر على المضي قدمًا في هذا التناقض بعد التنبيه والتحذير إلا صاحب هوى يحمله هواه على ما ترى من تناقض، أيًّا ما كان ذلك الهوى الذي يحمله.

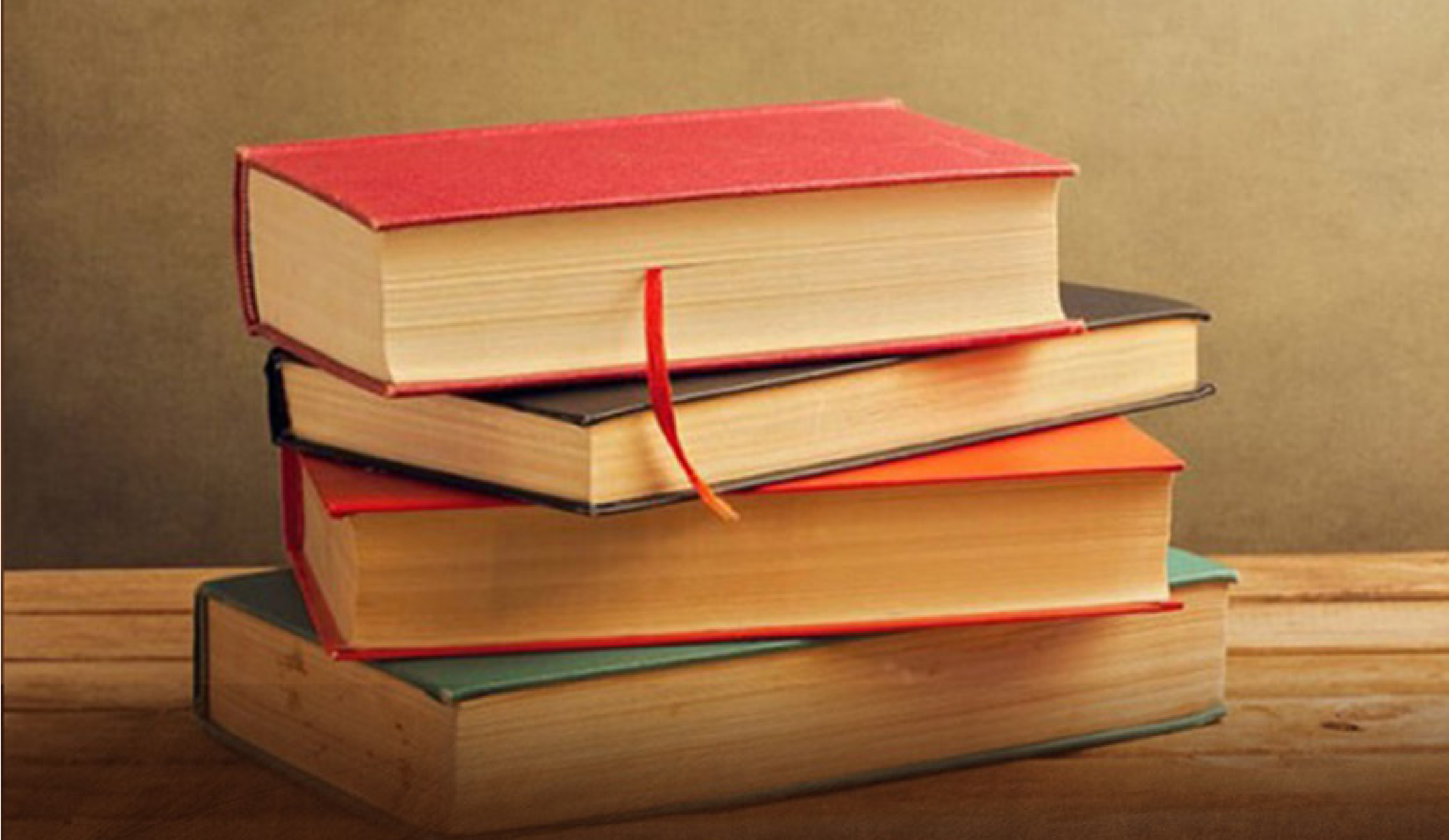
ولا يرفع التناقض بالرضا بطالب الطب كما يرضى بطالب العلم، إلا صاحب حماقة تحمله حماقته على ما هو أسوأ من التناقض، فيجافي العقل كما جافى الشرع.



فالجاهل إذا عُلِّم تعلَّم، والغافل إذا نُبِّه تنبه، ومن تقارن عنده الآراء أهواء، إذا غلبه دينه وتقواه، فإنه يستجيب للموعظة ويخاف من التحذير، وهؤلاء كثرة تُرجى نجاتهم، ويُسعى لسلامتهم.

كلهم شركاء في الجريمة

ليس المتصدر وحده هو المجرم، وإن كان رأسًا في هذه الجريمة، بل الذين يصدرونه ويشجعونه شركاء له في الجريمة والذين يتوهمون أنهم ينتفعون به، ويدعمونه في دوره هذا هم كذلك شركاء له في الجريمة، بل والذين يتركونه يمارس هذا الدور مع معرفتهم بقصور رتبته عنه، هم كذلك، إنّهم كلهم شركاء في الجريمة



العلم ضرورة شرعية



د. ناصر العمر

فك الله أسره*

الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلق الله وبعد:

فإن العلم من المصالح الضرورية التي تقوم عليه حياة الأمة بمجموعها وأحادها، فلا يستقيم نظام الحياة مع الإخلال بها، بحيث لو فاتت تلك المصالح الضرورية لآلت حال الأمة إلى الفساد ولحادت عن الطريق الذي أراده لها الشارع.

---

* المقال مقتبس من كتاب (العلم) للدكتور ناصر العمر، موقع: المسلم، كتاب إلكتروني ص١-٨.

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: «والحفظ لها -أي للمصالح الضرورية- يكون بأمرين: **أحدهما**: ما يقيم أركانها، ويثبت قواعدها، وذلك بمراعاتها من جانب الوجود.

والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم».

والعلم -بلا ريب- يسلك في هذه المصالح الضرورية التي تجب مراعاتها من الجانبين المذكورين، وذلك للأسباب التالية:



أسباب كون العلم ضرورة شرعية

١ لأن حاجتنا إليه لا تقل عن حاجتنا إلى المأكل والمشرب والملبس والدواء، إذ به قوام الدين والدنيا.

٢ لأن المستعمرين -بل المحتلين الحاقدين- إنما احتلوا بلاد المسلمين لأسباب كثيرة، بيد أن من أهمها جهل المسلمين.

٣ انتشار المذاهب الهدامة، والنحل الباطلة، وما حدث ذلك إلا لأنها وجدت قلوباً خالية، فتمكنت منها، فإن القلوب التي لا تحصن بالعلم الشرعي، تكون عرضة للانخداع بالضلالات، والوقوع في الانحرافات. وهنا أنبه إلى أن الصحوة الإسلامية اليوم بحاجة إلى طلاب العلم، فلقد التقيت بكثير من الشباب الأخيار، في هذه البلاد وفي غيرها، فآلمني أن العلم الشرعي ينقص كثيراً منهم بالرغم من حرصهم على الخير، وحماسهم

للدعوة، وغيرتهم على الدين. ومن ذلك أنني ذهبت إلى بلد من البلدان، فوجدت فيها صحوة إسلامية مباركة، فسرني ذلك و أفرحني ، ولكن ساءني كثيراً أني وجدت هناك جرأة على الفتوى، وألفيتُ قيادات كثير من الشباب هناك بعيدة كل البعد عن العلم الشرعي! فتساءلت هل تقاد الدعوات بقيادات غير متمكنة من العلم الشرعي؟! وما مصير تلك الجماعات والحركات؟ لا شك أنه لا يصح أن تقاد الدعوات بأولئك، وأن جهود هذه الدعوات وآمالها سوف تذهب هدراً؛ لأن القيادة عندما تكون جاهلة بأمر دينها، جاهلة بكتاب ربها، وسنة نبيها؛ فإنها تعجز عاجلاً أو آجلاً عن القيام بواجبات الدعوة.

إن من العجيب أن يتفق الناس على أنه لا يمكن لأحد أن يصمم بيتاً إلا أن يكون مهندساً عالماً بهذا الفن، في حين يتساهلون في أمر في غاية الأهمية، وهو أمر الدعوة، فيقودها رجال ينقصهم العلم الشرعي!

٤ إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.



لعل هذه هي أهم الأسباب التي تجعل العلم ضرورة شرعية بإيجاز.

أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر

يمكن تلخيص تلك الأسباب فيما يلي:

١ غياب تأثير المسجد، فإن المسجد في كثير من بلاد المسلمين اليوم تؤدَّى فيه الصلوات الخمس فحسب، بل لقد رأيت في بعض المساجد أن المؤذن

يؤذن قبل أن يفتح المسجد، وإذا أراد أحد أن يتنفل كثيراً بعد الصلاة قال له المؤذن: جزاك الله خيراً، صلّ في بيتك! هكذا أصبح المسجد لأداء هذه الركعات فقط، فغابت مهمة المسجد عن حياة الأمة، فوصلت الأمة إلى حال يرثى لها، على حين كان المسجد في حياة الرسول ﷺ هو منطلق القيادة، والريادة، والتخطيط، والعلم والتعليم.



٢ قلة العلماء العاملين الذين ينذرون أنفسهم لبذل العلم ونشره، إنك اليوم تجد في كل بلد من بلاد المسلمين آلافاً من حملة المؤهلات العليا (الماجستير، والدكتوراه في التخصصات الشرعية، ولكن عندما تبحث عن العلماء العاملين المبلغين الذين يجاهدون بعلمهم في سبيل الله ، لرفع الجهل عن الأمة، فإنك تجدهم قلة يعدون على الأصابع. بل إنني لم أجد في بعض بلاد المسلمين ما أعده على الأصابع من أولئك العلماء، فلقد سألت عن العلماء هناك، فقيل لي هنا العالم فلان، والعالم فلان و... فذهبت إليهم - وليتني لم أذهب- «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه!» وجدت فيهم إخلالاً وعدم التزام، وضحالة وضعفاً، حقاً إن أحدهم قد يحفظ بعض النصوص، لكننا لسنا بحاجة إلى حفظة نصوص، ولسنا بحاجة إلى العلماء الذين اهتموا بالمناصب وأهملوا العلم الذي تعلموه، وإنما نحن بحاجة إلى العلماء العاملين الأكفاء المجاهدين.

٣ سوء خطط التعليم في مراحل الدراسة المختلفة في البلاد الإسلامية، فإن خطط التعليم في كثير من البلاد الإسلامية سيئة للغاية: إما خطط علمانية، أو يسارية مستوردة من الشرق أو الغرب، والقليل منها ما يوجد في خططها بصيص من نور.

٤ ضعف الهمم والعزائم؛ فتجد أن الشيخ يبدأ في درس من الدروس العلمية ومعه عدد كبير من الطلاب، ثم يأخذ العدد في التناقص، حتى لا يبقى مع الشيخ إلا قلة يعدون على أصابع اليد. والعلة في هذه الظاهرة أن الحماس هو الذي يطغى على حياتنا، ويحكم تصرفاتنا، وقل بيننا من يتصف بالثبات، وبُعد النظر، وسعة الأفق، والتصرف عن اقتناع وتأمل، مع الجدية وتحمل المصاعب.

٥ انفتاح الدنيا، والانشغال بملذاتها وحطامها، قال رسول الله ﷺ: «فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بُسطت على مَن كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم».



الكثير يحزن لما يصيبه في دنياه أكثر من حزنه لما يصيب آخرته.

٦ كثرة وسائل الترفيه واللهو، ونحوها من المعوقات، التي تُقعد بالمرء عن معالي الأمور، وتشغله عن الغايات السامية.

إن الشباب والفراغ والجده •• مفسدة للمرء أي مفسده

٧ التخصصات الجزئية التي أضعفت العلوم الشرعية: لقد كان العالم في السابق عالماً بعامة فنون الشريعة من تفسير وحديث، وعقيدة، وأصول، وفقه.. أما الآن فالفقه -مثلاً- ينقسم قسمين:

فهناك متخصصون في الفقه، ومتخصصون آخرون في أصول الفقه، وعلى هذه الشاكلة فصلت علوم الشريعة بعضها عن بعض، وأصبحت الجامعات تخرج لنا أنصاف متعلمين، تسأل أحدهم، فيعتذر عن الإجابة بأن ذلك ليس من تخصصه، والمصيبة أن ذلك صار أمراً مستساغاً مسَلماً.

فلنلقِ نظرة خاطفة إلى ما كان عليه بعض علماء الأمة السابقين، كالطبري -مثلاً- الذي إن نظرت إليه في التفسير فهو في القمة، أو في الحديث فهو في الذروة، أو في اللغة فهو قوي العبارة، سليم الأسلوب، وهكذا. وكابن تيمية الذي نجد كتبه تحقق في أقسام مختلفة من أقسام الكليات الشرعية، فبعضها في قسم التفسير، وبعضها في قسم الحديث، وبعضها في قسم العقيدة، وبعضها في قسم الفقه، وبعضها في القضاء، وفي الدعوة، وفي التاريخ، وفي السياسة الشرعية.



فتأمل وقارن بين علم هؤلاء وعلم أولئك.

٨ الانهزام النفسي أمام بعض العلوم المادية، والنظر إلى التخصصات الشرعية نظرة دونية؛ فمثلاً يجتمع بعض الشباب في مجلس، ويسأل بعضهم بعضاً: أين تدرس؟ فيقول بكل زهو وافتخار: أدرس في كلية الطب، ثم يرفع الآخر رأسه ويقول: أدرس في كلية الهندسة، ثم يطأطئ الثالث رأسه، ويقول: معدلي ضعيف؛ فدخلت كلية الشريعة.

هذه مأساة لا بد أن نعترف بها في واقعنا المؤلم في أغلب بلادنا الإسلامية. لقد كنت أتحدث مع عدد من المتخصصين، فكان مما قالوا: من المآسي التي رأيناها أن بعض علماء الأزهر يفتخرون أن أبناءهم يدرسون في كليات الطب والهندسة، وهذا نابع من خلل في نفوسهم، وانهزام في قلوبهم، ووهن في نظرتهم إلى انتمائهم وتخصصهم، فقد تسأل بعضهم عن أبنائه: أين يدرسون؟ فيقول أحدهم: في الطب، والثاني: في العلوم، والثالث: في الطب أيضاً، والرابع: في الحقوق. هذا كله ناجم عن الهزيمة النفسية التي أدت إلى تشوه التصورات، وتحول النظرات، فصرنا إلى حال من الضعف والتأخر يرثى لها.

ومن عجائب انقلاب المفهومات أنك تسأل بعض المتعلمين: أين تخرجت؟ فيقول: تخرجت في أمريكا -يقولها بكل اعتزاز - وتسأل الآخر السؤال نفسه، فيقول: لم يسمح لي أبي، فدرست داخل بلدي -يقولها بمرارة-!

إن العزة كل العزة في دراسة العلوم الشرعية، والعناية بكتاب الله عز وجل، وسنة نبيه، ولكن الطعنات النُّجل التي وجهتها وسائل التغريب إلى جسد الأمة، التي ما زالت ترجع القهقري عن مقومات عزها وأسباب ريادتها؛ أقول: إن هذه الطعنات أدت إلى الهزيمة النفسية المقيتة؛ فأفرزت ما أفرزت من الويلات.



الله والعلم وجوجل



الشيخ أنس السلطان

فك الله أسره

١

كلما ذهبت إلى دولة جديدة أجدني في حيرة من أمري، أفكر في فكرة تبدو ساذجة لكنها تلح على ذهني في موضعين، أحدهما زيارة دولة جديدة، والأخرى عند تأخري عن موعد مهم بسبب الزحام في أحد الشوارع، أجد نفسي تتساءل: ماذا لو دخلت إحدى هذه البنايات المجاورة لي بشكل عشوائي، هل سأجد فيها أهلي أو أصدقائي الذين يربطني بهم موعد الآن؟

---

* أنس السلطان، مقال: الله والعلم وجوجل، موقع إضاءات، منشور عام ٢٠١٨م.

بالتأكيد لا. لماذا وهذه البناية تشبه تمامًا شكل البناية التي سينعقد فيها اللقاء؟ لماذا لن أجدهم والشارع مثل الشارع والحي مثل الحي؟ مجرد اختلاف بسيط في العنوان يؤدي إلى نتيجة مغايرة تمامًا؟ أن أدخل إلى شقة ١٦ في الطابق الرابع من البناية رقم ٥ في شارع محمد محيي الدين بحي الدقي محافظة القاهرة بالديار المصرية، هل هو أمر مختلف كثيرًا عن دخولي إلى شقة ١٦ في الطابق الرابع من البناية رقم ٥ في شارع الجزائر بحي الدقي محافظة القاهرة بالديار المصرية أيضًا؟

إن العنوانين شبه متطابقين، فقط اسم الشارع مختلف، كل ما قبل اسم الشارع وما بعده في العنوان متطابق باستثناء حروف يسيرة هي اسم الشارع، فلماذا يشكل هذا الاختلاف اليسير في حروف أو أرقام فرقًا كبيرًا في النتائج، فيؤدي أحد العنوانين إلى مكان ذي طبيعة مختلفة تمامًا عن المكان الآخر؟



فكرة ساذجة كما قلت لكم لكنها تثيرني جدًا، لماذا تختلف النتائج كثيرًا باختلاف يسير في المقدمات والإشارات والدلائل الموصلة؟ لماذا حين يتغير حرف من عنوان طويل لصفحة إنترنت يؤدي تغيير هذا الحرف إلى صفحة مغايرة تمامًا، بل قد تكون مضادة معادية للصفحة الأولى؟ لماذا يحدث كل ذلك؟ وهل عليّ أن أكون شديد الانتباه للأدلة والمقدمات لأن الاختلاف اليسير جدًا فيها يؤدي إلى نتائج مغايرة تمامًا كما رأينا؟

هذه الأسئلة تدفعني بدورها إلى أسئلة جديدة فأقول: من منكم يعرف خريطة العالم؟ هل تعرفونها بالتفصيل؟ هل يحفظ أحدكم موقع كل قارة ودولة ومحافظة ومدينة وحيّ وشارع وبناية وغرفة وخزانة ملابس ومحتوياتها في كل جزء من العالم؟ بالتأكيد هذه المعلومات بهذا التفصيل لا يعرفها أحد من الخلق، ولا يحيط بعلمها أحد قط إلا الله تعالى الواحد الأحد الذي لا شريك له في إحاطة علمه.



تأملت وتفكرت كثيرًا وأنا أمارس هوايتي الخاصة في التحرك عبر خريطة العالم واستكشاف مدنه الكبرى وعلاقتها المكانية ببعضها البعض باستخدام برنامج «google maps»، ورأيت من خلال هذا التأمل عددًا من الرؤى، أذكر لكم الآن منها ما لاحظته من علاقة العلم بالعالم.

٢

إن هذين اللفظين قد أُخذا في اللغة العربية من جذر واحد هو: العين واللام والميم، «علم»، وينبغي أن نعرف أن لكل كلمة أب وأم، فآباء الكلمات هي الأفكار، وأمهاتها هي الجذور اللفظية التي تؤخذ منها هذه الكلمات، فعندما أفكر في فكرة ما أبحث عن أم يمكنها أن تلد لي لفظًا جديدًا يعبر عن هذه الفكرة، وهذه الأم (الجذر) تلد الكثير من الأبناء (الألفاظ الجديدة) باختلاف الآباء الذين قاموا بتلقيحها (الأفكار والمعاني)

لكن هؤلاء الأبناء وإن كان بينهم اختلاف بسبب اختلاف آبائهم (الأفكار والمعاني) فإن قدرًا كبيرًا من التشابه يكون بينها نظرًا لاتحاد الأم (الجذر)، إذ لولا قدرة هذه الأم على ولادة هذه الكلمات الجديدة، لما وقع اختيار الآباء المتعددين عليها دون غيرها من الأمهات لإنجاب أبناء جدد يعبرون عن الأفكار الجديدة.

٣

إن اللغة تنشأ وتتطور من خلال هذه العملية المتكررة دائمًا، توجد فكرة في الذهن أولًا، ثم نحاول التعبير عنها بالألفاظ فلا نجد في قاموس اللغة كلمات قادرة على التعبير عن هذا المعنى وهذه الفكرة الحاصلة في الرأس، هنا تتدخل الأمهات اللغوية (الجذور) معلنة قدرتها على حمل هذه الأجنة (الأفكار الجديدة) ثم ولادتها في شكل مفردات لغوية جديدة.

وهذا المعنى هو ما عبر عنه خبراء اللغة العربية الأقدمون فيما سموه بقانون «الوضع»، حين قالوا: «الاستعمال من صفة المتكلم، والحمل من صفة السامع، والوضع قبلهما»، إذ لا بد من وضع لغوي يسبق الاستعمال والحمل، فالوضع كما قالوا هو: «جعل اللفظ بإزاء المعنى»، فتوجد الأفكار أولًا في الذهن ثم نضع الألفاظ المعبرة عن هذه الأفكار، وبذلك تكون اللغة صالحة للاستعمال وتبادل الأفكار بين الناس، فيقوم المتكلم بعملية الاستعمال وهي: «تحويل أفكاره



إلى ألفاظ»، أو بعبارة أخرى يقوم بتشفير أفكاره من خلال الشفرة التي تم وضعها مسبقًا، وأخيرًا يقوم السامع بتحويل هذه الألفاظ إلى معان وهي العملية المسماة بـالحمل، فتغلق بذلك دائرة التواصل بانتقال الأفكار من ذهن المتكلم إلى ذهن السامع عبر هذه الوسيلة الحاملة للأفكار والمسماة باللغة.

٤



نعود إلى موضوعنا فنقول: إن التشابه اللفظي بين كلمة «العلم» وكلمة «العالم» تشي بتشابه معنوي بينهما، فلنستعرض أولًا الكلمات الأخرى القريبة من هاتين الكلمتين، فنجد: العِلْمَ بمعنى المعلومات أو القدرة على إدراكها وتحصيلها، وجمعها العلوم، والعَلَمُ بمعنى الراية، والعَلَمُ أيضًا بمعنى الجبل، والعَلَمُ شيء منصوب في الطريق يهتدى به، والعَلَمُ رسم في الثوب، والعَلَمُ سيد قومه، وجمع الأربعة السابقة أعلام، والإعْلامُ بكسر الهمزة هو الإخبار، والعَلَامَةُ هي الرمز، والعَلَّامَةُ -بتشديد اللام- هو العالِـمُ عظيم العلم، والعالَم -بفتح اللام- هو الكون بكل ما فيه، وجمعه العوالم، والعالَم بفتح اللام أيضًا الجنس من المخلوقات، وجمعه العالمون، وهو في القرآن في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، والعالِم -بكسر اللام- صاحب العلم، وجمعه العلماء، والعالَمي اسم منسوب للعالم معناه الكوني أو الذائعة شهرته في كل الدنيا، والاعتلام سطوع البرق في السماء، يقال اعتلم البرق أي سطع، واستعلم أي: طلب العلم بأمر ما.



هذه الألفاظ كلها تشترك في معنى الظهور والوضوح والاشتهار، فإذا عدنا إلى لفظ العلم ولفظ العالم وجدنا فيهما نفس معنى الظهور والوجود، لكن أيهما أوسع من الآخر وأعم وأشمل؟ هل العالم أسبق في الوجود أم العلم؟ وهل تفاصيل العالم أكثر أم تفاصيل العلم؟

٥

لفهم هذه الأسئلة بشكل أفضل يمكننا تأمل رسالة شركة «جوجل» إذ تقول: «إن هدفنا هو إدارة معلومات العالم، بحيث تكون منظمة ومرتبة، ويمكن الوصول إليها من أي مكان». ثم يسترسلون في شرح هذه الرسالة فيقولون: إنهم يهدفون إلى جمع كل ما من شأنه أن يسمى معلومة، إذ إن هناك دائمًا المزيد من المعلومات التي يمكن الوصول إليها، لذلك قالوا: «نريد معرفة خريطة العالم، وأسماء بلدانه ومقاطعاته، وأسماء شوارعه، وأرقام البنايات في كل شارع، ومحتويات كل بناية من أثاث وغيره، وأسماء المقيمين في كل بناية، وأعمارهم، وتاريخهم الصحي، حتى يمكننا يومًا ما أن نعلم عدد المرات التي أصاب السعال فيها سكان هذا الشارع خلال النصف ساعة الماضية، كل هذه معلومات، لذلك نحن نريدها كلها».

هذه الرغبة الطموحة بل المجنونة للقائمين على هذه الشركة العملاقة جعلتني أفكر في طموح الراغبين في العلم والمعرفة، هل يستطيع أحد أن يعرف كل ما في العالم من معلومات؟ بالقطع لا، وذلك لأن معلومات

العالم تزيد وتتغير في كل لحظة، وشكل العالم وعدد سكانه والحالة المزاجية والصحية لكل منهم كل ذلك قد تتغير في هذه الدقائق التي تقوم فيها بقراءة هذا المقال، لذلك يكفيك أن تعرف خريطة العالم إجمالًا وأنه يحتوي على قارات سبع هي كذا وكذا، ثم تعرف الدول الكبرى في كل قارة بما في ذلك الدول الكبرى في القارة التي تقيم فيها، ثم تعلم المحافظات الواقعة ضمن إطار بلدك، ثم تعرف الأحياء الرئيسة في محافظتك، ثم تعرف شوارع حيك وحواريه، ومحلات البقالة وغيرها من المنتجات والخدمات في شارعك، ثم موقع منزلك من الشارع، وموقع غرفتك من المنزل، وموقع سريرك من الغرفة، وموقع وسادتك من السرير، هذا مع علمك باسمك واسم أبيك وأمك، واسم زوجتك وشكلها، واسم أبنائك وزملائك في العمل.

إلى غير ذلك من تفاصيل الحياة اليومية، ومعرفتك بهذه المعلومات اللصيقة بك يعد حدًا أدنى للحياة، وما فوق ذلك من معلومات عامة في العالم بعيدة عن حركتك وحاجتك اليومية يعد من الثقافة العامة التي يقع بعضها في إطار المعارف الأساسية للمثقف، وبعضها في إطار المعارف التكميلية والثانوية.



٦

وهذا الذي قلناه عن معرفتك بالعالم نقول مثله عن معرفتك بالعلم، فينبغي أن تعرف أن العلوم لها دوائر كبرى، هي من العلم بمنزلة القارات من العالم، وهذه الدوائر الكبرى أربع:

هي العلوم الشرعية والعلوم اللغوية والعلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، ثم تبدأ في التعرف إلى أهم العلوم في كل دائرة كما تعرفت إلى أهم الدول في كل قارة، ثم تتعرف إلى الخريطة الداخلية لكل علم، ثم تعرف التفاصيل والدقائق في هذا العلم، مع معرفتك بما لا يمكن الاستغناء عنه من معلومات ومهارات أساسية في العلوم كافة، لكن يجب أن تعلم وأنت تغوص في بحار العلم أن هناك جوانب بالتأكيد غائبة عنك في أعماقه أو على سطحه وشطآنه، وهذا ما عبر عنه القائل في قوله:

وقل لمن يدعي في العلم فلسفة ●● عرفت شيئًا وغابت عنك أشياء



حاول أن تجمع من جزئيات العلم بقدر طاقتك، ولا تنسَ الخريطة الإجمالية له أبدًا، فإن هذا مما يقبح نسيانه، واحرص على رد كل فرع لأصله، ووضع كل معلومة في إطارها، وتحديد موقع كل فكرة من الخريطة الإجمالية والتفصيلية للعلم.

٧

في ضوء ما سبق، نعلم أن كل ما في العلم من تفاصيل وقواعد هي بعض ما في العالم، وأن العالم المنظور فقط أكثر تعقيدًا بكثير من أن يحيط به علم البشر، فكيف بالعالم غير المنظور أو المكتشف بعد؟ لذلك نقول: إن كل ما في العلم في العالم وليس كل ما في العالم في العلم، فاعلم أيها الإنسان أن كل علمك

في علم الله شبيه بالعدم، أو هو والعدم سواء، وأنه ما أوتيتم من العلم إلا قليلًا كما قال القرآن الكريم، وأن أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون.

٨



إن إدراك الظواهر والعناية بها ومحاولة فهمها وتفسيرها هو غاية علم البشر، أما حقائق الأشياء وتغيراتها الداخلية، ورحلة المادة والطاقة والأفكار والمشاعر على المستوى الكلي والجزئي من بداية الخلق إلى نهايته هي في علم الله تعالى وحده، وبذلك نحاول أن نفهم موقف «الخضر» حين خاطب «موسى» عليهما السلام عندما كانا في السفينة لحط طائر فشرب من النهر ثم طار فقال الخضر لموسى: «مثل علمي وعلمك في علم الله كمثل ما أخذ هذا الطائر من النهر».

فسبحان الله العالم العليم الحكيم السميع البصير القدير.

العلم وفضله





الشيخ بدر المشاري

فك الله أسره

من على جبل وفي غار، وثلاث سنوات متتالية ينقطع عن الناس إلا في هذا المكان، وإذا بارتباط بين الأرض والسماء، لكن من نوع آخر ينقل وجهة الدنيا إلى أن أصبحت كلها تهفو إلى تلك الديار، ينزل جبريل عليه السلام على رسولنا ﷺ في الغار بعدما حُبّب له الخلاء، واستمر ثلاث سنوات، أول آيات نزلت ما هي؟

---

* المقال مقتبس من خطبة للشيخ بدر المشاري خلال حفل تكريم، بتاريخ ٨-٧-٢٠١٩م، موقع يوتيوب، بعنوان: كلمة فضيلة الشيخ بدر المشاري عن العلم وفضله.

الآيات التي نزلت تحمل توصية للأمة عن العلم، وبالمناسبة العلم الذي نزل، هو علم ليس فقط للأمة المسلمة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. ماذا يقرأ؟ يقرأ في الكتاب المقروء؟ القرآن، لم يكن قد نزل شيء، إنما يقرأ في كتاب الكون المفتوح، (اقْرَأْ) أن هذه رسالة للأمة، وأن هذه الرسالة وهذا الدين لا يقوم على معجزات، وأننا ما عندنا معجزات مثل عصا موسى يضرب بها البحر فينشق، ولا عندنا ناقة صالح، ولا عندنا من يبرئ الأكمه والأبرص، عندنا معجزات نعم وأيضاً كبيرة لكن لتثبيت الإيمان، لكن ما هي معجزتنا؟



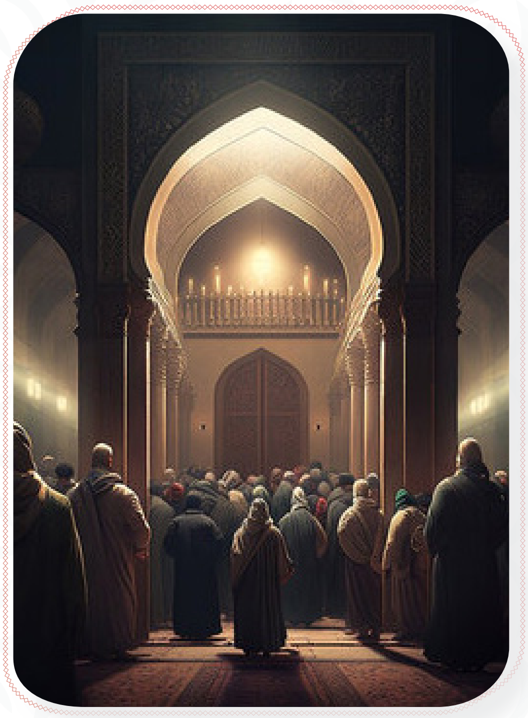
ما عندنا معجزة إلا القرآن، القرآن نزل بالعلم، العلم بالله أكبر علم، نزل القرآن على أمة جاهلة ظالمة لا تعرف الحق ففتحت الدنيا، فتنزل (اقْرَأْ)، كل أدوات العلم وطرق العلم ووسائله جاءت في سورة اقرأ، أول بيان مع الرسول، علاقة السماء بالأرض بالعلم، (اقْرَأْ) أولاً خمس أو ست مرات: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) أولاً، (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)، (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)، ثلاثة (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) أربعة (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) خمسة، كلها من أول لحظة، فما هو المطلوب؟

مطلوب أن تفهم الأمة أن العلم هو الذي سيبقى لهذه الأمة، وما الذي عندنا غير العلم بهذا القرآن الكريم؟ الأمة انتقلت من ماذا؟ كنت مرة على عرفة في الحج، وكان هناك لقاء تليفزيوني، وقال لي الأخ

المذيع: ما الرسالة التي تريد أن توصلها للأمة؟ قلت أتمنى أن رسول الله ﷺ يكون معنا الآن حتى يرى هذه الجموع، يخرج رجل واحد من وادٍ في مكة ومليار ونصف المليار أي ربع الأرض يشهدون ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وبالمناسبة: العلم لم يرتبط فقط بالمسلم، بل ارتبط بالإنسانية: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، خلق من؟ هل قال: خلق المؤمن أو العربي؟ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ علم من؟ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فالعلم هذا انتشر، وطبق رسول الله هذه المعرفة ونزل، وبالمناسبة حتى خديجة رضي الله عنها تحترم هذا الكيان وهذا البيان، ولذلك لما نزل قالت له تعال نذهب إلى من؟

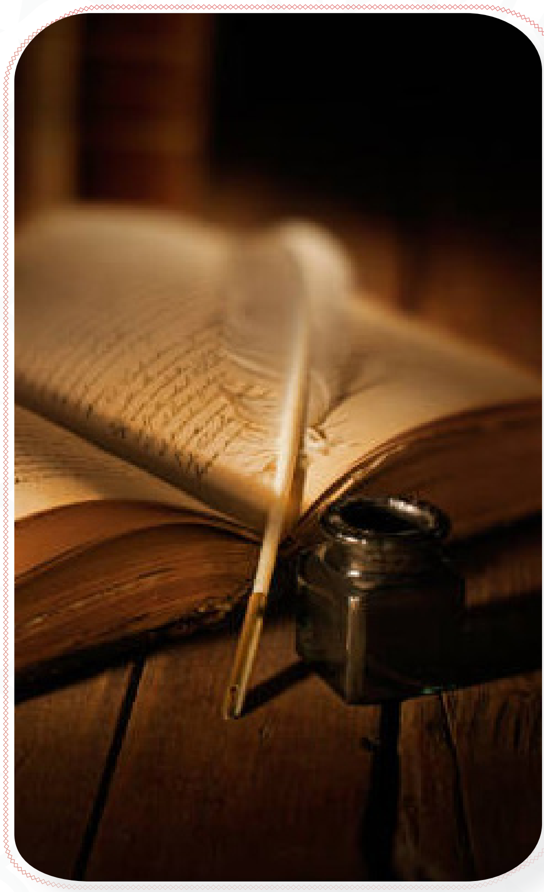
إلى «ورقة»، «ورقة» أولاً اسمه له علاقة بالعلم، ثانياً: كان مهتماً بالعلم، تسعون سنة وهو يمكث على الكتب السماوية يتعلم، وكأن الله أراد أن يكون له هذا الموقف، وعلى الصحيح أنه مات مسلماً موحدًا بنيّته: «يا لَيْتَنِي فيها جَذَعًا، لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا إذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ».



ثالثاً: هل الرسول ﷺ طبق هذا أم لم يطبقه؟ طبقه، واجتماع دار الأرقم عبارة عن ماذا؟ ليس عندنا خلايا تحت الظلام، بل كانت دار الأرقم عبارة عن معهد أكاديمي تعليمي إيماني اجتماعي عسكري، ولذلك الذين خرجوا من دار الأرقم قادوا الدنيا كلها وإلى اليوم آثارهم باقية.

الأمر الأهم: الرسول عندما انتقل إلى المدينة أسس ماذا؟

كان معه فقراء المهاجرين أهل الصفة، فقال للمهاجرين: تعلموا زراعة الأنصار، وقال للأنصار: تعلموا تجارة المهاجرين، أما أنتم يا أهل الصفة فعلموهم الحرف في النهار، وعلموهم القرآن بالليل. ولو تكلمنا على القرّاء وما حصل لهم، ولو تكلمنا عن زيد، ما انتهينا.



والنبي ﷺ يهتم بأشياء أكبر من ذلك، يهتم بالترجمة، أتجيد لهجة القوم؟ قال: نعم لكني أحتاج وقتًا، قال: كم تحتاج، قال أحتاج ثماني عشر ليلة، أو تسع عشرة ليلة وأحفظها يا رسول الله، تحفظها علمًا وكلامًا، فتكلم الناس وتحاورهم؟ قال: نعم، ثماني عشرة ليلة، أو تسع عشرة ليلة، ويأتي زيد يتكلم لغتهم، لغة القوم، هذا كله اعتناء من الإسلام بالعلم.

ولذلك أنا أقول: موسى رسول من أولي العزم، وعندما نقرأ سورة الكهف كل جمعة، اثنان وعشرون آية في سورة الكهف تتحدث عن قصة موسى مع الخضر، فقد وقف موسى خطيباً وبنو إسرائيل جهال، يقول لهم تعلموا، وأعظم العلم المعرفة بالله، لكن همهم بطونهم فقط، كانوا يريدون الأكل والشرب فقط، ولما سأل موسى أحد بني إسرائيل قال له: من أعلم الناس من أهل الأرض؟ موسى رسول من أولي العزم، فظن موسى أنه أعلم مَن في الأرض، وهو أعلمهم في ذلك الوقت، قال موسى عليه السلام: أنا. فأنزل الله جبريل يعاتب موسى، لأنه ما نسب العلم لله عز وجل، يجب أن تنسب الفضل لله سبحانه

وتعالى، فلما قال الرجل لموسى عليه السلام: من أعلم أهل الأرض؟ قال موسى عليه السلام: أنا، فقال جبريل عليه السلام لموسى: إن الله يعاتبك أن نسبت العلم لك، وأن في الأرض من هو أعلم منك، رسول من أولي العزم، قال في الأرض؟ قال: نعم، الخضر، تذهب إليه وتلتقي معه وتجلس إليه وتتعلم منه، قال أين أجده؟ قال: عند مجمع البحرين.

مجمع البحرين الأقوال فيها كثيرة، قيل التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض في مكان لا يقل عن البحر الأحمر ألف كيلو، في كم قطعها موسى؟ الله أعلم، ويقول لفتاه: لا أبرح، والله لا أتوقف حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبًا من أجل العلم.



أي عظمة للعلم هذه التي تجعل رسولًا من أولي العزم يمشي أحقابا أو أكثر لكي يحصل المعلومة التي ليست عنده؟!

العلم عزيز، ولذلك أنا أقول علموا أولادنا أن يتعلموا لا من أجل الشهادة فقط، أو من أجل الدرجات فقط..

لا تنهض أمة ولا تقف على رجليها إلا بالعلم، أتحدى.. واقرأ التاريخ فلن تجد أمة لها حضارة ولها كيان مفلسة من العلم.

أنصار النبي ﷺ

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

رئيس الهيئة

د. محمد الصغير

رئيس التحرير

محمد إلهامي